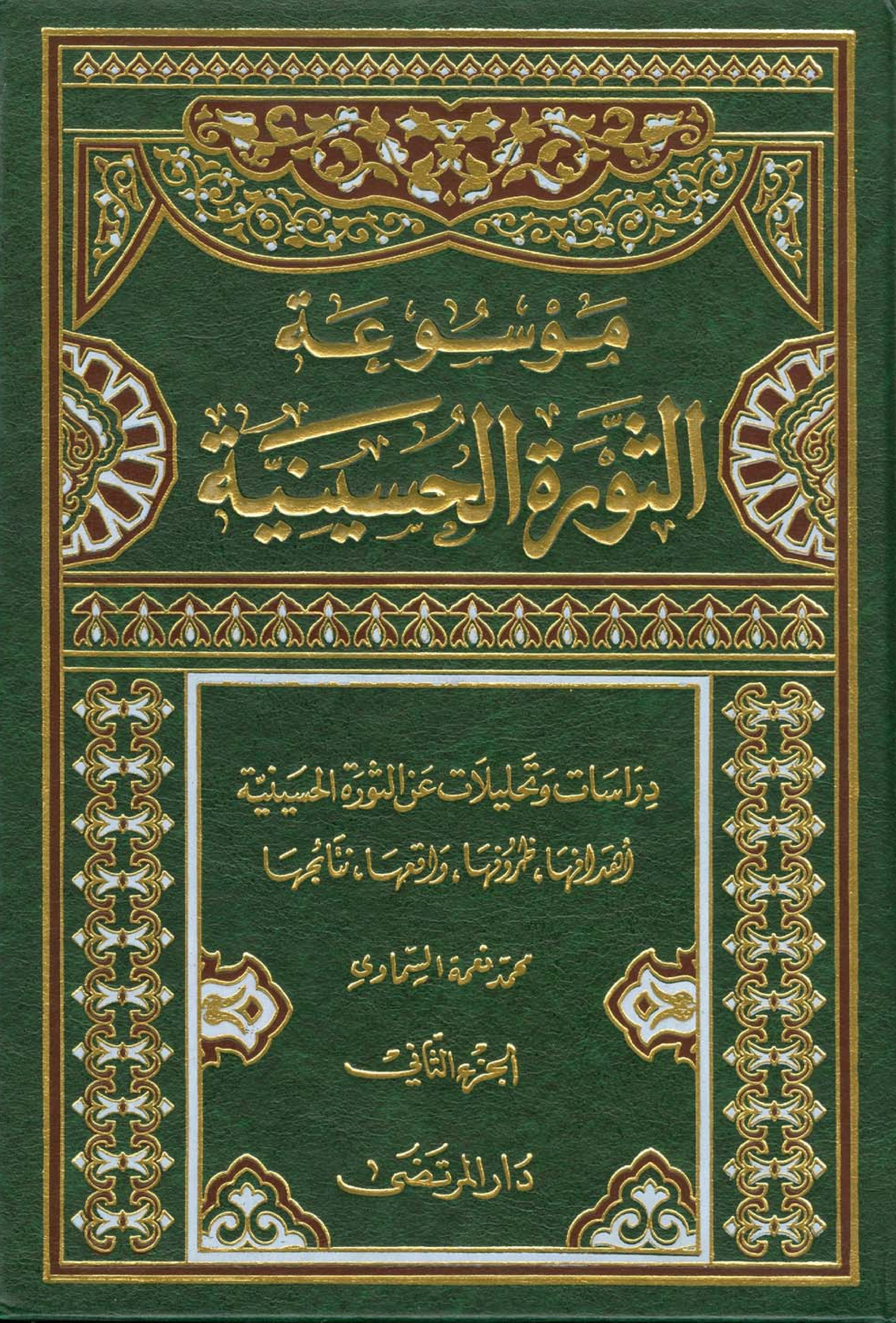


موسوعة
التورة الحسينية
دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية
أهدافها، ظروفها، وقائعها، نتائجها
محمد نعمة السماوي
الجزء الثاني
دار المرتضى

موسوعة

الثورة الحسينية

٢

مصورات
حسين الخزاعي لعام ٢٠١٢

دار المرتضى

للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
تليفاكس ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
ص.ب.: ٢٥/١٥٥ الغبيري
E-mail: mortada14@hotmail.com

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

موسوعة
الثورة الحسينية

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، واقعها، نتائجها

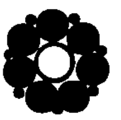
احاديث عن انصارها ومناوئيها
ونتائجها المباشرة والبعيدة
وبحوث في تاريخ الاسلام والمسلمين
ومجتمعاتهم في ظل الخلاف والانحراف

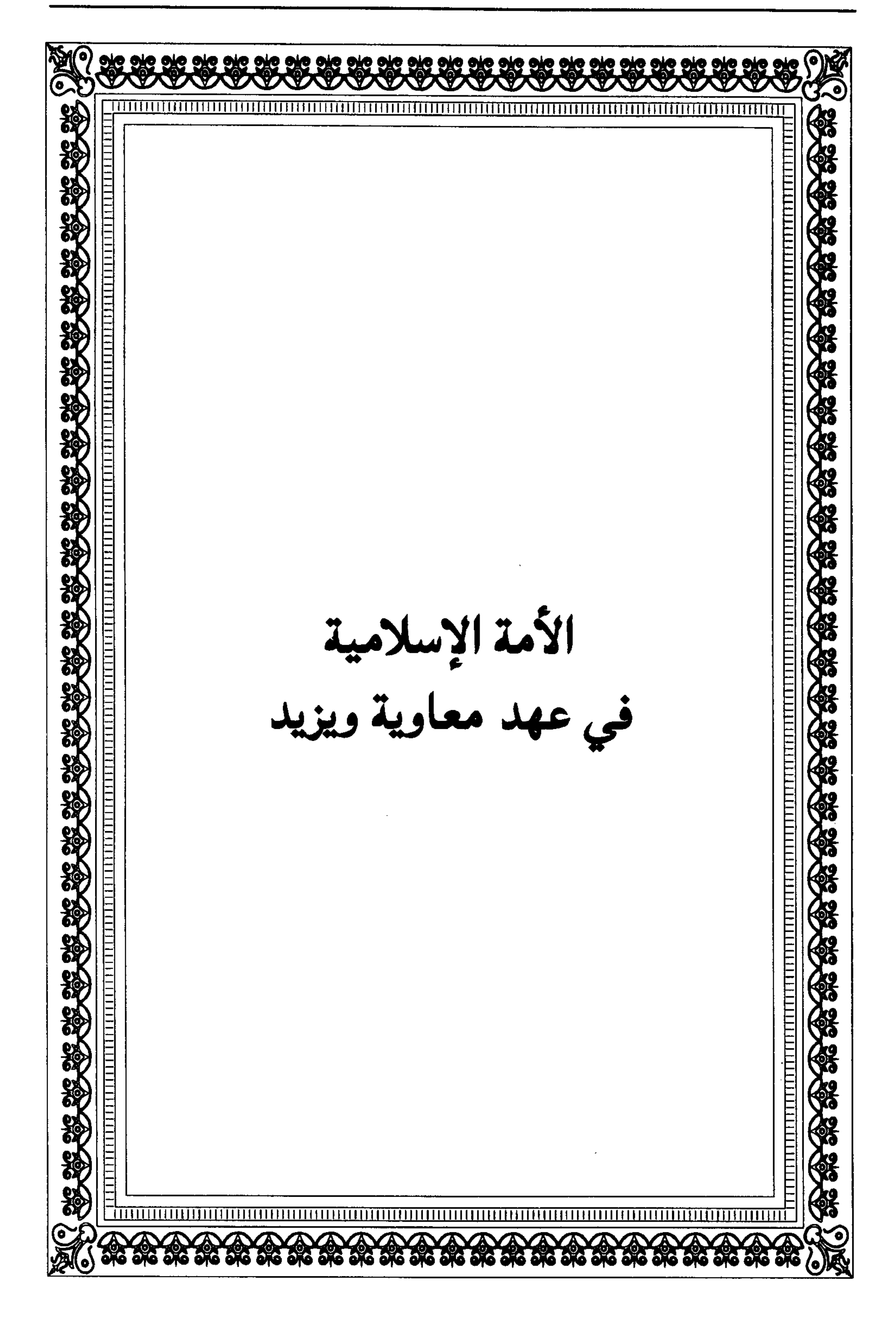
محمد نعمة السماوي

الجزء الثاني



مضامين الكتاب وبحوثه





الأمة الإسلامية
في عهد معاوية ويزيد

١ - القيادة ـ عودة إلى معاوية
الحاشية ـ الملأ المقربون

فرعونية جديدة، تستغل اسم الإسلام وشعاراته

برغم ما قد يبدو للبعض من غرابة أو ميل للتطرف في اختيار هذا العنوان، للفصل الذي نحن بصدده، وهو الأمة الإسلامية، والمجتمع الإسلامي في عهد معاوية، وما نشير فيه إلى عودة إلى (الفرعونية)، ليس بمعناها الحرفي البحت الذي يعني تبني أفكار وسلوك فرعون معين بذاته، وهو فرعون موسى الذي ورد عنه وعن تسلطه واستكباره الكثير في القرآن الكريم، فإن هذه الغرابة لن تظل ماثلة أمام أذهان البعض إذا ما توضح لديهم أن العودة ليست إلى الفرعونية التقليدية بتبنّي حتى اسمها وشعاراتها وطقوسها، بل إلى فرعونية حديثة نسبياً، ترمز إلى الطغيان والحكم الاستبدادي المطلب الخاضع لنزوات ورغبات (الخلفاء الفراعنة)

وأنه ليس أمراً مجانباً للواقع أن نجد أن المجتمع الإسلامي في عهد معاوية كان بسبيله إلى أن يتخذ شكلاً جديداً غريباً عن الإسلام، ويكاد الشكل الجديد أن يصل إلى حالة من (الثبات) أو (الاستقرار) أو (التحجر) على صيغ ومفاهيم وآراء جديدة وغريبة عن الإسلام، لا تمت إليه بصلة، مع أنها تستغل اسمه وشرعيته وغطاءه وبعض مفاهيمه العامة، ما دامت تحقق لها أهدافها المطلوبة، بجعل هذا الاستقرار والثبات يتخذ الشكل الصنمي المتحجر ليألفه الناس وينقادوا إليه بالطاعة والعبادة، لا للأمد الذي يحتمل أن يعيشه الفرعون الأول لهذه السلالة الحاكمة الجديدة، وإنما لأزمان أوسع، تمتد لتشمل حياة كل أفراد السلالة التي يحتمل أن تعيش بعد معاوية، من الأولاد والأحفاد إلى ما لا نهاية، بملك عضوض وراثي، له طقوسه وسدنته ووزراؤه ووعاظه وحاشيته وجيشه وجباته وحراسه.. الخ.

النظام الأموي ــ الإفادة من الخبرات الفرعونية المتراكمة

أما الأسس التي يقوم عليها النظام الأموي الغريب عن الإسلام، فهو خليط من

خبرات فرعونية متراكمة في فن السياسة والحكم و (الدهاء) والحيلة مأخوذة عن سير وأخبار وتواريخ الملوك السابقين، قياصرة كانوا أو أكاسرة أو فراعنة، والذين كان عاهل النظام الجديد يحرص كما رأينا على تتبعها متابعة يومية مستمرة ضمن برنامج عمله اليومي المادي، ممزوجة مع خبرة (إسلامية) جاهزة، قريبة للنفوس، لا بد من (حرفها) و (تشكيلها) لتبرز كأفضل صيغة عملية للحكم والحياة توضع أمام الأمة مع أن (فائدتها) لا تكمن إلا في ترسيخ النظام الجديد.

ولا بد من التمهيد والاعداد لهذا النظام بعمليات دؤوبة ضخمة لغسل الأدمغة التي تأثرت إلى حد بعيد بالإسلام ونظراته المتكاملة إلى الحياة، واستئصاله إن اقتضى الأمر وزرع إسلام بديل إن اقتضى الأمر، لترسيخ النظرة الجديدة، غير المتحفظة والمتحررة من قيمه ومثله، وجعلها تبدو وكأنها هي (الأصل) أو (الإسلام الحقيقي الواقعي أو العملي) الذي يحقق طموحات (الخليفة) الأموي الأول ومن يأتي بعده من (الخلفاء) و (أمراء المؤمنين).. وأنه لا بد وقد حقق طموحاتهم قد حقق طموحات الأمة المغلوبة المخدوعة..! التي لا تعرف مصلحتها أكثر مما يعرفها الخليفة الفرعون.

التجربة الأموية، تقاطع مع السنن الربانية

إن التجربة الأموية في الحكم، يبدو أنها لم تكن تريد أن تفهم السنن الربانية التي تنظم حياة الإنسان على هذه الأرض وتحاول لفت نظره باستمرار إلى طبيعة العلاقات الصحيحة التي ينبغي أن تقوم بينه وبين أخيه الإنسان وبين الطبيعة التي تشكل أحد العوامل المؤثرة في مسيرته وحياته والتي تكلم عنها القرآن الكريم بوضوح.. هذا الكتاب الذي كان من المفترض أن يكون أول من يعتمده ويفهمه بشكل صحيح غير مسؤول من يتصدى لحمل مسؤولية الخلافة، ويأخذ ويعمل بكل ما جاء فيه بنفس الطريقة التي أخذ وعمل بها الإمام الأول لهذه الأمة، وهو رسول الله محمد ﷺ نفسه.

إن أركان هذه الدولة الأموية الجديدة قامت على أسس أرضية بحتة، لم تعتمد إلا على قدرات الإنسان المجردة فقط، وعلى التجارب الإنسانية البحتة والمتراكمة عبر الزمن، أما ما تعدى ذلك فإنه لم يكن يتجه إلا بمسار واحد ينسجم مع الخبرات البشرية التي من شأنها أن تحقق مصالحهم وتثبت نظام حكمهم المتستر بالإسلام،

لأن هذا الستار لا يتعارض مع (الأهداف العليا) التي يتطلعون إليها، وهم يملكون أن يغيروا بعض ألوانه وخطوطه ما دام المطلوب هو الستار وليس ما يحتويه من ألوان وخطوط من قبل الغالبية العظمى من الناس، تلك التي تملك وعياً أقل وشعوراً بالمسؤولية أقل منه. هذه الغالبية التي قاموا هم بتربيتها واعدادها وتوجيهها.. أما الأقلية الواعية المدركة، فلها علاج آخر لجعلها تسكت ولا تعترض على كل التجاوزات التي يقوم بها النظام الحاكم، وهو علاج معروف لدى كل أنظمة القهر والتسلط والجور.

بين الانحراف الحذر والانحراف المعلن

وإذ أتيح لهذه التجربة الأموية أن تستمر قرابة ألف شهر، كانت النماذج الأخيرة (للخليفة) أو الحاكم وبدءاً من يزيد نفسه، تتباين وتختلف عن النموذج الأول معاوية المتحفظ الحذر الداهية، وتخرج خروجاً سافراً صريحاً عن الإسلام، ولا تحاول أن تغطي تصرفاتها أمام الأمة وتستهين بها استهانة تامة.

ولو قدر لهذه الأمة الإسلامية أن تستجيب استجابة كاملة لكل التصرفات الشاذة المنافية للإسلام التي صدرت عن (الخلفاء) وحاشيتهم وأقاربهم، وأن تستمر عملية غسيل الدماغ بنفس القوة والحماس والدقة التي قام بها معاوية، ولو لم تقع أحداث مهمة جعلت الأمة تنتبه بشكل واضح وتتحفز لتغيير أوضاعها وتصححها نحو مسارها الأول الذي عرفته على عهد رسول الله ﷺ، لكان الإسلام ديناً غابراً وتراثاً عارضاً قديماً، أخذ دوره في فترة معينة ثم انتهى، صفحات في سجلات (التاريخ العربي) كما يحاول البعض أن يعرضه أمامنا الآن في خضم هذه الحملة الحديثة للاستشراق والاستعمار وجيش العملاء المبهورين المعجبين (بالحداثة) الغربية والحضارة الغربية والشعارات البراقة التي تحاول أن تجعلها تحل محل القيم الأصيلة للإسلام، بعد أن لم تستطع أن تجعله ينحسر عن حياتنا انحساراً تاماً ونهائياً.

المعركة الأموية مع الإسلام استمرت طيلة العهد الأموي

إننا ينبغي أن نفهم طبيعة المعركة الأموية مع الإسلام، والتي لم تبدأ مع معاوية بالتأكيد، وينبغي أن نفهم أن التحيز المهمل وغير المسؤول واللاابالي إلى الجانب الأموي يعتبر تحيزاً ضد الإسلام، فمهما حاولنا أن نقيّم النظرة الأموية قبل الإسلام

وبعده، فإننا سنجد أنها تنطلق من اعتبار نفسها قوة تواجه قوة آل هاشم قبل الإسلام وآل محمد ﷺ والإسلام بعد ظهوره.

وطبيعي أنها بعد أن استجابت مكرهة، وأدخل الإسلام مذعنين، سادة وكبار هذه العائلة وفي مقدمتهم أبو سفيان وابنه معاوية، فإن نفوذ وقدرة هذه القوة الأموية بوجه الإسلام وبوجود الرسول ﷺ، قد تضاءلت إلى حد بعيد ولم يعد لها أي بريق أمام اشراق الإسلام ونبيه ﷺ الذي لم يكن بمقدور أحد الوقوف بمواجهته أو الصمود أمامه وتحديه.

وقد صرح معاوية متبجحاً بذلك (وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها، إلا ما جعل الله لنبيه ﷺ فإنه انتخبه وأكرمه)[1].

التبجّح الأموي بكرامة الأصل. تمهيد لخنق الأنفاس

لقد أعلن معاوية ما لم يتمكن من قوله لمدة طويلة، أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها دون استثناء، إلا ما وصل الله لنبيه ﷺ، وهذا ليس مجرد فخر عادي أو تبجح لا يقصد منه أي شيء، وإنما هو تعدٍ على كل أسلاف محمد ﷺ وعلى كل من جاء بعده أيضاً، فهو تعد عليه أيضاً، ويدل على اصراره زرع هذا التصور في عقول المسلمين قوله في كتاب لأمير المؤمنين عليه السلام: (إن لي فضائل كثيرة، وكان أبي سيداً في الجاهلية وصرت ملكاً في الإسلام وأنا صهر رسول الله ﷺ وخال المؤمنين وكاتب الوحي)[2].

وإذا ما توقفت هذه المعركة بين الأمويين والإسلام في الأشهر الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ إذ أنها كانت مستمرة معهم طوال حياته، وبعد أن لم يختلف عليه اثنان، فإنها توقفت إلى أجل محدد ريثما يلتقط العدو الأموي أنفاسه ويهيء خططاً جديدة وأساليب مبتكرة لضرب الإسلام من الداخل بعد أن لم يتمكن من ضربه من الخارج.. أساليب تتفق مع المراحل القادمة والظروف المستجدة.

وكانت لحظات ترقب دائمية، انتظرت فيها العائلة الأموية (التاجرة) والمشهورة بالدهاء والمكر وذات النسب الرفيع الذي يشترك مع النسب الرفيع للرسول الكريم ﷺ

(١) الكامل في التاريخ ٣-٣٤.
(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٩.

نفسه بجد أعلى هو عبد مناف، الوقت المناسب الذي ترفع فيه راية الحرب مرة أخرى وتغرز سهماً في جسم الإسلام.

استهدفوا أهل البيت عليهم السلام بعد أن فشلوا مع النبي صلى الله عليه وآله

وهكذا كان الأمر مع آل النبي بعد أن لم يستطيعوه مع النبي صلى الله عليه وآله نفسه، وقد استأنفوا الحرب التي توقفوا عنها لفترة وجيزة فقط. فكان مقتل عثمان الفرصة الذهبية التي مهدوا لها واستغلوها، وكان عدم مبايعة معاوية لأمير المؤمنين عليه السلام ثم مطالبته بتسليم الثوار الذين قتلوا عثمان ومطالبته باقراره على الشام ومصر ليسكت عن ذلك رغم علمه أن هذين الأمرين غير ممكنين، لما أسلفناه من أسباب في الفصل السابق، الاعلان المباشرة لهذه الحرب الظالمة التي شنها معاوية على أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن توقف شنها على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، وقد رأينا الأساليب التي اتبعها معاوية (للفوز) بحربه الظالمة هذه ضد الإمام عليه السلام وضد الإسلام.

ماذا كانوا سيفعلون، لو علموا أن الأمر سيصير إليهم

ولو قد علم آل أبي سفيان إن (ضربة الحظ السعيدة) ستكون إلى جانبهم في النهاية، وأن معاوية سيكون (خليفة) على المسلمين ويجلس على كرسي رسول الله صلى الله عليه وآله، بل ويحتله احتلالًا دائمياً، هو وآله من بعده، لكانوا في مقدمة المدافعين عن الإسلام والمحاربين من أجله ولما وقفوا منه تلك المواقف المعادية، وكأنما كان الرسول صلى الله عليه وآله وكل من جاء بعده، يمهدون السبيل لحكم دائم لآل أمية على عرش الإسلام، فأي حظ سعيد، وأي فرصة ممتازة قد أتيحت لهؤلاء القوم وهم يرون ارث محمد صلى الله عليه وآله ينتقل إليهم ويصبح في قبضتهم يحوطونه ويرعونه ويحفظونه لأولادهم من بعدهم بعد اجراء التنقيحات والتعديلات المناسبة التي تقتضيها طبيعة الانحراف الأموي المتعمد (الأموية كانت تريد أن تنهب مكاسب الإسلام بالتدريج، هذا النهب الذي عبر عنه بأقسى صورة أبو سفيان حينما دخل قبر حمزة رضوان الله عليه بقدمه وهو يقول: إن هذا الدين الذي قاتلتمونا عليه، هذا الدين الذي بذلتم دماءكم في سبيله، وضحّيتم في سبيله قوموا واقعدوا وانظروا كيف أصبح كرة في يد صبياننا وأطفالنا.

كان الشرف الأموي يريد أن يقتنص وأن ينهب مكاسب البناء الإسلامي والوجود الإسلامي، وكانت هذه المؤامرة تنفذ على مستويات، وكانت المرحلة

الأولى من هذه المؤامرة ترسخ الأمويين في الشام، يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية بعد يزيد ومحاولة استقطاب معاوية للشام عن طريق بقائه هذه المدة الطويلة فيها.

ثم كان معاوية بن أبي سفيان بنفسه، ينتظر الفرصة الذهبية التي يتيحها مقتل عثمان بن عفان، هذه الفرصة الذهبية التي تعطيه سلاحاً غير منتظر يمكن أن يمسكه ويدخل به إلى الميدان. ولهذا تباطأ عن نصرة عثمان.. كان عثمان يستنصره ويستصرخه ويؤكد له أنه يعيش لحظات الخطر ولكن معاوية كان يتلكأ في انقاذه)[1].

ونتساءل: كيف ستكون شراسة المعركة هذه المرة للحفاظ على هذا المكسب الكبير الذي لم يكونوا يحسبوا أنهم سيحصلون عليه، وها هو الآن كله لهم، فقد أصبح أمراً واقعاً معاشاً وما عليهم سوى العمل لتثبيته واقراره وترسيخ استثماره بشكل حاذق (وذكي) لأجيالهم القادمة من الأبناء (المحظوظين) سليلي هذه العائلة التي أذهبت النبوة والإسلام كل ما تبقى لها من بريق ومجد غابر، وها هو الآن يعود إليها بأكثر مما كان بفضل هذه النبوة وبفضل الإسلام نفسه.!

معارك جديدة تخوضها الدولة الفرعونية

ومن يمكن أن تكون له قوة وعزم علي عليه السلام، ليقف بوجوههم بعد اغتيال هذا الإمام؟ ومَن يمكن أن تكون له مؤهلاته ومركزه بين أبناء الأمة؟.

كانت أمام معاوية معارك أخرى بعد اغتيال الإمام عليه السلام على يد ابن ملجم، أهمها معركتان، معركة لكسب الخلافة، الملك إلى الأبد.!

ومعركة لاعداد الأمة وترويضها لتقبل يزيد خليفة وأميراً للمؤمنين..!!

ولا بد لكسب هاتين المعركتين من معارك أخرى تبذل فيها أموال الأمة مرة، وتزهق فيها الأرواح مرة وتشترى بها الضمائر والسيوف، ضمائر المحدثين والقصاصين والمفسرين والشعراء وذوي الحيلة والرأي والمكيدة ورؤساء القبائل ومرتزقة الجند.

لا بد من نظام جديد ترسي عليه الدولة الأموية الجديدة أركانها، لا يرتبط بالنظام (القديم) الذي وضع رسول الله صلى الله عليه وآله أصوله وقواعده - والذي أصبح قديماً

(١) أهل البيت/ تنوع أدوار ووحدة هدف / السيد محمد باقر الصدر ص ٢٥-٢٦.

وغابراً بحكم انحساره السريع عن الحياة الواقعية للأمة وأريد له أن يكون مجرد خيالًا وأثراً عابراً وأحد موروثات الأمة لا كيانها الرئيسي وأساس وجودها الوحيد وقيامها كأمة إسلامية. فلا يحمل النظام الأموي (الجديد)، من النظام الإسلامي الشامل إلا اسمه، ولا تظهر فيه إلا بعض الممارسات الشكلية التي تزيّنه وتجعله جديراً بنظر الأمة المغلوبة بحمل اسم الإسلام وتمثيله والوصاية عليه وعلى كل مقدرات الأمة.

وهكذا كان الأمر، وأديرت هذه المعارك مجتمعة من قبل العاهل الأموي المتمكن، وأعد لذلك كل امكانات الدولة الإسلامية وأموالها وخزائنها التي تجمعت كلها في يديه.

هل جاء الرسول ﷺ ليبشر بمعاوية!!

لقد بدت الأحاديث التي وضعت ورويت عن الرسول ﷺ، بشأن معاوية وكأنها ترينا أن المهمة الرئيسية من بعثه ﷺ إلى الناس كافة، هي التبشير بمعاوية وانذار الناس عاقبة مخالفته.! فمعاوية كما روي عنه ﷺ، بدا في الأحاديث الموضوعة في خلافته نفسه (والتي ذكرنا قسماً منها في الفصل الثاني)، أمين الله على كتابه ووحيه، وإن جبرائيل الذي أشار على الرسول ﷺ لاستكتابه وأنه ﷺ بشره بالخلافة ودعا الله أن يعلمه الكتاب والحساب ويقه العذاب ويمكنه في البلاد ويجعله هادياً مهدياً، ويهده ويهدي به، وأنه مغفور له وأنه يعادل جبرائيل ومحمد في الأمانة، وهو نظير اللوح والقلم وإسرافيل وميكائيل.. ويدل على ذلك أن الخلفاء وقروه من قبل، وأنه لم يتنازل فيقبل الخلافة إلا عندما سمع قول رسول الله ﷺ: إن ملكت فأحسن.. الخ.

وكما قلنا، فإن هذه الأحاديث الموضوعة والملفقة، التي كانت بالتأكيد رد فعل على الأحاديث والآيات الواردة في فضل أمير المؤمنين عليه السلام والمؤكدة بشكل لا يقبل التباس عن طرق صحيحة لا اختلاف عليها ومصادر موثوقة لدى كل الأمة، هذه الأحاديث الملفقة إذا ما أضيفت إليها هالة الشرف القرشي العالي والنسب الرفيع كانت تمهد الأمر لمعاوية لاستلام (الخلافة الملك)، هو وأفراد عائلته إلى الأبد.

وقد حاول معاوية بلفتة ذكاء منقطعة النظير أن يحول تاريخ العداء الذي كان قائماً بين آله وبينه هو بالذات من جهة، وبين رسول الله ﷺ وآله من جهة أخرى، ويعرضه أمام الأمة الصامتة المغلوبة على أمرها، وكأنه تأريخ ود وحب شديد بدأ بين

الرسول ﷺ ومعاوية بالذات، بعد دخول معاوية الإسلام، حتى أنه قال فيه ما لم يقل في أحد غيره، حتى عثمان نفسه ومن سبقه من الخلفاء.

ولنتصور وسائل الاعلام العديدة والمتمرسة وهي تقوم بعملها لغسل عقول الأمة، والتي بدأت عملها في محيط أهل الشام الجهلة بالإسلام، وهي تقوم بهذا العمل بكل همة ونشاط تدعمها اليد المنبسطة بالعطاء اللامحدود، يد (الخليفة) المسيطر على كل شيء والمالك لكل شيء، لندرك اندفاعها لتحقيق (الانجاز الكبير) الذي حققته بهذا السبيل، ولنتصور أنها كانت أكبر الوسائل الاعلامية المتيسرة، وقد كانت كلها مكرَّسة وبطاقة قصوى لهذا الغرض، ولنتصور النتائج الكبيرة التي حققتها تلك الوسائل وخصوصاً في محيط الشام.

ولما كان أمير المؤمنين عليه السلام يمثل عقبة رئيسية بوجه الأمويين، حتى بعد اختفائه من الساحة، فقد تزامنت الحملة الاعلامية الواسعة للرفع من شأن معاوية حملة أخرى لا تقل عنها سعة للغض من قيمة أمير المؤمنين عليه السلام والنيل منه والحط من شأنه وتحميله مسؤولية قتل عثمان، الذي كان ذريعة للخروج عليه وتحريض أهل الشام ووضعهم في مقدمة المنادين بالثأر.

وقد ساعد معاوية في حملته تأثيره في أهل الشام، وكره قريش لآل محمد ﷺ، وقد أوضح أمير المؤمنين عليه السلام السبب الرئيسي لذلك الكره القرشي (والله ما تنقم منا قريش إلا أنَّ الله اختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيِّزنا..)[1].

رمتني بدائها وانسلت

وبلغ من اتساع هذه الحملة أنها وصلت إلى حد اتهام الإمام عليه السلام بممارسات هي جديرة بأصحاب هذه الحملة الظالمة أنفسهم، وقد رد أمير المؤمنين عليه السلام على عمرو بن العاص أحد هذه الاتهامات الظالمة السخيفة، التي لا يمكن أن يتقبلها أحد، إلا أهل الشام (عجباً لابن النابغة! يزعم لأهل الشام أنَّ فيَّ دُعابة، وأَني امرُؤٌ تلعابة: أعافس وأُمارس! لقد قال باطلًا، ونطق آثماً. أما ـ وشر القول الكذب ـ أنه ليقول فيكذب.. أما والله إِني ليمنعني من اللعب ذكر الموت، وإِنَّهُ ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة..)[2].

---

(١) نهج البلاغة - تحقيق د. صبحي الصالح ص ٧٧.
(٢) المصدر السابق ص ١١٥.

ورووا عن عمر أنه قال فيه (أما والله لولا دعابة فيه ما شككت في ولايته وإن نزلت على رغم أنف قريش)[1].

وحاولوا أن يبيّنوا أنه لا خبرة له بالحرب، وأنه يفتقر إلى الدهاء وبعد النظر... الخ... وقد حاول الإمام في محاولته لصد الحرب الظالمة عليه، أن يبعد الأمة عن الانجراف وراء الأضاليل الأموية، ولم يكن دفاعه عن نفسه إلا دفاعاً عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ نفسه.. لأن أولئك الذين عجزوا عن الطعن برسول الله ﷺ بعد أن لم تجد تلك الطعون، وأظهر الله رسالته، رأوا أنّ وسيلتهم المناسبة الآن هي توجيه الطعون إلى آله، وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد لجأوا إلى أسلوب أخير مباشر وهو سبّه من على منابرهم وجعل ذلك سنة، رغم وعود معاوية للحسن عليه السلام أن لا يشتم أباه «ثم لم يف بما وعد به»[2].

كان الاعلام الأموي ينصب على التأكيد على أحقية معاوية بالخلافة مع وجود الإمام عليه السلام نفسه على الساحة وتصديه لقيادة الأمة، فإن أهل الشام عاهدوه على الأخذ بدم عثمان ولم يبايعوه بالخلافة (وإنما بايعوه على نصرة عثمان والطلب بدمه، فلما كان من أمر الحكمين ما كان بايعوه بالخلافة)[3].

فرعون متطور. لم يعلن نفسه رباً أعلى، مع أنه عامل الناس على هذا الأساس

وحينما توفي الإمام وآل الأمر إلى معاوية بعد صلح الحسن عليه السلام، فإن الجو المحيط بالعرش الأموي لم يكن يسمح بالتفكير أن هناك من يمكن أن ينافس معاوية أو ينازعه بأي شكل من الأشكال. أصبح الآن السيد المطلق الذي لا يضاهى ولا يجارى ولا يرقى إليه، وبدأت في تلك الفترة مرحلة الانتقال إلى الفرعونية والسيادة غير المقيدة أو المسؤولة.

ومع أنه لم يعلن، كما أعلن سلفه، فرعون موسى، أنه هو الرب الأعلى، ولم يطالب الناس أن تتوجه إلى شخصه بالعبادة، إلا أنه أرسى قاعدة الحكم المطلق المستبد الذي لم يلجأ إلى الإسلام إلا لتبرير ما يقوم به من تعزيز مركزه، وايقاع

(١) العقد الفريد ٥-٣٢.
(٢) الكامل في التاريخ ٣-٢٧٢.
(٣) العقد الفريد ٥-٨٠.

مناوئيه ومعارضيه والعمل وفق ما يراه هو مناسباً وتطويع الإسلام ليتلاءم مع أعماله ورغباته.. فتلك النظرة الفرعونية (التقليدية) الأولى التي تدعو بشكل مباشر لعبادة فرعون وفي مجتمعات لم تكن تمتلك الوعي الذي تمتلكه الآن (في عهد معاوية) ربما أدت إلى مضاعفات ضارة إذا ما تُبنيت بحذافيرها.. ولعل فرعون كان يبدو سخيفاً ومضحكاً بنظر معاوية، إذ ما حاجته إلى أن يعبده الناس كإلّه، مع أنه كان متسلطاً عليهم بالفعل.. ولو أن نظرة فرعون عدلت وبدلت، وأظهر (الخليفة) نفسه خادماً للشريعة وحارساً عليها. فإنه بذلك يجتنب الصدام المباشر والمواجهة الصريحة مع أحكام الشريعة، ويتيح له موقفه ذاك الظهور بمظهر آخر ومن التحايل والمداورة والمحاورة حتى إذا كانت نواياه واضحة أمام الأمة. وهكذا نرى الكثيرين من زعماء العالم الإسلامي اليوم، يبدون بنفس المظهر الوديع الليّن الذي بدا به معاوية فيدعون أنهم خدم للشعب مع أنهم جلادوه وظلمته وسارقوه.. ويعمدون إلى ما عمد إليه من أداء علني للشعائر والطقوس الدينية في المساجد ويعرضون أنفسهم بشكل أوسع على شاشات التلفزيون وكأنهم بذلك يقولون للأمة: حسبك ما ترين منا من خشوع وخضوع مظهري، أما ما عدا ذلك فلا حق لك بمناقشته ومحاسبتنا عليه.

إن معاوية يدرك أن ذلك الأسلوب التقليدي المباشر للظلم الذي كان يمارسه فرعون واتباعه أصبح أسلوباً كلاسيكياً قديماً لا تهضمه كل معدة، وأضحى أسلوباً مكشوفاً يمكن الوقوف بوجهه والتصدي له، وإن عليه (أي معاوية)، أن يستفيد من كل التجارب البشرية في السياسة والحكم (وكلها تجارب جاهلية لا تمت إلى الإسلام بصلة لا من قريب ولا من بعيد..)!.

فقد روي عن زياد بن أبيه قوله: «ما غلبني أمير المؤمنين معاوية قط إلا في أمر واحد. طلبت رجلًا من عمالي كسر عليَّ الخراج، فلجأ إليه، فكتبت إليه أن هذا فساد عملي وعملك، فكتب لي، أنه لا ينبغي لنا أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جميعاً فيمرح الناس في المعصية، ولا نشتد جميعاً فنحمل الناس على المالك. ولكن تكون أنت للشدة والفظاظة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة.)[1].

(١) العقد الفريد ٥-١٠٦.

المكر، ثم المكر «أطير إذا وقعتم، وأقع إذا طرتم»

فمعاوية هنا لا يستبعد أسلوب الشدة والفظاظة والغلظة عن حكمه، ولكنه لم يرد أن يعرف الناس أن ذلك هو أسلوبه الخاص، فأراد رمي هذه (المنقصة) على اتباعه الأذلاء مثل زياد وأشباهه، وأراد أن يظهر أمام الأمة بمظهر المتباهي (بحكمته) و (دهائه) وبعد نظره (وشعرته) التي لا تنقطع، وربما أراد من وراء ذلك أن يوحي بقوة موهومة يتمتع بها إضافة لقوة الثروة المحتكرة والسلاح. ولعل في التلويح بذلك تهديد غير مباشر للأمة. وأنها أضعف منه ورهن قبضته بما يملكه من مؤهلات استثنائية.

روي عنه أنه قال لجماعة من قريش: (ألا أخبركم عني وعنكم؟ قالوا: بلى. قال: . . . فأطير إذا وقعتم، وأقع إذا طرتم. ولو وافق طيراني طيرانكم سقطنا جميعاً)[١] وروي عنه قوله: (لو أن بيني وبين الناس شعرة، ما انقطعت أبداً. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدّوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها.)[٢] وهكذا رووا أساطير وحكايات عن شخصية معاوية القوية التي لا تضاهيها شخصية أخرى. . فكأن هذه الحملة للتأكيد على هذه القوة الأسطورية يراد منها قهر كل نزعة مناوئة لدولته وحكومته. . ونلمح العشرات من هذه القصص العجيبة بين دفات مختلف الكتب التي سجلت أخبار العرب وتاريخهم وحوادثهم وأدبهم.

روي عن هند بنت عتبة، أم معاوية، حين أتاها ناعيُّ يزيد بن أبي سفيان (فقال لها بعض المعزّين: أنا لنرجو أن يكون في معاوية خلف من يزيد، فقالت هند: «ومثل معاوية لا يكونُ خلفاً من أحد، فوالله أنْ لو جمعت العرب من أقطارها ثم رُمي به فيها، لخرج من أي أغراضها شاء)[٣].

(وفخر سُليم مولى زياد، بزياد عند معاوية، فقال معاوية: اسكت، فوالله ما أدرك صاحبَك شيئاً بسيفه، إلا وقد أدركتُ أكثر منه بلساني.)[٤] وروي عنه قوله: (أنا

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٦.

(٣) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ مكتبة الرياض ـ دار الفكر ج ١ ص ٥٦ تحقيق عبد السلام محمد هارون.

(٤) المصدر السابق ١-٢٥٩.

ابن هند، إن أطلقت عقال الحرب، أكلت ذروة السَّنام، وشربت عنفوان الكرع، وليس للآكل إلا الفلذة، ولا للشارب إلا الرنق)[1].

وقد رويت بهذا الخصوص كلمة طريفة لعمرو بن العاص عن معاوية. قال عمرو: (ما رأيت معاوية قط متكئاً على يساره، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى، كاسراً إحدى عينيه، يقول للذي يكلمه: يا هناه، ألا رحمت الذي يكلمه)[2].

كان معاوية يبدو معنياً بأن يبدو بمظهر الحليم الذي لا يهزه قول أو فعل سفيه أو جاهل، وقد أدرك الإمام الحسن عليه السلام غرضه عندما صرح معاوية قائلاً: (إذا لم يكن الهاشمي جواداً لم يشبه قومه، وإذا لم يكن المخزومي تياهاً لم يشبه قومه، وإذا لم يكن الأموي حليماً لم يشبه قومه، فبلغ قوله الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما فقال: ما أحسن ما نظر لنفسه! أراد أن تجود بنو هاشم بأموالها فتفتقر إلى ما في يديه، وتزهى بنو مخزوم على الناس فتبُغض وتُشنأ، وتحلُم بنو أمية فتحبّ)[3].

وقد أدرك شريك النخعي القاضي سر هذا الحلم المفتعل عند معاوية، فعندما قيل له: (كان معاوية حليماً. قال: لو كان حليماً ما سَفه الحق، ولا قاتل عليّاً، ولو كان حليماً ما حمل أبناء العبيد على حرمه، ولما أنكح إلا الأكفاء)[4].

تربة الشام، أخصبت بفكر معاوية وتصوراته[5]، فأصبحت مهيأة لقيام دولته

وقد رأينا كيف أن المدة الطويلة التي قضاها معاوية في الشام والياً و (خليفة)، قد عملت على تعزيز مركزه في هذا البلد البعيد نسبياً عن مركز الخلافة الإسلامية الأول وعن مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وعاصمته، وهو ما كان يشكل تربة خصبة لأفكاره

---

(١) نفس المصدر ٢-٩٢.

(٢) نفس المصدر ٢-٢٠٢ ٢٠٣.

(٣) نفس المصدر ٤-٦١.

(٤) نفس المصدر ٣ -٢٥٨.

(٥) وكان معاوية يقول: إني لا أحمل السيف على من لا سيف معه. وإن لم تكن إلا كلمة يشتفي بها مشتف جعلتها تحت قدمي ودبر أذني..) الكامل للمبرد ـ دار الفكر ١-٥٠ وقيل له (ما النبل؟ قال: الحلم عند الغضب والعفو عند القدرة) المصدر السابق ١-٤٨ ويروى أنه (قيل لمعاوية: ما المروءة؟ فقال: احتمال الجريرة واصلاح أمر العشيرة..) نفس المصدر ١-٣٨.

وتصوراته وقيمه التي كانت بعيدة كل البعد عن الإسلام وقيمه ومبادئه، ثم أراد لنفوذه أن يمتد بعد ذلك إلى بقية أجزاء العالم الإسلامي.

كيف عرض أهل الشام! الطائفة المنصورة! الحكام على الناس! الذابين عن بيضته التاركين لمحارمه!.

وقد حاول معاوية إظهار أهل الشام - في جملة من أحاديثه وخطبه ورسائله - على أنهم الصفوة المختارة من المسلمين، وأنهم مبعث فخر رسول الله ﷺ واعتزازه، وأنهم من كان ﷺ يعتمد عليهم لتعزيز الدين ونشره.. وحاول نشر الأحاديث الموضوعة والملفقة بشأنه بينهم مدركاً أن هذه (الأحاديث) المكذوبة تقابل بالازدراء والسخرية من بقية أبناء الأمة في بقية الأمصار.

كان معاوية يريد مجتمعاً منحازاً إليه بشكل تام، ولم يكن يجد مثل مجتمع الشام ليجعله يقوم بمهمة حمايته وحماية الأفكار المضللة التي كان يخرج بها على الأمة المغلوبة المقهورة.. وكان يريد تشكيل نخبة أو صفوة خاصة به، وإن تكن هذه النخبة تتسع عددياً لتشمل أحد الشعوب الإسلامية برمته، مستغلًا قلة وعي هذا الشعب وقلة معرفته بالإسلام لتمرير مخططاته عليه بل وجعله يتبناها وكأنها من بنات أفكاره. وقد تعامل معه في ظل خلافة عمر وعثمان (بتسامح) محاولًا استمالته مهما كان الثمن.. حتى أنه روى لهم (عن طريق محدثيه ووعاظه) على لسان رسول الله ﷺ أنه قال فيهم «وإن أهل الشام هم الطائفة المنصورة على من خالفها»... وهذا مما كان يحتج به معاوية لأهل الشام في قتالهم أهل العراق.)[1].

وكان بعرضه صورة مشرقة له يزينها بأحاديث ملفقة بشأنه عن رسول الله ﷺ وصور (مشوهة) لأعدائه وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام، وأخرى بشأن أهل الشام أنفسهم، تجعله يذهب معهم إلى حد التمادي بالتصريح العلني أمامهم بأنه ملك وليس خليفة، وكان يروي لهم قائلًا: (أنا أول الملوك وآخر خليفة)[2].

وقد جعل محدثيه يلفقون حديثاً، يجعلون منه سنة فقالوا (والسنة أن يقال لمعاوية ملك ولا يقال له خليفة لحديث «سفينة الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٩.
(٢) المصدر السابق ٨ ص ١٣٧.

ملكاً عضوضاً»)(١) . . فكأن الأمر هنا أمر واقع معاش أخبر به رسول الله ﷺ ولا يمكن تغييره. إذ ما حاجة أهل الشام إلى خليفة مقيد وبينهم هذا الملك المطلق الذي أثبت (كفاءته) و (جدارته) وانحيازه المطلق إليهم، وتبنّيهم كأعزة أخلّاء. . ولم يتحرجوا من وضع قصص ملفقة تصف لهم حكم معاوية بعد استبداده بالحكم كتب إلى علي عليه السلام معظماً من شأنهم رسالة مضللة توحي للأمة ولأهل الشام خاصة، وكأنه (أي معاوية) لا يعمل إلا بإرادتهم ومشيئهم، وكأنه ليس الموجّه والمسيطر الحقيقي عليهم (وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان. . . ، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام.)(٢).

وعندما أراد أهل المدينة لمبايعة يزيد فإنه كتب إلى مروان بن الحكم عامله عليها (أن أدع أهل المدينة إلى بيعة يزيد، فإن أهل الشام والعراق قد بايعوا)(٣) فكأن بيعة أهل الشام ليزيد إشارة إذن لبقية المسلمين لكي يبايعوه بدورهم. أما إشارته إلى أهل العراق، فباعتبارهم أصعب فئة يمكن أن تستمال، ومع ذلك فقد بايعت وقضي الأمر ولم يبق على الجميع إلا أن يحذوا حذوهم.

وكانت تصريحاته بشأن أهل الشام ملفتة للنظر حقاً (إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذابين عن بيضته التاركين لمحارمه، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله والمحلين ما حرم الله والمحرِّمين ما أحل الله.)(٤).

وقوله فيهم (وقد كنت في أصلح جند وأطوعه)(٥) يؤكد بخاصة في مهمته لحرف هذه الشريحة الكبيرة من المسلمين عن دينها وتضليلها وتربيتها على قيم الدين الأموي الهجين.

---

(١) نفس المصدر ص ١٣٨.

(٢) العقد الفريد ٥-٧٦ والكامل للمبرد ١-٢٢٢.

(٣) المصدر السابق ١١٢.

(٤) مروج الذهب ص ٥٠.

(٥) الكامل في التاريخ ٣٥٥ وفي البيان والتبيين ٢-١١٥ (وكنت في أطوع جند وأقلّه خلافاً..).

وحتى عندما كلف عمرو بن العاص بمهمة التحكيم، أراد ايهامه، بل ايهام أهل الشام أنفسهم أنه إنما كان يفعل ذلك ويكلفه بعد أن عرف رأي أهل الشام فيه ورغبتهم في أن يمثل معاوية (وأنا وأهل الشام راضون بك.)[1].

وكتب إلى أمير المؤمنين في ختام رسالته التي ذكرناها في الهامش[2] أبيات كعب بن جعيل التي يعلن فيها انحياز أهل الشام الأعمى لمعاوية، وجعله يبدو وكأنه رد فعل على (انحياز) أهل العراق لأمير المؤمنين، ولعله أراد المسألة أن تبدو هنا كمجرد صراع بين أهل العراق وأهل الشام لا غير.

أرى الشام تكره ملك العراق ... وأهل العراق لهم كارهينا
وكلا لصاحبه مبغضاً ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهمُ ... ودنّاهم مثل ما يُقرضونا
فقالوا: عليٌ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا له ... فقلنا إلا لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد ... وضرب وطعن يقر العيونا[3]

ردود على المغالطات الأموية

وقد رد الإمام على مغالطات معاوية وأكاذيبه وإيحاءاته المضللة قائلًا: (وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير وأهل الشام وأهل البصرة فلعمري ما الأمر فيما هناك إلا سواء لأنها بيعة شاملة لا يستثنى فيها الخيار ولا يستأنف فيها النظر)[4] كما رد شاعر عراقي[5] مكذِباً زعم معاوية وشاعره بأن الأمر أمر صراع بين أهل العراق وأهل الشام.. وإنما جعل معاوية أهل الشام بمواجهة الأمة كلها بما فيهم ثقلها الكبير أهل العراق وأهل الحجاز ـ أي مركز العاصمة الإسلامية ـ المدينة ـ وكعبة المسلمين مكة.

دعنْ يا معاويَ ما لن يكونا ... فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم عليٌّ بأهل العراق ... وأهلِ الحجاز فما تصنعونا؟

(١) البيان والتبيين ١-١٧٢.
(٢) راجع هامش ٤ في الصفحة السابقة.
(٣) الكامل للمبرد -١- ٢٢٢-٢٢٣.
(٤) المصدر السابق ١-٢٢٥.
(٥) هو النجاشي أحد بني الحرث ـ انظر ص ٢٢٥ من المصدر السابق.

وكان هذا الإيحاء المضلل من قبل معاوية بشأن أهل الشام، وأنهم الفئة المنصورة والمسددة، مع ما كان يدفعه إليهم من أموال يستميلهم بها، طريقة ذكية جديرة أن تفعل فعلها فيهم وفي جماهير واسعة من أبناء المجتمع الإسلامي لو لم يتصد أمير المؤمنين عليه السلام لتلك الأضاليل والمزاعم ويفندها أمام الأمة ويكشفها ببيانه وحججه القوية الواضحة ويذكر الأمة دائماً ببطلانها وزيفها وضعف الأسس التي تقوم عليها. . فقد ذكر الإمام في جملة من رسائله وخطبه وأحاديثه جملة من الأقوال تطرق فيها إلى مزاعم معاوية وأكاذيبه بشأن أهل الشام.

(وليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة.)[1].

(. وأما قولك أن أهل الشام هم حكام أهل الحجاز، فهات رجلًا من أهل الشام يقبل في الشورى أو تحل له الخلافة.)[2].

(. ألا وإن معاوية قاد لمةً من الغواة وعَمَّس عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة.)[3].

(ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة: عمت خطتها، وحضت بليتها وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها. وأيمُ الله لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي. . لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم أو غير ضائر بهم. .)[4].

([أهل الشام] جفاة طغام، وعبيد أقزام، جُمعوا من كل أوب وتلقطوا من كل شوب، ممن ينبغي أن يفقَّه ويؤدب ويعلّمَ ويدبَ ويولّى عليه، ويؤخذ على يديه، ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا من الذين تبؤوا الدار والإيمان)[5].

(ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمر الأمة؟ بغير قدم سابق، ولا شرف باسق.)[6].

---

(١) مروج الذهب ص ١٧.
(٢) العقد الفريد ٥-٧٧.
(٣) نهج البلاغة ٨٩.
(٤) نهج البلاغة ص ١٣٨.
(٥) نفس المصدر، ص ٣٥٧.
(٦) نفس المصدر، ص ٣٧٠.

(ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا المهاجر كالطليق ولا الصحيح كاللصيق ولا المحق كالمبطل ولا المؤمن كالمدغل، ولبئس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم)[١].

إلى معاوية (وأرديت جيلًا من الناس كثيراً، خدعتهم بغيّك، وألقيتهم في موج بحرك، تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجازوا عن وجهتهم ونكصوا على أعقابهم، وتولوا على أدبارهم، وعولوا على حسابهم.)[٢].

(. فسبحان الله! ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة والحيرة المتّبعة مع تضييع الحقائق واطراح الوثائق التي هي لله طلبة، وعلى عباده حجة.)[٣].

(. فإنما هو [معاوية] الشيطان، يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته، ويستلب غرته)[٤].

(أهل الشام العمي القلوب، الصم الأسماع، الكمة الأبعاد، الذين يلبسون الحق بالباطل، ويطيعون المخلوق في معصية الخالق ويحتلبون الدنيا ردّها بالدين، وينشرون عاجلها بآجل الأبرار المتقين) ص ٤٠٧.

(وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه. لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلًا منهم) ص ١٤٢ وفي هذا إشارة واضحة إلى شدة طاعة أهل الشام لمعاوية.

إلى معاوية (فعدوت على الدنيا بتأويل القرآن، فطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني وعصيته أنت وأهل الشام بي، وألّبَ عالمكم جاهلكم، وقائمكم قاعدكم)[٥].

(وإني من ضلالهم الذي هم فيه والهدى الذي أنا عليه لعلى بصيرة من نفسي ويقين من ربي)[٦].

إلى معاوية (فقد سلكت مدارج أسلافك بادعائك الأباطيل واقتحامك غرور

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٧٤.
(٢) نهج البلاغة ص ٤٠٦.
(٣) نفس المصدر، ص ٤١٠.
(٤) نفس المصدر، ص ٤١٦.
(٥) و(٦) نهج البلاغة ص ٢٤٦، ٤٦٧، ٤٥٢، ٤٥٦.

المين والأكاذيب وبانتحالك ما قد علا عنك، وابتزازك لما قد اختزن دونك، فراراً من الحق وجحوداً لما هو ألزم لك من لحمك ودمك مما قد وعاه سمعك وملىءَ به صدرك، فماذا بعد الحق إلا الضلال المبين، وبعد البيان إلا اللبس؟ فاحذرالشبهة واشتمالها على لبستها، فإن الفتنة طالت أغدقت جلابيها، وأعشت الأبصار ظلمتُها)[1].

(معاوية الذي لم يجعل الله عز وجل له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، حزب من هذه الأحزاب، لم يزل لله عز وجل ولرسوله ﷺ وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين، فلا غرو إلا خلافكم معه، وانقيادكم له، وتدعون آل نبيكم عليهم السلام الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً)[2] (أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة! ويجيبونه في السنة المرتين والثلاث إلى أي وجه شاء)[3].

أهل الشام، أول ضحية لمعاوية

لقد كان من الطبيعي أن يقع أهل الشام ضحية اغواء معاوية وايحاءاته وتأثيراته القوية تحت ظروف استئثار طبقة من قبله بكل مقدرات الشام مع وجود الخلافة التي عينته في منصبه والياً على الشام.. ويمكن القول أنه كان يتصرف خارج دائرة نفوذ الخليفة.. بل ذهب إلى أبعد من ذلك في أيام عثمان إلى درجة أنه اعتبر أن الولاية حق مشروع له ولعائلته فقط.. وقد احتج على أمير المؤمنين وعلى بعض من رفضوه، بأنه إنما كان معيناً من قبل غيره. وبدت الفترة الزمنية الطويلة التي أمضاها والياً على الشام وكأنها ايذان له للاستمرار في الولاية طيلة حياته، ولو أنه كان يضمن رضا الإمام عليه السلام ببقائه واستمراره لكان من أول المؤيدين له، إلا أنه كان يعرف موقف الإمام عليه السلام ويقدره حق التقدير، لذلك فإنه تصرف منذ البداية وفق تقديراته ومعرفته الذكية بالإمام عندما أدرك أنه لن يحصل على أي شيء في ظل القيادة الجديدة، بل أنه سيجرد من كل (المكتسبات) التي حصل عليها في السابق ومن كل ما سرقه واستأثر به من ثروات ومقدرات الأمة المغلوبة.

---

(١) نهج البلاغة ص ٢٤٦، ٤٦٧، ٤٥٢، ٤٥٦.

(٢) تاريخ الطبري، ٣، ٨٠، ١٣٤.

(٣) نهج البلاغة ص ٢٤٦، ٤٦٧، ٤٥٢، ٤٥٦.

وكان على أمير المؤمنين أن يتصدى بكل قوة لكشف القوة (المعارضة) التي ترفض قيادته والمتمثلة بمعاوية وعمرو بن العاص بعد سقوط حلف الجمل الثلاثي وانهزام فلوله أمام جيش الإمام.

كسب ودّهم لكي ينفذوا مخططاته الشيطانية

إن معاوية لم يكن بالمرء الهيّن الذي يتنازل بسهولة عن ملك طويل عريض بمجرد تذكيره بمبادىء الإسلام وقيمه، وقد عمد بوقت واحد إلى جملة من الأساليب المخادعة المضللة كان في مقدمتها تبني قضية مقتل عثمان والمطالبة بدمه وتحميل الإمام مسؤولية السكوت عنه ثم التحريض عليه ثم الايحاء لأهل الشام بأنهم الفئة المنصورة التي ستأخذ على عاتقها الانتقام (لإمام الأمة المظلوم) على حد تعبيره، واستخلاصهم لنفسه واغداق الأموال عليهم، واستمالة بعض رؤساء القبائل (والأشراف) ممن كانوا محسوبين في الظاهر من أتباع الإمام عليه السلام ومحاولة الإيقاع بين البقية منهم ومحاولته الماكرة لرفع المصاحف قبيل مهزلة التحكيم التي اجبر عليها الإمام عليه السلام من قبل الفئات المنافقة والجاهلة والمشتراة بأموال معاوية والتي كانت ضمن جيش الإمام. . . وحملاته الإرهابية على أطراف العراق والحجاز بقيادة بسر بن أرطأة وغيره لقتل كل من عرف عنه موالاة الإمام وأهل بيته. . . وقد تشعبت أساليب معاوية وطرقه، وعمد إلى رصد الأموال الطائلة التي كانت بين يديه لتنفيذ مخططاته.

ومع أن الإمام عليه السلام لم يعمد إلى ما عمد إليه معاوية من أساليب لا تمت إلى الإسلام بصلة، إلا أنه بذل جهوداً مضنية لكشف أقنعة الزيف التي تقنع بها وحاول جاهداً تخليص من جرهم إلى ضلاله وغواياته مدركاً أنه يتمتع بإمكانات شيطانية هائلة جعلته عليه السلام يصرح دون تحفظ أن معاوية هو الشيطان الذي تسلح بكل قوى الشر التي تجيش بين جوانحه. . . وقد رأينا كيف أن البعض أراد الإمام أن يلجأ إلى المساومة (وهو أحد أساليب معاوية نفسه)، إلا أنه رفض ذلك مطلقاً، عازماً على رفع الإسلام وقيمه سلاحاً وحيداً أمام قوة الشر التي هبت مع هذا العدوالمقنع، فكان في مقدمة مهام الإمام كشف شخصية معاوية ودحض مفترياته بشأن أهل الشام الذين التحقوا بركب الإسلام مؤخراً، ولم تكن لهم به معرفة الأنصار والمهاجرين الأوائل من أهل الجزيرة.

كانت مهمة كشف معاوية وتعريته وبيان نواياه وأساليبه تتزامن مع المهام الكبيرة التي قام بها الإمام عليه السلام لانتشال الأمة من الضياع وردها إلى حضيرة الإسلام

وتحصينها ضد الاغراءات التي يلوح بها عدوّها. لقد كان عليه السلام يدرك أن هذا العدو بلاء مبرم، وأنه ليس بالمرء الهين البسيط أو الواضح الذي يمكن مناقشته وردعه وإنما كان إنساناً ملتوياً، بل شيطاناً تلبّس بصورة إنسان، وكان يدرك أن المعركة معه ستكون شاقة بعد الملابسات والظروف التي أدت إلى خروج الكثيرين عليه بدافع حرصهم على مصالحهم وفهمهم الخاطىء للإسلام.

ولقد وجدناه عليه السلام يتألم أشد الألم من هذا العدو الماكر الذي يعبث بالأمة ومقدراتها خصوصاً وأنه يجد أن هناك من لا يتحرج من المقارنة بينه هو عليه السلام وبين هذا العدوالخبيث كما بيّنا من قبل.

كل شيء مشروع أمام طموحات فرعون.. الغاية تبرر الواسطة

إن من الطبيعي أن يسعى حاكم مثل معاوية، لتعزيز سلطته ونفوذه، بمختلف الوسائل المتاحة، خصوصاً وأنه يمتلك منها القدر الذي يحقق طموحاته ورغباته.. ومن أول هذه الوسائل وفي مقدمتها، القوة والعنف. وهو أمر قد يستغربه العديدون رغم وضوحه ووجود الأدلة الكثيرة عليه، إذ إن المعلوم عن هذا الرجل أنه كان حليماً وداهية وأنه من أهل المكر والحيلة ما وجد إليهما سبيلا... وقد حفلت كتب التاريخ والسيرة والأدب بأمثلة عديدة وقصص شائقة عن (حلمه) و (دهائه)، غير أننا لو نظرنا إلى حوادث التاريخ نظرة متفحصة لأدركنا أن تفكيره ينصب أول ما ينصب على التصدي بالقوة لكل ما يقف أمام طموحاته ورغباته، وأنه إنما استغل (دهاءه) الشهير لتحقيق الغلبة على (العدو)، بل أن أول ما أخذ بنظر الاعتبار هو إعداد قوة يتصدى بها لهذا العدو الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام نفسه واتباعه، هذا الإمام الذي ابتلي بمعاوية وابتلي معاوية به كما ذكر عليه السلام في إحدى رسائله إليه: (وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي: فجعل أحدنا حجة على الآخر، فعدوت على الدنيا بتأويل القرآن، فطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني، وعصيته أنت وأهل الشام بي، وألَّبَ عالمكم جاهلكم، وقائمكم قاعدكم...)[1].

نقد الإمام لأهل الشام.. استهدف تخليصهم من الورطة الأموية

ولم يكن نقد الإمام لأهل الشام لأنهم أهل الشام، بل أراد أن يوضح بذلك أنهم

---

(١) نهج البلاغة ص ٤٤٦.

كانوا نتاجاً أموياً متأثراً بمعاوية ولمساته وصبغته الشيطانية، وقد أراد الإمام كشف واقعهم أمام الأمة وأمامهم هم، كما أنه عمل بنفس الوقت على تعرية معاوية وبعض أتباعه (الكبار) أمثال عمرو بن العاص ومروان، لكي يظهروا بصورتهم الحقيقية أمام الأمة كلها ومنهم أهل الشام المخدوعين به والمنقادين وراءه انقياداً أعمى.

وقد اتجه الإمام اتجاهاً إيجابياً عندما أوضح خطة معاوية لخداع أهل الشام ولم يكن ينطلق من عداء خاص لهم وإنما كان يتجه لتخليصهم من الورطة التي أوقعهم فيها معاوية.. إنه كان يذوب أسفاً على حالهم المتردية وهم يخوضون خلف معاوية في الباطل، وكان يأمل أن يخلصهم من تلك الحال ويذهب إلى حد المطالبة بالدعاء لهم عسى أن يفيقوا من ضلالتهم ويتراجعوا عن خطئهم، لذلك نراه عليه السلام يمنع قوماً من أصحابه سمعهم يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين، لأنه يدرك أن اللجوء إلى أسلوب السب، أسلوب سلبي يعمل على توسيع الشقّة بين المسلمين، وأنه سيقابل بأسلوب مماثل من الطرف الآخر، مما سيكون من شأن ذلك أن يجعل من (المعركة) معركة شخصية وليست معركة من أجل الإسلام (إني أكره لكم أن تكونوا سبَّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللهم أَحقن دماءنا ودماءهم، وأصفح ذاتَ بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به)[1].

إن وصف أعمالهم سيكون في مقدمة الأعمال الايجابية التي تجعلهم يدركون كما تدرك الناس كلها الأخطاء التي وقعوا فيها، وسيكون من شأن ذلك أن يقوم بعضهم على الأقل في البداية على تصحيح تلك الأخطاء وتجاوزها. وبذلك فإنهم سيتخلصون من الورطة التي وقعوا فيها بدلاً من الذهاب في الخطأ إلى النهاية، وهي مهمة أخذ الإمام عليه السلام على عاتقه القيام بها، فأهل الشام جزء من الأمة وصلاحهم نصر للأمة كلها، واندفاعهم في طريق الشر الذي رسمه معاوية لهم خسارة للجميع بما فيهم أهل الشام أنفسهم كما أن من شأن ذلك أن يظهر أهل الشام على حقيقتهم أمام الأمة. وقد فعلت حملة الإمام الاعلامية عملها في نفوس المسلمين وأدركوا إلى أي حد كان أهل الشام منساقين وراء أباطيل معاوية وضلاله وكان نتيجة ذلك أن (أمير

(١) نهج البلاغة ص ٣٢٣.

المؤمنين علي قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت لما ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشام. فبينما هو يتجهز للمسير قتل عليه السلام)[1].

الارهاب.. الأسلوب الأمثل لتوطيد دعائم الملك الأموي

ولم تكن القوة والارهاب الحل الأخير الذي يلجأ إليه معاوية عندما تعييه الحيل وتسد أمامه الطرق الأخرى، بل انهما يقفان في مقدمة الحلول لحسم مشاكله وخصوماته، ولم يخفف معاوية من غلوائه وأساليبه الإرهابية العميقة إلا عندما استتبت له الأمور وسيطر على (المملكة الإسلامية) برمتها ولم يعد يشعر بوجود خطر حقيقي يقف بمواجهته، وعند ذلك فقط حاول أن ينشر أسطورته بخصوص دهائه وحلمه. . ، مع أن سلاح الدهاء والحيلة هذا قد استخدمه منذ البداية جنباً إلى جنب مع سلاح العدوان والارهاب، ومع أن المؤرخين يوردون حقائق كثيرة ووقائع متعددة لغارات شنها معاوية وأعوانه، فإنهم يتناسون بعضها ربما في غمرة الاعجاب (بالدهاء المتفوق والاستثنائي الذي عرف به هذا الطاغية. فهذا قائده (بسر بن أرطأة العامري. . . قتل بالمدينة، وبين المسجدين خلقاً كثيراً من خزاعة وغيرهم، وكذلك بالجرف قتل بها خلقاً كثيراً من رجال همدان وقتل بصنعاء خلقاً كثيراً من الأبناء ولم يبلغه عن أحد أنه يمالىء علياً أو يهواه إلا قتله)[2]

مسرحية الاستخلاف

ولا تفوتنا المسرحية التي أعدها معاوية عندما نصب مجلسه (لاستشارة) الناس لأخذ البيعة ليزيد، وتلويحه بالقوة لمن يرفض ذلك، عندما (قام رجل من الأزد فأشار إلى معاوية وقال: أنت أمير المؤمنين، فإذا متَّ فأمير المؤمنين يزيد، فمن أبى هذا، فهذا (وأخذ بقائم سيفه فسلّه) فقال له معاوية: أقعد فأنت من أخطب الناس)[3].

وينبغي أن لا ننسى أن معاوية أول من ابتكر طريقة القتل صبراً في صفوف المسلمين وبدأ بأحد رجال الإسلام المرموقين وهو حجر بن عدي الكندي، ففي (سنة ثلاث وخمسين قتل معاوية حجر بن عدي الكندي، وهو أول من قتل صبراً في

---

(١) ابن الأثير ٣-٢٧١.

(٢) مروج الذهب ص ٢٧ وراجع الطبري ٣-١٥٣-١٧٠ وابن الأثير ٣-٢٥٠-٢٥٢.

(٣) مروج الذهب ص ٣٤ وابن الأثير ٣-٣٥٢.

الإسلام)[1] وهو أمر نقم عليه بسببه الكثيرون من رجالات المسلمين فقد (روي عن الحسن البصري أنه كان ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله علياً وقتله حجر بن عدي واستلحاقه زياد بن أبيه ومبايعته ليزيد ابنه)[2].

ولا ننسى أن نشير إلى قيام معاوية بدس السم لأعدائه بعد أن أعيت حيله معهم وفي مقدمة هؤلاء الإمام الحسن عليه السلام ومالك الأشتر، أشهر أعوان أمير المؤمنين عليه السلام وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد[3].

وقد امتدت حملات معاوية الارهابية إلى كل أجزاء الدولة الإسلامية ووصل بعض أتباعه إلى الكوفة نفسها[4].

نماذج من أعماله الارهابية

فقد وجه معاوية (النعمان بن بشير في الفي رجل إلى عين التمر. فأغاروا عليها) (ووجه معاوية في هذه السنة [سنة تسع وثلاثين] سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل وأمره أن يأتي هيت فيقطعها، وأن يغير عليها، ثم يمضي حتى يأتي الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها. وفيها وجه معاوية أيضاً عبد الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تيماء وأمره أن يصدِّق من مر به من أهل البوادي، وأن يقتل من امتنع من عطائه صدقة ماله، ثم يأتي مكة والمدينة والحجاز يفعل ذلك.

ووجه معاوية الضحاك بن قيس وأمره أن يمر بأسفل واقصة، وأن يغير على كل من مر به ممن هو في طاعة علي من الأعراب، ووجه معه ثلاثة آلاف رجل، فسار وأخذ أموال الناس، وقتل من لقي من الاعراب، ومر بالثعلبية فأغار على مسالح علي وأخذ أمتعتهم. وفيها سار معاوية بنفسه إلى دجلة حتى شارفها)[5].

وفي سنة أربعين أرسل معاوية (بسر بن أبي أرطأة في ثلاثة آلاف من المقاتلة إلى الحجاز وأخذ بيعة أهلها لمعاوية.. وهدم بسر دوراً بالمدينة ثم مضى حتى أتى مكة.

---

(١) نفس المصدر ص ٣ والطبري ٣-٢١٨ وما بعدها وابن الأثير ٣-٣٢٦ وما بعدها.

(٢) البداية والنهاية ص ٨-١٣٣.

(٣) راجع الطبري ٣-٦٥- ١٢٧-٢٠٢ وابن الأثير ٣-٢٢٧-٣٠٩ والمسعودي ٣/ ٥.

(٤) المصدر السابق ١٤٩-١٥٠ وابن الأثير ٣-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٧-٢٤٧-٢٤٨-.

(٥) نفس المصدر.

ثم مضى بسر إلى اليمن وقتل عاملها وقتل ابنه، ولقي بسر ثقل عبيد الله بن عباس وفيه ابنان له صغيران فذبحهما. وقتل بسر في مسيره ذلك جماعة كثيرة من شيعة علي باليمن)[١].

وبسر هذا نفسه ولاه معاوية البصرة بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام وصلح الحسن عليه السلام [٢] فاستعمل أشد الأساليب إرهاباً.

وفي سنة اثنتين وأربعين (سار بسر بن أبي أرطأة العامري إلى المدينة ومكة واليمن وقتل من قتله في مسيره ذلك من المسلمين. أقام بسر بن أبي أرطأة بالمدينة شهراً يستعرض الناس، ليس أحد ممن يقال هذا أعان على عثمان إلا قتله. وجد قوماً من بني كعب وغلمانهم على بئر لهم فألقاهم في البئر)[٣].

ولن تنسى التهديدات التي أطلقها معاوية وعماله لكبح جماح المعارضين. والكل يعلم أنه ما كان يتورع عن تنفيذ تهديداته بنفس الأساليب التي نفذها بسر بن أرطأة وزياد بن أبيه وسمرة بن جندب ومسلم بن عقبة المري فيما بعد في المدينة بعد هلاك معاوية وواقعة الطف المعروفة.

(وهل يحصى من قتل سَمرة بن جندب! استخلفه زياد على البصرة، وأتى الكوفة فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت. قتل سمرة في غداةٍ سبعة وأربعين رجلًا قد جمع القرآن)[٤].

حصانة لأعوان الدولة.. مصونون غير مسؤولين

وتدل حادثة بسيطة على مدى ما يستشعره الناس من خوف شديد من معاوية، عندما أقدم أحد ولاته على البصرة وهو عبدالله بن عمر بن غيلان على قطع يد شخص حصبه أثناء القاء خطبته. وقد أتت القبيلة التي ينتمي إليها هذا الشخص إلى الوالي فقالوا: (إن صاحبنا جنى ما جنى على نفسه، وقد بالغ الأمير في عقوبته، ونحن لا

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٣-١٦٩-١٧٠ وابن الأثير ٣-٢٥٠-٢٥١-٢٥٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) المصدر السابق ١٧٥.

(٤) نفس المصدر ٢٠٨.

نأمن أن يبلغ خبره أمير المؤمنين [معاوية] فيأتي من قبله عقوبة تخص أو تعم. فإن رأى الأمير أن يكتب لنا كتاباً يخرج به أحدنا إلى أمير المؤمنين يخبره أنه قطعه على شبهة وأمر لم يضح. فكتب لهم بعد ذلك إلى معاوية)[1] وقد جعلوا الكتاب ذريعة للشكوى على العامل وأنه قطع ذراع أخيهم على شبهة وأمر لم يضح فأجابهم معاوية (أما القود من عمالي فلا يصح)[2]. وفي هذا ما فيه سن تجاوز صريح على حدود الإسلام ودلالة واضحة على اطلاق يد العمال في أعمال الارهاب، الأمر الذي لم يكن يريد أن يظهر به أمام الأمة، وإنما أراد الظهور بمظهر الجواد الحليم الداهية. وقد استمعنا إلى جوابه على رسالة زياد التي احتج فيها على معاوية لأنه أمن رجلًا يطلبه زياد وقوله له بأن يكون هو من يظهر بمظهر الرجل الهين الرحيم ويظهر زياد بمظهر الغلظة والشدة ليتسنى لهما السيطرة على الناس ولئلا يفلت الزمام من أيديهما.

كشف الانحراف.. لا داعي للتلميحات

وينبغي أن لا تغيب عن أذهاننا تهديدات معاوية وخطبه الموضوعة بدقة والتي أراد من ورائها تخويف الأمة بأجمعها وإرهابها وحملها على السكوت تجاه كل تصرفاته وتصرفات عماله وأقطاب حكومته، وكان يعلم أن تهديداته ستنتشر في أرجاء مملكته بالسرعة التي يتاح فيها لراكب المطي أن يبلغ غايته.

ففي أول خطبة خطبها في المدينة بعد انفراده بالسلطة وفي العام الأول نفسه الذي أطلق عليه خطأ ـ وبفعل مقصود أيضاً ـ عام الجماعة، قال: (فإني ما والله وليت أمركم، حين توليته. وإذا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها، وإني لعالم بما في نفوسكم من ذلك. ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسة. والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه. وإياكم والفتنة فلا تهموا بها)[3].

وقال في خطبة أخرى: (يا أهل المدينة: إني لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق يعيبون الشيء وهم فيه، وكل امرىء منهم شيعة نفسه، فاقبلونا بما فينا)[4] ولا

---

(١) نفس المصدر ٢٤٥.
(٢) نفس المصدر.
(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ٨-١٣٢.
(٤) العقد لفريد ٥-٣٦٤-٣٦٥.

يخفى ما وراء هذه الإشارة إلى أهل العراق، وما لاقوه على يديه بسبب مواقفهم منه، والتهديد المبطن بأنه سيلجأ مع كل خارج عليه إلى ما لجأ إليه معهم.. ولا يخفى خوفه من النقد هنا ودعوته الناس لقبوله ـ على علّاته ـ كما هو.

وقال في خطبة أخرى (وإياكم والتي إذا أخفيت أوبقت، وإن ذكرت أوثقت)[1].

ولعل خطب عمال معاوية وهم من خواصه وأقاربه، وتهديداتهم لا تقل عن خطب وتهديدات معاوية، بل ربما فاقتها. فمعاوية على أي حال يتكلف الظهور بمظهر الحليم الرشيد، أما هؤلاء الولاة فهم لا يتكلفون ذلك، بل لعل معاوية يدفعهم إليه. فقد خطب عتبة ابن أبي سفيان لما ولاه أخوه معاوية امرة موسم الحج عام ٤١ هـ أي بعد انفراده بالسلطة، وتوجه إلى الأمة بهذا المقال العنيف: (فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فإنها تنقطع دوننا، ورب متمن حتفه في أمنيته. إقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم، وإياكم ولو، فقد أتعبت من كان قبلكم ولن تريح من بعدكم)[2] فهو هنا يحذر الناس حتى من مجرد الأمنيات بزوال حكم بني أمية.

كما هدد عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق أهل المدينة لما أصبح والياً عليها وذلك في خطبة له في مسجد رسول الله ﷺ وذلك لمجرد أن أهل المدينة بدأوا ينظرون إليه..! (ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إلي أبصاركم، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم؟ أغركم أنكم قتلتم عثمان فوافقتم ثائرنا منا رفيقاً؟ قد فني غضبه وبقي حلمه. اغتنموا أنفسكم فقد والله ملكناكم بالشباب المقتبل البعيد الأمل الطويل الأجل حين فرغ به الصغر ودخل في الكبر، حليم حديد، لين شديد، رقيق كثيف رفيق عنيف حين اشتد عظمه واعتدل جسمه ورمى الدهر ببصره واستقبله بأثره، فهو إن عض نهش، وإن سطا فرس، لا يقلقل له الحصى، ولا تقرع له العصا، ولا يمشي السُّمَّهى)[3].

وخطب مهدداً أهل مكة لما استعمله أبوه والياً عليها: (فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا حتى شرب الدم دماً، وأكل اللحم لحماًوقرع العظم عظماً وعاد الحرام حلالاً وأسكت كل ذي حس عن ضرب مهند عركاً عركاً وعسفاً عسفاً وذخراً ونها، حتى

(١) المصدر السابق ٤-٨٢.

(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرد -٣- ٣١١-٣١٢.

(٣) العقد الفريد-٤- ١٣٢-١٣٣.

طابوا عن حقنا نفسا. والله ما أعطوه عن هوادة ولا رضوا فيه بالقضاء. أصبحوا يقولون: حقنا غلبنا عليه. فجزيناه هذا بهذا وهذا في هذا. يا أهل مكة: أنفسكم أنفسكم وسفهاءكم سفهاءكم! فإن معي سوطاً نكالًا وسيفاً وبالًا، وكل منصوب على أهله)[1].

ولسنا بصدد إيراد كل الشواهد والخطب والكلمات التي صدرت عن معاوية وعماله وحاشيته، فالأمر يحتاج إلى كتاب مستقل. غير أن الذي نحب أن نؤكد عليه هو أن الناس تدرك أن الحكم الأموي ما كان يتورع عن تنفيذ تهديداته في خضم سعيه المحموم للتشبث بالملك الذي وصل إليه الحكام على أشلاء الناس ورقابهم.. وعليه فلا يظنّن أحد أن تلك التهديدات كانت مجرد كلام لا غير، وأن معاوية وأعوانه لا يهدفون من ورائها سوى تخفيف غلواء أعدائهم. بل أن العنف الأموي كان سمة مميزة لهم أدركها الناس وعرفوا إلى أي مدى كان بنو أمية شغوفين به.

مثل أعلى (واطىء)

إن المتتبع لسيرة معاوية وتاريخه يدرك، بلا شك، أن هذا الرجل كان يسعى بخطى حثيثة لوضع مثل أعلى أمام المسلمين، مغاير للمثل الأعلى الذي دعا إليه رسول الله ﷺ وجسّده بسلوكه وتصرفاته، وهو الإسلام وقيمه ومبادئه، وكان لا بد، لوضع هذا المثل الأعلى (الواطىء) المتمثل به وبعائلته التي حاول أن يمتاز بها عن بقية أبناء الأمة، موضع الصدارة لكي تتطلع إليه هذه الأمة باستمرار بدلًا من التطلع إلى المثل الأعلى الحقيقي.. وهذا ما احتاج إلى تمهيد يأخذ بأذكى الأساليب وأمكرها وأشدها تعقيداً وأكثرها قدرة على التسلل من جوانب الضعف المتاحة من المجتمع المسلم الذي كان قريب عهد بالجاهلية، وما كاد يرى الإسلام ويؤمن به ويحاول تحكيمه في حياته حتى شهد حملة مضادة لتشويشه وسلخه عن الحياة ومسخه وجعله صنماً لا ينبض بأية حياة.. وما كاد يبرز على الساحة كقوة قائدة وحيدة حتى برزت معه أشكال جديدة من الصراع قادها نفس أولئك الذين قادوها في بداية الدعوة الإسلامية. وقد حاول أمير المؤمنين عليه السلام أن ينبه الأمة إلى خطر ذلك، واتخذت حملته طابعاً دائمياً منظماً، إلا أن الذين فتنوا الأمة حاولوا أن يصوروه عليه السلام طرفاً في هذه الفتنة، بل وطرفاً رئيسياً فيها.

(١) المصدر السابق ٤-١٣٣-١٣٤.

وإذ أن الأحداث سارت بالشكل الذي انحرف بها عن مسارها الطبيعي منذ وفاة الرسول ﷺ، فإنها استمرت تسير بدرجة أوسع من ذلك الذي شهدته أول مرة، وكان تسارع الانحراف في عهد عثمان يبدو أنه في صالح معاوية وأنه تمهيد لنمط مثل نمط حكمه خرج خروجاً سافراً عن الإسلام. ولعل الملاحظ يجد أن معاوية قد أفاد فائدة كبرى من ذلك وسعى لتعزيز مركز مدرسته الانتهازية العبثية التي لا ترى أمامها أي مثل أعلى تتطلع إليه غير مثل المصالح والمنافع الخاصة والامتيازات الشخصية. ولئن قالها أبو سفيان في عهد عثمان «تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة» وقالها كثيرون غيره من (خلفاء) بني أمية صراحة، فإن مؤسس الدولة الأموية وعاهلها جسد تلك المقولة عملياً من خلال استئثاره بالسلطة استئثاراً تاماً واستيلائه عليها كحق أموي خالص.

وقد ركز اهتمامه منذ البداية خلال حكمه عاملًا على الشام و (خليفة) بعد ذلك، على أهل الشام واتخاذهم بطانة له كما اتخذ الشام مقراً للخلافة باعتبارها المكان الأثير المحبوب المستجيب، وقد أراد الشام أن تكون مركزاً لنشر فلسفته وأطروحاته الأموية النفعية، المتطلعة للإمساك بمراكز القوى والجاه والنفوذ والثروة في كل أرجاء العالم الإسلامي، لكي تستجيب له كلها كما استجابت له الشام. وتنحاز إلى صفه كما انحازت هذه.

وتكشف وصيته ليزيد عن مدى تأثيره بأهل الشام ـ باعتبارهم لم يسمعوا إلا صوته ولم يروا إلا بعينيه ـ كما تكشف عن مدى مخاوفه من تأثرهم بغيرهم إذا ما اختلطوا ببقية أبناء الأمة وهذا ما حذره منه بشدة في هذه الوصية. (وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم)[١].

فلسفة أم عبث «.. فما آخذ من مال الله فهو لي»

أما ما هي (فلسفته) أو مذهبه الذي نشره بين أهل الشام وأرادهم أن يتبنوه، وما هي نتائج نشره لهذا المذهب..؟ إن واقع أهل الشام يخبرنا عن ذلك. لقد أراد تحييدهم بين الإسلام وبين الكفر، بل وأن يميل بهم إلى الكفر على نحو متستر خفي،

---

(١) الطبري ٣-٢٦٠ (.. ثم أردد أهل الشام إلى بلدهم ولا يقيموا في غيره فيتأدبوا بغير أدبهم) العقد الفريد ٥-١٢٢.

ولم يرد لهم أن يتعلموا إلا على يد (المعلمين) الذين تخرجوا من مدرسته وأعدَّهم هو واختارهم من المحدثين والقصاصين والمفسرين والشعراء والمحرضين وناشري الإشاعات والأشراف وغيرهم! لقد قام باعداد حملة منظمة لاعداد وتخريج جيوش من هؤلاء مهمتهم (تأهيل) أهل الشام ليكونوا وعاء للفلسفة الأموية التي لم تأخذ من الإسلام إلا ما يحقق لها طموحاتها وأطماعهاويثبت حقها (الشرعي) المطلق في الخلافة والملك والذي اكتسبته بحكم الغلبة والأمر الواقع.

يذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٢٠٠ أن خلافة عبد الملك بن مروان كانت خلال خلافة ابن الزبير وبعهد من أبيه فقد (بويع بالخلافة بعهد من أبيه في خلافة ابن الزبير فلم تصح خلافته، وبقي متغلباً على مصر والشام ثم غلب على العراق... إلى أن قتل ابن الزبير سنة ٧٣ فصحت خلافته من يومئذٍ واستوثق له الأمر) ولو أنه قتل من قبل ابن الزبير لمات باغياً. غير أن قوته وغلبته وقتله ابن الزبير جعله (خليفة) شرعياً لا بد أن تدين له الأمة. إن سياسة الأمر الواقع هذه أكد عليها الأمويون وتأثر بها بعض الكتاب والمؤرخين و (الفقهاء) ولا تزال مؤثرة إلى يومنا هذا على البعض، ربما بوحي من الحكام والملوك الذين يحكمون آلافاً من البشر ويشكل حكمهم أمراً واقعاً.

وقد أعلن معاوية في إحدى المرات عن هذه الحقوق التي أتيحت له كخليفة وعنده صعصعة بن صوحان (وكان قد قدم عليه بكتاب علي وعنده وجوه الناس: الأرض لله وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي)[1] وقال لأهل الكوفة: (ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا وقد عرفت أنكم تفعلون ذلك ولكن إنما قاتلتكم لاتأمر عليكم فقد أعطاني الله ذلك فأنتم كارهون)[2].

أهل الشام.. أخذوا الإسلام عن الأمويين إسلام أموي

وكان لا بد لهذا الوعاء الشامي أن يظل مغسولًا وفارغاً حتى لا يختلط ما فيه بما سوف يضعه معاوية، وبعبارة: جاهلًا لا يعرف إلا ما يريده أسياده أن يعرف، وهكذا

(١) مروج الذهب ص ٥٣.
(٢) ابن كثير -٧-١٣٤.

تواترت لدينا أخبار هذا المجتمع الشامي الجاهل الذي أصبح مثار تندّر المجتمعات العربية الإسلامية الأخرى بعد أن جعله سيده مسلوب الإرادة ومشدوداً بشكل دائمي إلى العربة الأموية الجامحة.

إن انحرافات مجتمع الشام، وهي مقر (الخلافة) الأموية وعاصمة الإسلام ومركز الثقل و (الاشعاع)، أريد لها أن تنتشر لتشمل كل المجتمعات الإسلامية، وهذا ما وقع بالفعل. وإن لم يكن أهل الأمصار الأخرى مثل البصرة والكوفة ومكة والمدينة مثل الشام. إلا أن غلبة (الخليفة) وأعوانه من الولاة والقادة العسكريين ورؤساء القبائل نشرت حالة مروعة من اللامبالاة وعدم الاهتمام بين الناس، ولم يأخذوا أمور حياتهم، التي نظمها الدين وتحكم فيها طوال سنوات عديدة، مأخذ الجد، واستسلموا لمن اغتصب الخلافة وتناسوا ما أرادته لهم هذه الفئة الحاكمة أن ينسوه.

ولانظن أننا سنجد ناقداً أو مفكراً أو كاتباً واحداً يجرؤ أن يقول ان الشام قد استوعبت أمور الرسالة الإسلامية بمثل الوضوح الذي استوعبتها به المدينة أو مكة أو الكوفة، وكان مجتمع الشام الواقع على تخوم مجتمعين متغايرين يكاد يفقد أصالة أي منهما. وقد بلغ عدم اهتمام أهل الشام ولا مبالاتهم حداً جعلهم ينظرون حتى إلى الأمور العادية نظرة سطحية، وقد رويت عنهم روايات تبعث على الدهشة عن مؤرخين لم يعرف عنهم انحيازهم لأي من أطراف الصراع. وربما كان السبب في فساد أهل الشام أنهم كانوا أقرب إلى مجتمع (متحضر)، تأثروا به وربما بعد عهدهم بمجتمع البداوة الذي ربما تنكروا له تحت وطأة انبهارهم بمظاهر الحياة الرومانية المتطورة. (وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها وقد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم)[1] وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار تأخر دخولهم في الإسلام وتأثرهم المبكر بيزيد ومعاوية اللذين وليا عليهم واستمرت ولاية هذا الأخير وخلافته بعد ذلك لحوالي نصف قرن، أدركنا إلى أي مدى كانت الظروف أمامه متاحة للتأثير فيهم وجعلهم طوع يديه.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٣٦.

أضاليل في أباطيل

(وقد من أمرهم في طاعته، أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين يوم الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها، وركنوا إلى قول عمرو بن العاص أن علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير.

وذكر بعض الاخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصاً من لصوص الفتن..!.

وبلغ من أحكامه للسياسة واتقانه لها، واجتذاب قلوب خواصه وعوامه، أن رجلًا من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حال منصرفهم عن صفين، فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني بصفين. فارتفع أمرهما إلى معاوية. وأقام الدمشقي خمسين رجلًا بينه يشهدون أنها ناقته. فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير له. فقال الكوفي: أصلحك الله إنه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى. ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع إليه ضعفه وبرّه وأحسن إليه وقال له: أبلغ علياً أني أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل[1].

(وربما رتبت قصة الجمل هذه من قبل معاوية ليصدرها إلى العراق ويعلمهم كيف حال أهل الشام في طاعته).

(وقد كان عبدالله بن علي حين خرج في طلب مروان إلى الشام، وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر. ونزل عبدالله بن علي الشام ووجه إلى أبي العباس السفاح أشياخاً من أهل أرباب النعم والرياسة من سائر أجناد الشام، فحلفوا لأبي العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة..!)[2].

فإذا كان أرباب النعم والرياسة هؤلاء لا يعلمون إلا هذه الأضاليل، فكيف بالعامة والبسطاء من الناس؟.

---

(١) مروج الذهب ٣٩-٤٠-٤١.

(٢) المصدر نفسه.

ومن حق المسعودي وغيره من المؤرخين أن يعجبوا: (ثم تدبر تفرقهم في أحوالهم ومذاهبهم فانظر إلى اجتماع ملئهم، أن رسول الله ﷺ أقام يدعو الخلق إلى الله اثنتين وعشرين سنة، وهو ينزل عليه الوحي، ويمليه على أصحابه فيكتبونه ويدونونه ويلتقطونه لفظة لفظة وكان معاوية في هذه المدة بحيث علم الله، ثم كتب له ﷺ قبل وفاته بشهور، فأشاروا بذكره، ورفعوا من منزلته بأن جعلوه كاتباً للوحي وعظموه بهذه وأضافوه إليها وسلبوها عن غيره وأسقطوا ذكر سواه)[١].

إعلان الانحراف.. لا خوف من الأمة

لقد برز الخروج الأموي السافر عن الإسلام، لا بمجرد إعلانه عن تغيير الخلافة إلى ملك ـ كما حاول بعض المؤرخين إيضاحه على أنه انحراف في الجانب السياسي وحسب ! ـ وإنما بممارسات حياتية عملية تناقض ممارسات الإسلام وقيمه بشكل واضح. . وقد رأينا أن أول مظهر لذلك هو الاستئثار بالأموال العامة والبذل الكيفي لها لغرض استقطاب وشراء بعض الناس واستمالتهم، وقد بلغ الأمر إلى درجة اعطاء مصر بأكملها لعمرو بن العاص، كما سنرى عند تناولنا سيرة هذه الشخصية الغريبة الأخرى المساوية والمشاهبة لشخصية معاوية في كثير من الوجوه.

ورأينا من مظاهر ذلك الشدة التي أخذ بها النظام الحاكم خصومه ومناوئيه، كما رأيناه بقيام هذا النظام بأكبر عملية تحريف وتزوير لمعاني القرآن الكريم والسنة النبوية الكريمة أي محاولة تزوير الإسلام برمته.

وإن تناسينا الحملة التي قام بها أسلاف الحاكم الأموي ضد الإسلام والرسول الكريم ﷺ، فإننا لا يمكن أن نتناسى الحرب الضروس التي شنها هذا الحاكم (المنتمي رسمياً إلى الإسلام الآن) على مركز القيادة الإسلامية بحجة المطالبة بدم عثمان وما جرته هذه (المطالبة) الظالمة من ويلات ومآسٍ على المسلمين، لا زالت

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ٣-٤٣ وقد روى الطبري ح ٣ ص ٩٤ إن أحد الشباب الشاميين كان متحمساً لقتال جند الإمام عليه السلام وكان يشتم ويلعن ويكثر الكلام وقال: (فإني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي كما ذكر لي، وأنتم لا تصلون أيضاً، وأقاتلكم لأن صاحبكم قتل خليفتنا، وأنتم أردتموه على قتله) فتأمل كلامه وتأمل في موقف أهل الشام عند ما ذكر لهم أن الإمام ضرب في محراب الصلاة فتعجبوا أن يكون الإمام عليه السلام من المصلين. فأي غاية بعيدة ذهب إليها التضليل والخداع الأمويين لأهل الشام. !.

آثارها تمتد حتى أيامنا هذه، حيث يتسع الفتق وتزداد رقعة الخلافات والمشاكل. وما رافق حربه الأولى من ممارسات استهدفت هدم الإسلام وتطويقه والتقليل من دوره وتأثيره، ما دام يقف في طريق الحاكم الطامع وهو يسعى لبسط نفوذه وسيطرته على الأمة الإسلامية. ولم يبد ذلك الانحراف في المجال السياسي وحسب.

مع أن هذا الانحراف ظهر جلياً في هذا المجال مما لم يدع لأحد فرصة اختلاق المعاذير لمعاوية. وبدت القواعد التي وضعها معاوية في هذا المجال ـ فيما بعد ـ وكأنها القواعد الصحيحة للحكم.

ورأينا من مظاهر ذلك حياة الترف والبذخ التي أخذ بها معاوية نفسه ونهج بها خلفاؤه من بعده ابتداء من يزيد وحتى بقية (الخلفاء) من آل مروان.

وحسبنا ما تطالعنا به كتب التاريخ والأدب والتراث، مع أن كاتبيها لا يقفون بأجمعهم في المعسكر المعادي لهؤلاء الأمويين.

بدع أصبحت سنناً في دول الظلم

لقد افتتح معاوية عهده ـ وربما قبل أن يستولي على قيادة المسلمين ـ بعشرات من الخروقات الفاضحة والابتكارات (الجديدة) والبدع التي خالف بها الإسلام صراحة، وكان بذلك أول خارج عن الإسلام خروجاً معلناً غير مبطن أو مبرر مع أنه كان في موقع قيادة الأمة و (خلافة) المسلمين.

فقد كان معاوية

(أول من بايع لولده في الإسلام في حياته)[1].

(وأول من عهد بها في صحبته).

(وأول من وضع شرف العطاء الفين)[2].

(وأول من خطب جالساً وأول من جلس بين الخطبتين)[3].

(وأول من عمل المقصورة في المساجد)[4].

(وكان استلحاقه (زياداً) أول ما ردت به أحكام الشريعة علانية: فإن رسول الله ﷺ قضى بالولد للفراش وللعاهر بالحجر)[5].

(١) - (٤) ابن الأثير ٣٧٤ ـ وتاريخ الخلفاء ١٨٣ والعقد الفريد ٥-١١٢.

(٥) الكامل في التاريخ ٣٠١-٣٧٢ والعقد الفريد ٥-١١١.

(وكان أول من اتخذ الحرس)[١].

(وأول من اتخذه [السرير] في الإسلام معاوية)[٢].

(وأول من ورث المسلم من الكافر معاوية، وقضى بذلك بنو أمية بعده حتى كان عمر بن عبد العزيز فراجع السنة، وأعاد هشام ما قضى به معاوية وبنو أمية من بعده. وبه قال الزهري: وقضت السنة أن دية المعاهد كدية المسلم وكان معاوية أول من قصرها إلى النصف وأخذ النصف لنفسه)[٣].

(وأول من أحدث الخطبة قبل الصلاة في العيد معاوية)[٤].

(وأول من أحدث الأذان في العيد معاوية)[٥].

(وأول من نقص التكبير معاوية)[٦].

(وأول من اتخذ الخصيان لخاص خدمته)[٧].

(وأول من عبثت به رعيته)[٨].

(وأول من استحلف في البيعة.. استحلفهم بالله، فلما كان عبد الملك بن مروان استحلفهم بالطلاق والعناق)[٩].

وهو أول من اتخذ كاتباً وصاحباً للأمر من النصارى (وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي)[١٠].

وقد تبدو بعض مظاهر الحياة في بلاط معاوية غير مقبولة لدى جماهير واسعة من الأمة الإسلامية حتى قبل أن يكون معاوية (خليفة)، إلا أنه بررها باعتبار أنها رد فعل (ايجابي) على مظاهر الحياة الرومانية الفخمة في البلاط الروماني التي كانت قريبة من (العرش الأموي)، وأنه لا بد للوالي الأموي ثم (الخليفة) بعد ذلك أن يتظاهر بالفخامة ويحيط نفسه بالحرس ويقيم في القصور، ويتناول أطيب المأكولات ليبرز (لأعدائه) بعض مظاهر القوة الإسلامية! هكذا برر معاوية تصرفاته لعمر عندما حاول

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢٨٧.

(٣) ابن كثير ٨-٢١٧.

(٤) - (٩) تاريخ الخلفاء ١٨٧.

(١٠) الطبري ٣-٢٦٤.

محاسبته على ذلك، مع أنه لم يبد استعداده للتخلي عن مظاهر الفخامة تلك[١] كما رأينا في غضون هذا الفصل. فكيف به عندما لم يجد من يحاسبه ووجد نفسه (متملكاً) ومسيطراً على كل مقدرات الأمة وثرواتها؟.

وربما بدا الأمر وكأنه يمكن قبوله إذا لم يتعد اتخاذ الحرص والحجاب أو الظهور بالمواكب الفادحة. أما حين يتعداه إلى القيام بتجاوزات خطيرة كبعض تلك التي ذكرها المؤرخون وذكرنا قسماً منها مثل استلحاق زياد بن أبيه ومنح مصر طعمة لعمرو بن العاص والقتل والعطاء الكيفي والتمهيد لقتل ابن عمه عثمان ثم المطالبة بدمه تمهيداً للحصول على كرسيه، والمبايعة مسبقاً لابنه العاطل عن كل المؤهلات المطلوبة ليكون مجرد فرد سوي في الدولة الإسلامية لا رأساً لهذه الدولة. فإن الأمر إذا تعدى إلى تجاوزات من هذا النوع واضرابها وهي كثيرة لو أريد تقصيها لاستنفذت بحوثاً بأكملها فأي إسلامٍ يمكن أن نقول إن معاوية كان يحمله ويحكم بموجبه؟.

فهل بلغت تعاليم الإسلام من الغموض والتعقيد أن معاوية لم يجد فيها ضالته والابتعاد عنها فيما بعد. وهل استنفذ الإسلام طاقاته ليبتعد عنه معاوية بهذا الشكل ويرى أنه غير صالح للحكم؟ أم أن معاوية كان بعيداً عن الإسلام منذ البداية وظل بعيداً عنه دائماً؟.

ثم: أي مجتمع هذا الذي قد أصبح يتقبل هذه التجاوزات الفاضحة على الإسلام من (الخليفة) وحاشيته وولاته وأقاربه وجنده ولا يثور أو يتحرك أو يمد يداً أو لساناً..؟.

وليت الأمر اقتصر على مجتمع الشام وحده، وهو مركز الدولة الإسلامية، لكنه قد امتد ليشمل كل المجتمعات الإسلامية في كل حواضر الإسلام، وإن لم يكن بالدرجة التي كان عليها في المجتمع الشامي. باعتبار أن هذا المجتمع قد تلقى الرسالة بشكل متأخر وكان اختلاطه القليل لشعب الجزيرة وقربه وتأثره ببعض المجتمعات الجاهلية الفرعونية الأخرى، وقيام معاوية، منذ بداية دخول هذا المجتمع إلى الإسلام تقريباً، رأساً على قمته منذ أن عين والياً عليه بعد وفاة أخيه يزيد في عهد أبي بكر

(١) وقد روي (أن معاوية قدم على عمر بن الخطاب من الشام وهو أبض الناس فضرب عمر بيده على عضده فأقلع عن مثل الشراب أو مثل الشراك فقال: هذا والله لتشاغلك وبالحمامات وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حسرات على بابك) الكامل في الأدب ١/ ٧١.

واستمراره في عهد عمر وعثمان. . هذه الأمور مجتمعة أدت إلى تأخر أهل الشام عن المسيرة الإسلامية الصحيحة وعدم مواكبتها بشكل سليم، ومن هنا كان خوف معاوية من بقاء أهل الشام مع أهل البلدان الأخرى حتى لا يتأثروا بهم كما رأينا ذلك في توصياته ليزيد قبيل وفاته. وقد وجد معاوية في مجتمع الشام تربة خصبة ينشر فيها أفكاره ومبادئه وسياساته، فهو (مؤهل) لتقبل كل ما يلقيه إليه من نفايات على أنها سياسات عليا وتطلعات سامية وقيم إسلامية نبيلة!.

توسيع تجربة الشام تمهيد لتجريد الأمة من مسؤولياتها

إن معاوية عمل على أن تكون كل أقطار الإسلام كالشام، وأن يكون كل المسلمين كأهل الشام. لقد استجاب الشاميون بسهولة استجابة تامة له، وأصبحوا يفهمون الإسلام ويرونه من خلال المنظار الذي وضعه على عيونهم. إنهم نتاج تربيته ونتاج عمله الدؤوب المنظم الذي استمر سنوات طويلة ومنذ بداية دخولهم الإسلام، مسخراً في سبيل ذلك إمكانات هائلة كما سبق أن أوضحنا وأرادهم أن يكونوا (مركز اسقاع) لأفكاره وقيمه يصدره عن طريقهم إلى الأمصار الأخرى لتكون بدورها على النمط الشامي (المثالي) الذي رآه معاوية صالحاً منسجماً مع الحكم الذي أراد بسطه باسم الإسلام.

وطبيعي أن يختار معاوية وكلاءه وعماله وحاشيته وقواد جيوشه وفلاسفته وفقهاءه!. ، من أولئك الذين يتبنون فلسفته المصلحية الذرائعية ونظراته وسياساته. ولو استعرضناهم استعراضاً بسيطاً لرأينا أنهم كذلك بالفعل.

ولو أنهم كانوا مجرد متلقين عن معاوية ومطبقين لسياساته وحسب لهان الأمر، ولكن المصيبة أنهم (مبدعون) مثله، ويكادون يتسابقون معه في فنون (الدهاء) والسياسة والمكر. وقد أثر وجودهم على رأس السلطة أعواناً لمعاوية وولاة له وعمالًا على مسيرة المجتمع الإسلامي، وحرفه سلباً وإبعاده عن طبيعة المسيرة الإسلامية الصحيحة. وقد كانوا (أعلاماً) في فنهم، يعرفهم الجميع ويرمقونهم ويلاحظونهم و (يقتدون) بهم.

إنهم شكلوا أكبر (نقاط الضعف) التي أخذت على الإسلام نفسه في عهدهم والعهود التالية أيضاً باعتبار أنهم الممثلون لسلطته الشرعية والمنفذون لأحكامه والقيمون عليه.

وبدا الأمر للمجتمع المسلم كالتمثيلية الهزلية، عندما تربع على مركز القيادة من لم يكن مؤهلًا حتى للانتساب لهذا الدين العظيم، وبدا (القادة) على مسرح الحكم كالصور الكاريكاتيرية المضحكة، عندما تربعوا على جوانبه، وتقاسموا المغانم، وأجلسوا جلسة حميمة، مقتربين من بعضهم، مبتسمين، بل ومقهقهين بوجه المجتمع الإسلامي المقهور المغلوب، حاسرين عن وجوههم الأقنعة والأستار التي حجبوا بها تلك الوجوه، وأعلنوا مرات عديدة بوقاحة وصراحة متحدية خروجهم السافر عن الإسلام نفسه وتعاليمه وقيمه. وكانت قهقهاتهم وغمزاتهم لبعضهم تدل على استهتارهم التام بكل قيم الدين. وقد طالعتنا كتب الأدب والتاريخ بصور من الجلسات الحميمة بين معاوية وعمرو بن العاص والتي كانا يتبادلان فيها الطعون الخفية، والغمزات و (القفشات) والتلميحات، وكأنهما ليسا مسؤولين عن مصائر الملايين من أبناء هذه الأمة المظلومة المبتلاة.

عمرو بن العاص
شريك في الجريمة، شريك في السلطة

أبناء المرواني في الصدارة

شخصية عمرو بن العاص، ابن سلمى (النابغة) المشهورة في الجاهلية والتي نسبت هي عمراً لأبيه، ولولا ادعاؤها لكان قد نسب إلى أب آخر، ولربما كان مجرى حياته قد تغير بسبب ذلك[(١)]. هذه الشخصية العجيبة التي تقرن دائماً مع شخصية معاوية العجيبة الأخرى، أمدت معاوية بزخم هائل وجرأة مضافة للوقوف بوجه الإمام عليه السلام، معلناً ادعاءه الغريب بأنه سكت عن قاتلي عثمان والثائرين عليه، بل أنه شجعهم على ذلك، وذهب إلى حد مطالبة الإمام عليه السلام بنفسه بدم ابن عمه الذي أهدره هو، كما بينت لنا حوادث التاريخ المؤكدة.

ومع أن الرجلين، معاوية وعمرو قد مهدا حقاً لقتل عثمان، الأول بانحرافه المعلن عن الإسلام حينما كان عاملًا للخليفة المقتول على الشام إلى حد استفزاز الناس ومطالبتهم بعزله مع نفر من الولاة المنحرفين الآخرين، بل أنه مهد لعوامل القتل بسكوته عندما تجمعت السحب فوق كرسي الخليفة واحجامه عن نصرته إلى حد توجيه تحذير شديد لقائده الذي أرسله من الشام ليبقى على مراحل من المدينة فلا يتعداها مهما كانت الأسباب حتى ولو قتل عثمان. وتم ذلك فعلًا ولم يتدخل قائد معاوية لنصرة عثمان، بل لعل وجوده على هذه المراحل القريبة من المدينة هو الذي عجل بقتله، والثاني بتحريضه المباشر العلني على عثمان ومطالبته إياه بالاعتزال، وكما اعترف هو ـ بنفسه ـ بذلك.

---

(١) من المعلوم أن أمه سلمى بنت حرملة وكنيتها النابغة كان من أشهر النساء اللواتي كن يغنين ويأخذن الأجرة بغائهَن. وعندما ولدت عمراً ادعاه خمسة نفر من قريش كلهم يزعم أنه أبوه. وعندما سئلت النابغة قالت: كلهم أتاني فانظروا أشبههم به فالحقوه به، فغلب عليه شبه العاص بن وائل فلحق به، ولم يستطع العاص انكاره حسب تقاليد الجاهلية. ومن المعلوم أن أبا سفيان كان أحد هؤلاء الخمسة فربما خرج من صلبه معاوية وعمرو وزياد. فتأمل.

والحق أن هذا الثنائي، لو كان يريد المطالبة بدم عثمان حقاً ويجعل من نفسه مسؤولًا عن ذلك، لكان قد اتجه لصاحبه، أول ما يتجه، مطالباً بذلك الدم. . ! كان أحرى بمعاوية أن يطالب عمرو بن العاص بذلك، وكان حرياً بعمرو أن يطالب معاوية به، لو كانا يريدان حقاً المطالبة بالدم. . . !

إلتقاء المصالح يلغي الخلافات.. تقاسم الغنائم

ولكن التقاء مصالحهما (الكبيرة) التي لا يضاهي أهميتها شيء بنظرهما، جعلهما مجبرين على غض النظر عن بعضهما، بل والتغامز بالسر وفي مجالسهما الخاصة ضاحكين من المقتول ومن المطالبين بدمه على السواء، وراحا يطبلان ويزمران خلف جنازته مثيرين من الصخب والغبار ما من شأنه أن يربك أجيالًا من هذه الأمة الإسلامية، حتى أنها لا تزال إلى اليوم في خلاف وجدال حول هذه المسألة الواضحة وضوحاً عجيباً لكل ذي حس. !.

كيف حصل أن معاوية لم يطالب عمرو بن العاص بدم عثمان، لو كان يريد المطالبة به حقاً ممن أهدره. ؟.

وكيف حصل أن عمرو لم يطالب معاوية بدم عثمان لو كان مثله ـ أيضاً ـ يريد المطالبة به ممن أهدره. . . ؟

(المغنم الكبير) الذي تطلعا إليه، وحصلا عليه بعد ذلك، هو الذي جعل كلًا منهما يغض بصره عن الآخر، وربما كانا متفقين على المهمة منذ البداية، فما قاما به قد أتى أكله الآن وجاء بثمرته المرجوة. أدركا أن تخطيطهما وعملهما وسعيهما الدؤوب ـ مع الساعين ـ لتأليب الناس على عثمان، ثم أدى الأمر إلى قتله، وقيامهما بالمطالبة بدمه ثم الدعوة إلى الخروج على ولي أمر الأمة الإمام عليه السلام بهذه الحجة، هو الذي حقق لهما هذا الطموح الكبير، (امرة المؤمنين) للأول، وملك مصر للثاني. !.

وكما كاد أولهما للإسلام قبل أن يظهر وينتشر ويغلب، كاد الثاني له، بنفس الهمة ونفس النشاط. (وكما كان أبو الأول من ألد أعداء الإسلام وخصومه كان أبو الثاني من أعدائه الألداء أيضاً ومن المستهزئين برسوله الكريم صلى الله عليه وآله (وفيه نزلت) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[1])[2].

---

(1) الكوثر ٣. (2) مروج الذهب/ المسعودي ص ٢٨.

كان العاص أحد الأشراف الذين ساروا إلى أبي طالب ومنهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس، وطلبوا منه أن يمنع الرسول ﷺ من أداء رسالته وتسليمه إليهم، وعندما امتنع أبو طالب من الاستجابة لمطلبهم عادوا ثانية منذرين ومهددين، إلا أن أبا طالب استمر على موقفه المؤيد والداعم للنبي ﷺ دون حدود.

ابن الأبتر

وكان العاص بن وائل السهمي أحد الذين تصدوا باستمرار للرسول ﷺ، وكانت له مواقف عديدة حاول فيها النيل منه ﷺ والاستهزاء برسالته، وفي إحدى المرات حاول خَبّاب بن الأرتّ صاحب الرسول ﷺ أن يتقاضاه ثمن سيوف عملها له فامتنع عن الدفع قائلًا: (أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو حزم؟ قال خبَّاب: بلى. قال: فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله مني، ولا أعظم حظاً في ذلك. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾(١) (٢).

وكان العاص أحد الذين اعترضوا رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة فقالوا (يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبدُ، فنشترك نحن وأنت في الأمر... فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾(٣))(٤).

و(قال ابن اسحاق: وكان العاص بن وائل السهمي ـ فيما بلغني ـ إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه، فإنما هو رجلٌ أبتر لا عقب له، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم

---

(١) مريم ٧٧-٨٠ وتكملتها «أطلّع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً. كلاسنكتب ما يقول ونمدُّ له من العذاب مداً. ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً».

(٢) ابن هشام ـ السيرة النبوية م١/ ص ٣٥٧.

(٣) الكافرون.

(٤) ابن هشام ص ٣٦٢.

منه، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[1])[2].

وكان العاص من المستهزئين بالرسول ﷺ [3] فلما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى عليه سورة الكوثر، وقد أصيب كل هؤلاء المستهزئين ومنهم العاص الذي (خرج على حمار له يريد الطائف، فربض به على شبارقه، فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته)[4].

ومن مجمل ما نراه، وما ترويه كتب التاريخ والسيرة بإسهاب، نرى أن العاص السهمي كان أحد الذين أخذوا على عاتقهم التصدي للرسالة، وكان عمله استثنائياً في هذا المجال وقد لا يقل عن عمل أبي سفيان، وعلى ذلك العداء الشديد أخذ عمرو بن العاص نفسه وآلى عليها أن يكون حرباً على رسول الله ﷺ والإسلام.

عداء موروث

إن العداء القوي الذي يحمله الآباء قد لا يكون وحده كافياً لدفع الأبناء لاتخاذ نفس مواقفهم، فكم قد حارب الابن أباه والأخ أخاه في معارك الإسلام الكبرى، وكم قد تخلى كثيرون عن آبائهم وعشائرهم عندما انحازوا إلى صف الإسلام.

غير أن الأمر مع هذين الشخصين الغريبين اللذين احتلا مركز الصدارة في العديد من أحداث التاريخ الإسلامي المهمة لم يكن نفسه مع المؤمنين الآخرين. فهما لم يسلما إلّا عندما لم يريا من ذلك بداً، وحينما لاح لهما أن مصلحتهما تكمن الآن بتبني الإسلام بعد أن كانا يتبنيان الشرك. وليس بمقدور أحد ـ من دلائل حالهما على امتداد حياتهما فيما بعد ـ أن يقول إن توجههما للإسلام كان من أجل الإسلام وحباً فيه، كما اتجه إليه بقية الصحابة.

لم يكن اجتماعهما الآن لأول مرة يكيدان للإسلام وأهله، ولم يكونا غرّين فتيّين ليتأثرا مجرد تأثر عاطفي بأوضاع الأهل والعشيرة، وإنما كانا أصحاب (مواقف) متبناة معروفة وعن سابق اصرار وتصميم.

---

(١) الكوثر.

(٢) ابن هشام ٣٩٣ والطبري ١/٥٩٣.

(٣) المصدر السابق ٤٠٩.

(٤) ابن هشام ٤١٠-٤١١.

ولعل عمرو كان يكبر معاوية بعشرين عاماً مما أتاح له أن يرافق ويصادق أبا سفيان الذي اجتمع معه على الشر قبل أن يجمع مع ابنه عليه.

معاوية وعمرو.. لقاء على الشر والعدوان.. منذ أيام الجاهلية

لم يكن لقاء معاوية وعمرو بن العاص لقاء الصدفة وحدها أول لقاء (الحظ السعيد) الذي أتاح لهما الاستئثار بمقدرات الأمة الإسلامية كلها، فقد التقيا من قبل على الشر وعلى حرب الإسلام، فقد روى حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ كلفه أن يدخل في جيش المشركين في غزوة الخندق، وكانت الليلة شديدة البرد والظلام قال (فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش: لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان)[(١)] وقد ورد في شرح المواهب عن لسان حذيفة (فضربت بيدي على يد الذي عن يميني، فأخذت بيده، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان؛ ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص)[(٢)].

فالعلاقة الحميمة قد جمعت بينهما منذ البداية لهدفهما المشترك: حرب الإسلام. كل مؤهلات عمرو بن العاص أنه كان ماكراً، هذا ما أشار إليه الكتاب المولعون بجمع (الطرائف) (والغرائب) في كتب الأدب والتاريخ، ولعل حيلته المفرطة وظهوره الواضح في هذا المجال ولعبه أقذر الأدوار في الكيد للرسول ﷺ وآله عليهم السلام وخصوصاً في حرب صفين في لعبة التحكيم القذرة، جعلته من أشد الأشخاص المغامرين الملفتين للنظر عبر تاريخنا كله.

كصاحبه معاوية: يمكر ويفجر

كان عمرو بن العاص أحد مبعوثين من مشركي قريش إلى النجاشي، وقد حاولا رشوته ورشوة بطارقته وحاشيته ليسلم إليهما من هاجر إلى الحبشة من المسلمين الأوائل، وقد فشلت خطتهما لإقناع النجاشي بذلك، عندما رفض بشدة عند سماعه قول جعفر بن أبي طالب، أحد هؤلاء المسلمين المهاجرين ـ أن يسلمهم إليهما، ولم يثن رفضه عمرو بن العاص عن مكيدته، فحاول إثارة النجاشي بإثارة

---

(١) و(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام م ٢ ص ٢٣٢.

مسألة عبودية المسيح لله وأنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، وإن هذا ما يعتقد به المسلمون، معتقداً أن النجاشي كان مشركاً، وأيضاً لم يزد هذا النجاشي إلا إصراراً بالحفاظ عليهم والاقتناع بما جاء به الإسلام، وقد رد ما قدمه إليها المبعوثان من رشوة قريش(١).

وكان عمرو بن العاص في القافلة التي قادها أبو سفيان وفيها أموال لقريش،(٢) وكان ما كان بعدها في معركة بدر المظفرة، وفي معركة أحد التي عزم فيها مشركو قريش الأخذ بثأر قتلاهم كان عمرو بن العاص من المتزعمين لهذه الحرب ضد المسلمين، وقد خرج إلى المدينة (بريطة بنت منبِّه بن الحجاج وهي أم عبدالله بن عمرو) وكان يقول الشعر محرضاً(٣).

وبلغ من أذاه للرسول ﷺ أنه ﷺ كان يدعو عليه مع من كان يدعو عليهم كأبي سفيان والحارث بن هشام(٤).

وحتى قصة (إسلامه) كانت بدافع المصلحة أكثر مما كانت بدافع الإيمان، كما روى هو عن نفسه بقوله لأصحابه (والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، ورأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإنا إن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير)(٥) وقد حثه النجاشي نفسه على الانضمام للإسلام بقوله (ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده)(٦)، ومع ذلك لم يعلن (إسلامه) المزعوم، ولم ير بداً في النهاية عندما غلب دين الله من التوجه إلى الرسول ﷺ شارطاً عليه (إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، قال ـ

---

(١) السيرة النبوية/ ابن هشام م ١ ص ٣٦٥-٣٣٨ والطبري ١-٥٤٩ وابن الأثير ٥٩٨١-٥٩٩-٦٠٠.

(٢) السيرة النبوية ١٢ ـ ص ٦٠٦ و م ٢.

(٣) المصدر السابق م ٢-٦٢-١٣٤.

(٤) نفس المصدر ص ١٠٨.

(٥) نفس المصدر ٢-٢٧٧.

(٦) نفس المصدر م ٢-٢٢٧.

والحديث لعمرو ـ فقال رسول الله ﷺ: **يا عمرو بايع . .**)[١] وبايع عمرو، عسى أن يجد في الدين الجديد مغنماً كما كان يجد في عهد الجاهلية والشرك.

وهنا لا نعدم من يضع حديثاً مزوراً على لسان الرسول ﷺ بشأن عمرو، كما وضع العديد من أمثاله بشأن معاوية، فقد روي عنه ﷺ قوله (أسلم الناس وآمن عمرو)[٢].

إلى الدين حتى يستأثر بالدنيا

لم يكن معاوية وعمرو من المبادرين إلى الإسلام منذ البداية، عندما علما أن طريقهما غير طريق الأهل المشركين، بل كان طريقهم واحداً، تبني مواقف الآباء والانحياز للإسلام في النهاية حين لم يكن يبدو أمامهما طريق آخر.

قيم المصلحة الشخصية والمنفعة هي قيمهما العليا في كل حياتهما الطويلة الحافلة. وهي لم تكن قريبة من قيم الإسلام بأي حال من الأحوال.

إن (المثل العليا) الأرضية التي يضعها الناس أمامهم دائماً للحصول على أكبر قدر من المكاسب المادية، هي التي انتصبت أمامهما في كل مراحل حياتهما تلك. . ولن يستطيع أحد ـ مهما بذل من جهود ـ أن يدعي أنهما تطلعا إلى المثل الإسلامي الأعلى الحقيقي، وأخذا عنه غير ما أرادت مصالحهما أن يأخذا، وإذ تمثل ذلك ببعض الإداءات العبادية الطقوسية الظاهرية مثل الصلاة وغيرها، فلم يكن عليهما بد من ذلك، باعتبارهما احتلّا موقعين قياديين، بل أكبر موقعين قياديين للمسلمين، وإذا ما تجردا صراحة من كل التزام شكلي يربطهما بالإسلام فإنهما سيفقدان مبرر الشرعية التي يحاولان الحكم باسمها وهي التزام الإسلام، وسيكون ذلك خروجاً سافراً عن الإسلام، حتى أمام البسطاء من أهل الشام ويكون مدعاة لثورة مضادة يكونان هما قد حركاها واجّجاها ضد نفسيهما. فهما لم يأخذا من الإسلام إلا القدر الذي لا يتعارض مع مصالحهما والذي أتاح لهما التمكن من السيطرة والنفوذ[٣].

---

(١) نفس المصدر ٢٧٨.

(٢) لاحظ الهامش ـ المصدر السابق ٢-١٠٨.

(٣) وكان الإمام علي عليه السلام دقيقاً بوصف نظيرهما المغيرة بن شعبة الذي كان مثلهما ولعب معهما أقذر الأدوار لحرف الأمة عن مسيرتها. (فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربه من الدنيا وعلى عمد لبّس على نفسه ليجمل الشبهات عاذراً لسقطاته) نهج البلاغة ٧٥١.

مكر أم غباء

كانت حياة عمرو بن العاص حافلة بالمكائد والدهاء والحيلة، ولم يكن ابن النابغة هذا ممن يعتز بطهارة مولد أو يفتخر بأصل أو محتد يفتخر به أمام الناس، فكان لا بد لعقدة النقص هذه أن تثير فيه كوامن الحقد على المجتمع أولًا، ثم كوامن التطلع والصعود إلى أكثر من مستوى (السادة) الحقيقيين، ! ليعوض بعض ما يراه الكثيرون ـ حتى وفق قيمهم الجاهلية، عيباً وشيناً، وإن كان هو شخصياً لا يد له فيه.

كان عمرو بن العاص يفتخر بأنه (داهية) مثل معاوية، وتلك كانت كل مواهبه، وإذا ما أخذنا الدهاء على أنه التصدي للأمور بمقتضى الحال، وفق ما يمليه عليه الواجب، ووفق فهمه لأمور الشريعة، فذلك هو الحكمة بعينها، أما إذا كان الدهاء يعني عنده المكر والحيلة والوصول إلى الغاية بكل الطرق المتاحة والتوصل إلى الغلبة بأية طريقة، وغض النظر عن الإسلام وقيمه واستقامته، فإن الدهاء هنا ينتصب صورة مشوهة للقوى والغرائز المتدنية ولا يعني إلا استنفارها لتحقيق الغلبة وحسب.. ولا يهم إن تلاقت الأساليب مع الإسلام أو افترقت عنه.. ولا يهمه أن غرَّق الأمة أو حرّقها في سبيل أهدافه الشريرة.

ورحم الله أبا الحسن عليه السلام عندما يصف هذا النمط من الناس.. (آثروا عاجلًا وأخَّروا آجلًا، وتركوا صافياً وشربوا آجناً. كأني أنظر فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه، ...حتى شابت عليه مفارقة، وصُبغت به خلائقه، ثم أقبل مزبداً كالتيار لا يُبالي ما غرَّق، أو كوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرَّق)[1].

ومن الطريف أنه حتى إذا ما قال قائل أمام معاوية أو عمرو نفسيهما بأنهما على باطل وأنهما يجانبان الإسلام ويبتعدان عنه، وهما يسعيان للغلبة والنصر والتفوق فهما لا ينزعجان من ذلك ويتقبلانه على أنه شهادة بمهارتها وقدراتهما في الحيلة (والدهاء) الذي لا بد منهما لمن يتولى حكم الناس وسياستهم، وقد يعتبران ذلك زينة للرجال (الكيّسين) الكبار، مع أنهما في الواقع قد لا يجدان ما يردان به على الناقدين الذين ينطلقون في نقدهم من منطلقات إسلامية بحتة، وكم قد روي لنا عن أناس تصدوا لمعاوية بالنقد والتجريح فلم ينزعج بل قال (.. إننا لا نحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا) كما بيناه من قبل.

---

(١) نهج البلاغة ٢٠١.

كانا متآمرين قديمين وسارقين لمكاسب الأمة يعرف أحدهما الآخر حق المعرفة. وتروى عنهما تلك الحادثة التي أشارت إلى عدم نزاهتهما وقيامهما بموقف تمثيلي أمام عمر عندما أوشكا أن يتكاشفا بما فعلاه وقاما به من سرقات (قدم معاوية من الشام وعمرو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوية، فقال له معاوية: اعملي تصيب وإلي تقصد؟ هل نخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك! قال عمرو: فعلمت أنه بعملي أبصر مني بعمله! وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك، فرفعت يدي فلطمت معاوية. فقال عمر: تالله ما رأيت رجلًا أسفه منك! قم يا معاوية فاقتص منه. قال معاوية: إن أبي أمرني أن أقضي أمراً دونه. فأرسل عمر إلى أبي سفيان فلما أتاه. قص عليه ما جرى فقال: لهذا بعثت لي. أخوه وابن عمه، وقد أتى غير كبير، وقد أتى غير كبير، وقد وهبت ذلك له) العقد الفريد ١/١٨ فانظر إلى دهائهما في التخلص من ورطتهما التي كاد أن يكشفا فيها أوراقهما.

ولا يستطيع أحد أن ينكر المواهب الكبيرة التي تمتع بها عمرو بن العاص، ولا تلك التي تمتع بها معاوية، وهي مواهب استثنائية فريدة، وقدرات تدل على الذكاء الكبير، غير أنها مواهب وقدرات كرست للشر الخالص، فكأنهما في ميدان الشر شيطانان من شياطين الانس، وقد وصف الإمام عليه السلام معاوية بهذا الوصف فعلاً عندما كتب إلى زياد يحذره منه وقد بلغه أنه يحاول استلحاقه بأبي سفيان: «.. وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبك ويستفل غربك، فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه عن شماله ليقتحم غفلته ويستلب عزته»[1].

شيطانان يجتمعان

فكيف ظننا بهذين الشيطانين، وقد اجتمعا سوية، وواجها الاستقامة الواضحة لأمير المؤمنين عليه السلام والوضوح الخارق لهذا القائد الذي لم ير شيئاً إلا ووجد الله معه وفيه وقبله وبعده ـ كما عبر هو عليه السلام عن ذلك. وقد قال معاوية نفسه ـ عندما أذهله

(١) نهج البلاغة ٥٨٥-٥٨٦.

الوضوح الذي كان ينظر به الإمام إلى كل أمور الحياة (أعنت على علي بأربعة: كنت أكتم سري وكان رجلًا يظهره، وكنت في أصلح جند وأطوعه، وكان في أخبث جند وأعصاه، وتركته وأصحاب الجمل وقلت إن ظفروا به كانوا أهون علي منه وإن ظفر بهم اغتر بها في دينه! وكنت أحب إلى قريش منه. فيا لك من جامع إلي ومفرق عنه)[1].

بين منظار الإسلام ومنظار المصالح الدنيوية

لقد كان الإمام عليه السلام يرى كل شيء بمنظار الإسلام، وكان معاوية يرى كل شيء بمنظار المصالح الدنيوية المحدودة، وكان الإمام يرى في هذه الدنيا (الممر) ما لم يتمكن معاوية ولا عمرو بن العاص ولا أشباههما أن يروه، ويتطلع إلى آخرة لم يروها أيضاً، ومن هنا كان التباين والاختلاف، إنه أمر بسيط يراه كل مسلم، وهو من أولويات الإيمان وأصول الدين، وإلا كان الدين بجملته عبثاً إذا كان أي مسلم منا لا يتطلع إلى المعاد وإلى الحساب في الآخرة حين يعرض كل امرىء على ربه وتعرض أعماله معه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾[2].

لو كانا يريان الأمور بعيني الإمام عليه السلام

كان الإمام عليه السلام يرى ما لا يريانه ويعلم ما لم يكونا يعلمانه، ومن هنا كان التباين الكبير بينه وبينهما وبين أمثالهما ممن لا يمتلكون رؤيا إسلامية صحيحة. (ولو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيبُه، إذاً لخرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم وتلتدمون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف عليها، ولهمّت كل امرىء منكم نفسه، لا يلتفت إلى غيرها، ولكنكم نسيتم ما ذكّرتم، وأمنتم ما حُذِّرتُم، فتاه عنكم رأيكم، وتشتت عليكم أمركم..)[3].

(١) العقد الفريد ٥-١٠٩.

(٢) الانشقاق ٦-١٥.

(٣) نهج البلاغة ١٧٣-١٧٤.

أترى أن الإيمان بالله لم يكن غير بضاعة كاسدة لا يأخذ بها أو يتعاطى تجارتها إلا المغفلون والعجزة؟، أما الدهاة والأذكياء! أمثال معاوية وعمرو بن العاص اللذين لم يريا أمامهما سوى هذه الدنيا وعرضها، فليس عليهما سوى أن يتظاهرا به أمام الناس، أما في الواقع فإنكاره هو الشيء العملي الوحيد الذي فعلاه.

إنهما لم يصرحا بكفرهما وعدم إيمانهما علناً، بل صرحت به تصرفاتهما وأعمالهما المشينة، فإنهما وجدا في الإسلام الأموي المبتكر مادة لتحقيق طموحاتهما بعد أن أتيحت لهما فرصة الوقوف على رأس الهرم الكبير الذي ضم أبناء الأمة كلها على امتداد أقطارها، ولم يأخذا (الآخرة والمعاد والحساب) بمأخذ الجد، إلا حينما حان حينهما واقترب أجلهما، ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن جرّا على نفسيهما وعلى الأمة البلاء والويلات.

لا يتذكرون الموت إلا ساعة الاحتضار

فهذا معاوية يحتضر، وقد اقترب أجله، ويبدو الآن في حيرة وهم شديد لما يحتمل أن يلاقيه بعد الموت ـ فهو ليس في يقين ثابت من ذلك طيلة حياته وحتى ربما في هذه اللحظات التي أوشكت أن تنهي تلك الحياة، إنه يتذكر جرأته على اقتحام الذنوب والمعاصي وكل دروب الباطل، وهنا يوصي (أن يرد نصف ماله إلى بيت المال)[1] فلعل في ذلك مخرجاً من هذه المحنة التي لم يكن يتوقعها طيلة حياته، وكأن في التخلي عن نصف أمواله حسماً لخلافه مع شريعة الله (ولما اشتد مرضه أخذت ابنته رملة رأسه في حجرها وجعلت تقلبه. فقال: إنك تقلبين حوّلاً قلّبا، جمع المال من شب إلى دب فليته لا يدخل النار؟)[2].

ولما احتضر تمثل:

إن تناقش يكن نقاشك يا رب ... عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب صفوح ... عن مسيءٍ ذنوبه كالتراب)[3]

(وتمثل ـ عند احتضاره:

هو الموت لا منجى من الموت والذي ... تحاذر بعد الموت أدهى وأفظع...

(١) الكامل في التاريخ ٣-٣٧٠ وابن كثير ٨-١٤٤.
(٢) الكامل في التاريخ ٣٧٠.
(٣) الكامل ٣٧٠ والبداية والنهاية ١٤٥.

ثم قال: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وجد بحلمك على جهل من لم يرج غيرك ولا يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة، وليس لذي خطيئة مهرب ولما أزف أمره وحان فراقه اشتدت علته وأيس من برئه أنشأ يقول:

فيا ليتني لم أعن في الملك ساعة ولم أكُ في اللذات أعشى النواظر
وكنت كذي طمرين عاش ببلغةٍ من الدهر حتى زار أهل المقابر)[1]

وقال: (يا ليتني كنت رجلًا من قريش بذي طوى، ولم أل من هذا الأمر شيئاً)[2] (ولما احتضر معاوية جعل أهله يقلبونه فقال لهم: أي شيخ تقلبون؟ إن نجاه الله من عذاب النار غدا)[3].

فرّط بذرية الرسول ﷺ واحتفظ بقلامة من أظفاره

(وقال محمد بن سيرين: جعل معاوية لما احتضر يضع خداً على الأرض، ثم يقلب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ويقول: اللهم إنك قلت في كتابك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ اللهم فاجعلني فيمن تشاء أن تغفر له، ثم قال: اللهم أقل العثرة واعف عن الزلة وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك فإنك واسع المغفرة. ليس لذي خطيئة من خطيئة مهرب إلا إليك)[4] (فلما حضرته الوفاة قال: إن رسول الله ﷺ كساني قميصاً فحفظته وقلم أظفاره يوماً فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة فإذا مت فألبسوني ذلك القميص وأسحقوا تلك القلامة وذروها في عيني وفمي، فعسى الله أن يرحمني ببركتها)[5].

فهل حفظ لله عهده ـ حينما شهد الشهادتين بلسانه ـ حتى يغفر له، وهل حفظ لرسول الله ﷺ آله وذريته ودينه، حتى تحفظه قلامة أظفاره وقميصه يدفنهما معه في قبره.؟ أنه لم يفعل سوى الشيء الوحيد الذي كان قادراً عليه عند موته، وهو

---

(١) مروج الذهب/ ٦٣.
(٢) البداية والنهاية ١٤٥.
(٣) البداية والنهاية ١٤٥.
(٤) البداية والنهاية ١٤٥.
(٥) ابن الأثير ٣-٣٧٠.

الاعتراف بالذنب وطلب التوبة، فليته اعترف بذنبه قبل ذلك وطلب التوبة، إذاً لكان قد جنب الأمة الويلات والمصائب، ولما آل أمرها إلى ما آل إليه.

ساوم على الباطل في شيخوخته

وهذا عمرو يحتضر قبل أن يحتضر معاوية، فلا يجعل هذا من موته عبرة له. إنه يبدو حائراً أمام (لغز) الموت هذا الذي لم يفهمه ولم يعترف به طيلة حياته، سوى أنه فناء واندثار. ولهذا كانت جرأته على الباطل. وها هو الآن أمام المصير المحتوم الذي تجاهله دائماً يقول: (اللهم لا براءة لي فاعتذر، ولا قوة لي فانتصر. أمرتنا فعصينا ونهيتنا فركنّا. اللهم هذي يدي إلى ذقني)[1] وما عساه أن يقول، وكيف يعتذر، فهو هنا يستعد لملاقاة ربه عارياً إلا من الذنوب التي احتطبها على ظهره، كيف سيعتذر وقد تولى معاوية من دون الله واتخذه خليلاً وولياً وقائداً، أسيمحى كل ذلك لمجرد أنه قال ما قاله في لحظة موته؟ أيكون الإسلام عبثاً إلى هذا الحد؟ ألم يقرأ، وهو القارىء والمحدث والمفسر! كلام الله وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2].

أطاع معاوية ودعا لله؟ هل لله وفي سبيله؟ هذا ما ينبغي أن يتساءل عنه كل أولئك المتصدّين لدراسته. لقد أطاع هواه ودعا إلى مصالحه. وعلم أنه مع أمير المؤمنين عليه السلام لن يجني أي نفع أو فائدة! وأنه لن يخلف من الأموال ما خلف. فقد (خلف عمرو من العين ثلاثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار، ومن الورق ألف ألف درهم وغلة مائتي ألف دينار بمصر وضيعته المعروفة بالوهط قيمتها عشرة آلاف ألف درهم)[3] (خلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً دنانير والبهار جلد ثور)[4].

---

(١) مروج الذهب ٢٨.

(٢) البقرة ١٦٥-١٦٧.

(٣) مروج الذهب ٢٩.

(٤) المفريزي ١-٣٠١/ السلوك لمعرة دول الملوك/ تحقيق محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة - ١٩٣٤م ونهج البلاغة ص ٥٧٩.

عندما يموت الطغاة

وما أحسن قول ابن الزبير الأسدي فيه:

(لم تر أن الدهر أخنت صروفه على عمرو السهمي تجبى له مصر
ولم يغن عنه حزمه واحتياله ولا جمعه لما أتيح له الدهر
وأمسى مقيماً بالعراء وضللت مكايده عنه وأمواله الدثر)[1]

ندم حيث لا ينفع الندم، واعتذار حيث لا يفيد الاعتذار، ولكنه ندم واعتذار مما يعتبر به على أي حال. لقد قالا الحق عن نفسيهما. ولكن متى؟ حينما أوشكت آخر أنفاسهما أن تنقضي ولم يعد لهما دور يلعبانه في هذه الحياة. وقد شهدا على أنفسهما أمام الله وأمام الناس، وبقيت الشهادة الأخرى في الدار الآخرة يشهدانها على نفسيهما أمام الله، وهل يملكان إلا أن يقولا الحق...

ومن العجيب أن العديدين من مؤرخينا وكتابنا يغضون النظر عن أمثال هذه (الهنات) كما يغضون النظر عن جلّ هناتهما وزلاتهما! وهي أكثر من أن تحصى، ولا يريدون إلّا سماع من يقول فيهما خيراً. أما في غيرهما فليقل ما يشاء، وإن قال فيهما خيراً فمن أين سيأتي بذلك اللهم إلا أن يكون كاذباً، ولم نعدم في كتاب الله وله الأموية ومثيلاتها، وعلمائهم وفقهائهم وقصاصيهم من ينسب إليهم الفضل كل الفضل وينزعه عن غيرهم ما دام في هذا مصلحة له، وما دام جيبه يمتلىء من أموال الخلفاء الكرماء، فقد (ظهرت أحاديثهم الكاذبة ونشأ عليها الصبيان يتعلمون ذلك. وكان أشد الناس في ذلك الشعراء المراؤون والمتصنعون الذين يظهرون الخشوع والورع، فكذبوا وانتحلوا الأحاديث وولدوها، فيخطون بذلك عند الولاة والقضاة ويدنون مجالسهم ويصيبون بذلك الأموال والقطايع والمنازل حتى صارت أحاديثهم ورواياتهم عندهم حقاً وصدقاً. فرووها وقبلوها وتعلموها وعلموها وأحبوا عليها وأبغضوا من ردها أوشك فيها فاجتمعت على ذلك جماعتهم وصارت في يد المتنسكين والمتدينين منهم لا يستحلون الانتقال لمثلها فقبلوها وهم يرون أنها حق، ولو علموا بطلانها وتيقنوا أنها مفتعلة لأعرضوا عن روايتها ولم يدينوا بها ولم يبغضوا من خالفها فصار الحق في ذلك الزمان عندهم باطلًا والباطل حقاً والكذب صدقاً والصدق كذباً)[2].

(١) مروج الذهب ص ٢٩.
(٢) شجرة طوبى ٨٩.

ولسنا بمعرض المقارنة بينهما وبين الإمام عليه السلام، فهذا أمر لا يمكن إجراؤه بالمقاييس العاديّة، ولن يتاح لامرىء ذلك إلا إذا أتيحت له فرصة المقارنة بين إبليس وأحد الملائكة الكرام، فلا مجال للمقارنة إذاً، وأنه لتجنِ على الإمام عليه السلام إذا ما رحنا نقرنه بهذه النماذج الممسوخة، وقد كان ذلك من أكثر الأمور التي تمضه وتؤلمه عليه السلام حقاً، فقد ورد بكتاب كتبه إلى معاوية: (فيا عجباً للدهر إذ صرت يقرن بي من لم يسمعِ بقدمي، ولم تكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها، إلا أن يدعي مدع ما لا أعرفه ولا أظن الله يعرفه)[١].

شتان ما بين الفائز والخاسر

ولا يسعنا هنا إلا أن نذكر قول الإمام عليه السلام عندما ضربه الخارجي ابن ملجم الضربة التي أودت بحياته، والتي لخص بها حصيلته من هذه الحياة، وكانت الفوز بكل تأكيد، فقد طفرت إلى فمه هذه العبارة (فزت ورب الكعبة)، هل كان هذا الفوز قد تمثل بمكاسب مادية وأموال جمعها كما جمعها غيره أو بملك عضوض تمهد له واستقام لأولاده فيما بعد، لم تكن عبارته تلك تعبر إلا عن قناعته بسلامة موقفه طيلة حياته وانحيازه المطلق إلى الإسلام ومبادئه.

لقد فاز، وقد أدرك ذلك كما أدركه طيلة حياته ـ عندما انتهى المشوار الطويل للاختبار الصعب، هذا الإختبار الذي امتد طيلة عمره في هذه الحياة الدنيا، ونجح فيه كله، وقد وفد على ربه غير خائف وغير آسف، بل فرحاً مستبشراً، لقد كان على بصيرة من ربه، ولقد رآه كما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله، لم يلتبس عليه أمر، ولم تشكل عليه مسألة (وإن معي لبصيرتي ما لبَّسَ على نفسي ولا لُبِّسَ عليَّ)[٢] (وإني لعلى بينة من ربي ومنهاج من نبي وإني لعلى الطريق الواضح القطة لقطا..)[٣].

لم نلمح ندماً أو خوفاً من مستقبل رهيب في كلمات الإمام عليه السلام كما لمحناها في كلمات عدويه اللدودين وهما يقبلان على الآخرة.

طمعه قتله... حرض على عثمان وطالب الأبرياء بدمه

مهد عمرو بن العاص لأمر خطير كان يأمل أن ينال به ما فاته من كسب بعد عزله من مصر، فعندما قرب عثمان أقاربه وأغدق عليهم الأموال والقطائع.

---

(١) نهج البلاغة ٥٢٥.

(٢) و(٣) المصدر السابق ٩٥، ٢٤٠.

ورأى نقمة الناس عليه بسبب ذلك، رأى أن الفرصة أصبحت مؤاتية له ليدلي بدلوه في خضم الأحداث التي بدأت تلوح في الأفق، فقد حاول إثارة الثوار على عثمان عندما تصدى له أمام الناس قائلًا («اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك، فتب إلى الله نتب» فناداه عثمان: «وإنك هناك يا ابن النابغة؟ قملت والله جبتك منذ عزلتك عن العمل» فنودي من ناحية أخرى: «تب إلى الله» فرفع يديه وقال: «اللهم إني أول تائب» ورجع إلى منزله)[1].

كان موقفه التحريضي ضد عثمان، والذي كشفه هو صراحة فيما بعد، أحد العوامل التي أدت إلى التسريع بقتله، خصوصاً إذا ما علمنا موقعه من المصريين الذين كان عاملًا عليهم من قبل عمر بن الخطاب.

لم يركب هذه الموجة إلا لمكسب رآه ماثلًا أمامه، ولو كان يدري أن الأمور ستستقيم للإمام عليه السلام لما كلف نفسه هذه المؤونة، ولاكتفى بما نال من مكاسب سابقة.

وعندما تراكمت الغيوم ورأى أنِ الأمر لا بد أن يتمخض عن أحداث خطيرة، أبسطها مقتل عثمان، وقد رأى حينذاك أن يختفي عن مسرح الأحداث بعد أن مهد لذلك، لكيلا تسجل عليه المواقف الأخيرة وقد يقتل عثمان وهو في المدينة، وهو أمر بدا أنه قد خطط له بعناية وحذر، (وخرج عمرو بن العاص إلى منزله بفلسطين، وكان يقول: والله إني كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان، وأتى علياً وطلحة والزبير فحرضهم على عثمان)[2].

كان عثمان شيخاً كبيراً فانياً، ناهز الثمانين من العمر، ولو قد انتظر الثوار وفاته، لمات حتف أنفه بعد سنة أو سنتين، وماذا كان يمكن أن يجنيه عمرو أو معاوية الذي تقاعس عن نصرته عندما استنجد به كما أسلفنا، عندما يموت عثمان هذه الميتة الطبيعية، وماذا ستكون حجتهما لإعلان الحرب على الإمام عليه السلام والخروج عليه، بعد أن أجمعت الأمة كلها على أن يكون قائدها وإمامها؟.

وماذا يمكن أن يجني عمرو من خلافة علي عليه السلام سوى الإهمال والإبعاد وعدم نيل أي امتياز أو مكسب، كما يتوقع من غيره.!.

---

(١) الكامل في التاريخ ٣-٥٤.
(٢) المصدر السابق ٣-٥٦.

ولعل معاوية وعمرو قد بيّتا الغدرَ بعثمان بليل، وعزما عليه، وربما اتفقا على ذلك صراحة، وإن حاولا أن لا يبديا ذلك للناس، أو يبديا عكسه فيما بعد.

ذلك أمر من حق كل باحث أو قارىء أن يفكر فيه، ما دمنا قد رأينا تلازمهما في كثير من المواقف قبل دخولهما الإسلام وبعد ذلك، وعملهما (لقضيتهما المشتركة)، عصيان الأمة واعلان الحرب عليه بحجة الأخذ بثأر عثمان الذي قتلاه هما بالتحريض عليه والتقاعس عن نصرته والتمهيد لأسباب الثورة. ثم تلازمهما ومساراتهما وتشاورهما الدائم في العديد من أمور الدولة التي اغتصباها واستأثرا بكل ما حصلا عليه من أموال وجاه وملك طويل عريض.

وقد صرح عمرو عندما بلغه مقتل عثمان قائلًا: أنا أبو عبدالله. أنا قتلته وأنا بوادي السباع»[1].

كرهه لعلي عليه السلام جعله ينحاز لمعاوية

«وأما علي فلا خير عنده، وهو غير مشركي في شيء من أمره».

وعندما قتل عثمان، كان على عمرو أن يحدد موقفه من أمير المؤمنين عليه السلام ! فهو يدرك أنه لن يجني شيئاً وراء هذه البيعة، وقد أدار المسألة بعقله الذي لا يحسب حساباً إلا للمصلحة الشخصية والنفع الخاص، فوجد أنه يستطيع أن يضع يده في يد أي امرىء إلا علياً عليه السلام، فليس وراءه أي مكسب أو مغنم، هذا ما علمه عمرو، وعلمه معاوية أيضاً وقبلهما طلحة والزبير ونظائرهما. فعلي عليه السلام عندما يتسلم قيادة المسلمين فإنه سيأخذ الجميع بالحق دون تمايز أو اعتبار سوى اعتبار الإسلام، وأنه لن يضعهما في أي مركز يرغبانه، وهل يتخلى معاوية عن (مشروع عرش) بناه في عشرين عاماً . ؟ .

وهل ستتاح الفرصة لعمرو للعودة إلى مصر وحكمها، وذلك جل أمنيته؟ .

وهكذا أعلن عمرو منذ البداية: (وإن يله ابن أبي طالب، فهو أكره من يليه إليّ)[2].

---

(١) نفس المصدر ١٥٨ وقال (أنا أبو عبدالله، تكون حرب من حك فيها قرحة نكأها. .) الطبري ٣-٦٩.

(٢) نفس المصدر ص ١٥٨ والطبري (وأن يله ابن أبي طالب فلا أراه إلا يستنظف الحق وهو أكره من يليه إلي) ٣-٦٩.

(أما علي فلا خير عنده، وهو يدل بسابقته، وهو غير مشركي في شيء من أمره)[١].

وهكذا فإنه عندما (بلغه بيعة علي، فاشتد عليه)[٢].

وعندها انهمرت دموع الحزن من عينيه على هذه المصيبة التي تمثلت ببيعة الإمام، ورأى أن يستثمر هذه الدموع حالًا، وأن لا يجعلها تنسكب دون فائدة، إذاً فليسكبها منذ الآن على الخليفة القتيل (المظلوم)، الذي كان أول من ظلمه هو وصاحبه معاوية، (ثم ارتحل عمرو من فلسطين راجلًا معه ابناه يبكي كما تبكي المرأة، وهو يقول: «واعثماناه. أنعى الحياة والدين. .!» حتى قدم دمشق)[٣].

لماذا اتجه إلى دمشق مباشرة، ولم يلتحق بطلحة والزبير وعائشة؟ لأن أراد أن يكمل الخطة التي وضعها مع صاحبه ونفذاها بنجاح، وعليهما الآن أن يجنيا ثمار ما زرعا، ويتعاونا بشتى الطرق ويعضا على الأمر بأضراسهما، فهي فرصة العمر الكبيرة الوحيدة، وإن أفلتت فسيفلت كل شيء منهما ويضيع، هكذا حسبا وخططا وعزما، وتوكلا على إرادتهما الشريرة وشيطانهما المريد. (ثم خرج ومعه ابناه، حتى قدم على

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر ص ١٥٨ ـ والطبري ٣-٦٩ (فبلغه أن علياً بويع له فاشتد عليه، وتربص أياماً ينظر ما يصنع الناس، فبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة. فقال: أستأتي وانظر ما يصنعون، فأتاه الخبر أن طلحة والزبير قد قتلا فارتج عليه أمره، فقال له قائل: إن معاوية بالشام لا يريد أن يبايع لعلي، فلو قاربت معاوية! فكان معاوية أحب إليه من علي بن أبي طالب وقيل له أن معاوية يعظم شأن قتل عثمان بن عفان و يحرض على الطلب بدمه، فقال عمرو: ادعوا لي محمداً وعبدالله، فدعيا له، فقال: قد كان ما بلغكما من قتل عثمان، وبيعة الناس لعلي، وما يرصد معاوية من مخالفة علي. وقال: ما تريان؟ أما علي فلا خير عنده، وهو رجل يدل بسابقته، وهو غير مشركي في شير من أمره، فقال عبدالله بن عمرو: . . . أرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه وقال محمد بن عمرو: أنت ناب من أنياب العرب، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر. قال عمرو: أما أنت يا عبدالله فأمرتني بالذي هو هو خير لي في آخرتي وأسلم في ديني. وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي ابنه لي في دنياي، وشر لي في آخرتي) الطبري ٣-٦٩-٧٠.

(٣) نفس المصدر ص ١٥٧.

معاوية، فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان، وقال عمرو: أنتم على الحق. اطلبوا بدم الخليفة المظلوم)[1].

من يطالب بدم عثمان

ولننظر إلى الكلمة التي وضعها المؤرخون هنا، أو التي وضعها لهم البعض، (فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان)، من الذي كان يطالب بدم عثمان؟ من كان يحض من؟ هل هم أهل الشام الذين كانوا يحضون معاوية؟ أم معاوية كان يحض أهل الشام (في الخفاء) ليحضوه في العلن؟ لا شك أنه معاوية. لكنه أراد أن يبدو الأمر أمام أبناء الأمة الإسلامية الآخرين، وكأن أهل الشام دفعتهم غيرتهم وحميتهم المجردة والانتصار (للمظلوم) فطالبوا معاوية بذلك. وكأنما هو لم يرد ذلك وأنه أجبر عليه من قبل الأمة ولن يفعل سوى أن استجاب لإرادتها.

إن (مكر) معاوية هنا يتجلى بأبرز صورة وأدقها، فهو لم يكن يرغب أن يبدو الأمر وكأنه رغبة شخصية منه، قد يؤاخذ عليها فيما بعد إذا لم ينجح، فوضع حظاً للرجوع إذا ما فشلت خِطَّتَه، كما أراد أن يري أهل الشام أنه إنما يستجيب لهم لشدة حبه لهم، وأنه إن نهض في النهاية، فإن عليهم أن يطيعوه طاعة تامة دون تردد. فهو يستجيب لطلبهم..! وعليهم أن يستجيبوا لأوامره وقيادته.

كان هذا ـ وهو رغبة أهل الشام في الأخذ بثأر عثمان ـ ما كان معاوية يؤكده دائماً، ففي إحدى رسائله إلى الإمام عليه السلام، كتب يقول (وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان)[2].

وأي شهادة أكبر من شهادة عمرو بن العاص لأهل الشام بأنهم على الحق..؟! ليس أكبر منها سوى شهادة معاوية لهم، ووصفه إياهم بأنهم الفئة المحقة التي ينصر بها الله الدين وأنهم خير جند وأطوعه، وأنهم الفئة المنصورة. (إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذابين عن بيضته، التاركين لمحارمه)[3]!.

(١) نفس المصدر ١٥٨ والطبري ٣-٧٠.
(٢) العقد الفريد/ ٥-٧٦.
(٣) مروج الذهب ٥٠.

لقد أراد ايهامهم بأن أمر الدين وقوامه يعتمد عليهم وأنهم إن سار بهم هو لكان وإياهم عن المحجة البيضاء والطريق الواضح، وأراد بذلك أن يسخرهم لأغراضه، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد.

أقصر الطرق.. مساومة مكشوفة

«إنما أردنا هذه الدنيا..».

ولعل انخداع أهل الشام الشديد بمعاوية وإخلاصهم له وانقيادهم إليه ومسيرهم وراءه قد زين له أن يستغني حتى عن عمرو بن العاص ـ شريكه في الجريمة ـ وهو على ما هو عليه من طاقة كبيرة في المكر والشر لا يستغني عنها معاوية في أيام محنته وهو بمواجهة الإمام عليه السلام فقد (كان معاوية لا يلتفت إليه، فقال لعمرو ابناه: ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك فانصرف إلى غيره، فدخل عمرو على معاوية فقال له: والله لعجب لك إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني. أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة، إن في النفس ما فيها، حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا، فصالحه معاوية وعطف عليه)[1].

(وقد قال عمرو بن العاص لمعاوية: ولولا مصر وولايتها لركبت النجاة منها، فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده. فقال معاوية: مصر والله أعمتك ولولا مصر لألقيك بصيرا)[2].

(ولم يبايع حتى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمنا، فلا ظفرت يد البائع وخزيت أمانة المبتاع)[3].

لقد كانا يفهمان بعضهما جيداً، ويعلمان أنهما يجتمعان على باطل، وأمر دنيوي بحت لا علاقة له بالله والإسلام، لكن عظم ما سعيا إليه ـ وقد بدا عظيماً في أعينهما السعي للملك ـ جعلهما ينسيان كل قيم عليا، إن كانا قد عرفاها على الإطلاق.

---

(١) الطبري ٣-٧٠ وابن الأثير ٣-١٥٨.
(٢) مروج الذهب ص ٢٦.
(٣) نهج البلاغة ١٢١.

باع دينه، فخسر كل شيء

وكان معاوية يدرك أن عمراً إن تخلى عنه فإنه لن يظل محايداً، ولن يظل على رأيه في المطالبة بدم عثمان، وأنه إن آيس من أي مكسب دنيوي، فإنه سيثير الناس عليه ويحرِّضهم عليه ويفشل الأمر في النهاية. إنه لا بد سينقلب عليه، ويعلن للملأ خطأه وتوبته وأنه إنما كان يريد الدنيا مع معاوية، وسيجد حتماً من يستمع إليه، وهكذا وضع معاوية يده بيد عمرو واتفقا على العمل سوية وكتبا كتاباً بذلك، فقد روي عن أبي موسى الأشعري قال: أخبرني الحسن قال: علم معاوية والله إن لم يبايعه عمرو بن العاص لن يتم له أمر فقال له: يا عمرو اتبعني. قال: لماذا؟ للآخرة؟ فوالله ما معك آخرة، أم للدنيا؟ فوالله لا كان حتى أكون شريك فيها. قال: فأنت شريكي فيها. قال: فاكتب لي مصر وكورها. فكتب له مصر وكورها. وكتب في آخر الكتاب: وعلى عمرو السمع والطاعة. قال عمرو: واكتب، إن السمع والطاعة لا ينقصان من شرطه شيئاً. فقال معاوية: لا ينظر الناس إلى هذا. قال عمرو: حتى تكتب. قال: فكتب والله ما يجد بداً من كتابتها»[(١)].

ولو نظرنا إلى أسلوب التخاطب بينهما والمساومة، لرأينا تاجرين يحاولان أن يتفقا على السعر، السعر الذي وضعاه ثمناً لمصير الأمة كلها، ونرى في لهجتهما استهانة مطلقة بكل القيم التي جاء بها الإسلام، فكأنهما يتساومان على قطيع من الأغنام أو قطعة من الأرض..

وهكذا وضعا برنامجهما المشترك للعمل، وفتحا نفسيهما لبعضهما. لقد باع عمرو نفسه للشيطان، مع أنه شيطان مثله. وكان يدرك عظم ما يقوم به من فعل قبيح، لكنه رأى أن الثمن الباهظ كان يستأهل كل شيء، حتى السقوط النهائي في أحضان الشيطان. أي طاقة للشر في نفس هذا الرجل يوشك أن تنفلت فلا يريد معاوية التفريط بها ويرى أن مصر ثمن بسيط لها مع أنه أراد مماطلته إلى أقصى حد ممكن (ودخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية وهو يكلم عمراً في مصر، وعمرو يقول له: إنما أبايعك بها ديني! فقال عتبة: ائتمن الرجل بدينه، فإنه صاحب من أصحاب محمد ﷺ!)[(٢)].

(١) العقد الفريد ٥-٨٧.
(٢) المصدر السابق ٥-٨٧.

(إنه صاحب من أصحاب محمد ﷺ. أيعقل هذا.؟ كيف كان عمرو بن العاص من أصحاب محمد ﷺ؟ متى كان ذلك؟ هل كان قبل الهجرة أم بعدها بسنة؟ أم عام الفتح. . . وهل روي لنا أنه كان من صحابة الرسول ﷺ. اللهم إلا كما روى لنا عن معاوية أنه كاتب الوحي. أليس الرسول ﷺ هو القائل فيه وفي صاحبه معاوية، كما روى لنا عبادة بن الصامت وقد جلس بينهما مفرقاً، وقد فرحا بذلك ظناً منهما أنه يكرمهما كليهما بجلوسه بينهما، إلا أن عباده قطع عليهما فرحتهما وقال مخاطباً إياهما: (بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، إذ نظر إليكما تسيران وأنتما تتحدثان، فالتفت إلينا فقال: «إذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما، فإنهما لا يجتمعان على خير أبداً» وأنا أنهاكما عن اجتماعكما»[1].

لا يجتمعان إلا للشر

لا يجتمعان على خير أبداً، كان ذلك علم من الله علّمه رسوله ﷺ، ولعله ﷺ يدرك الشر المستطير الذي سيتمخض عنه أي لقاء لهذين الشيطانين على الأرض والويلات التي ستجر على أمته لقاء ذلك.

وهكذا اجتمعا اجتماعاً مصيرياً، وكان عمرو وزيراً لمعاوية وأميناً ومستشاراً، كان هو (رجل) الدولة الأموية بحق وأهم أعمدتها ومهندس سياستها كما يقال الآن.

ولو رأينا طاقة الشر المعتملة في نفسه، والتي تفتحت على الخصوص خلال معركة صفين لرأينا أن معاوية ربما كان يعد مصر حصة قليلة بحق عمرو ولما أبداه هذا من مكر لا يخطر حتى ببال الشيطان نفسه مما أمال كفة المعركة ورجحها لصالح معاوية في معظم مراحلها.

لقد خرج في معركة صفين بأفكار ومقترحات عجيبة جعلت معاوية نفسه يندهش لها ويكاد يقفز من الإعجاب ولعله هنأ نفسه على الصفقة التي عقدها معه، ورأى أنه الرابح الوحيد فيها، وأن مصر كانت ثمناً بخساً لابن النابغة.

ولنأخذ مقتطفات مما كتبه المؤرخون لنا عن السعي المشؤوم لعمرو لإمالة الكفة إلى جانبه وجانب معاوية، واستعداده الكبير لتجاهل الإسلام وقيمه ومبادئه وصفاقته أمام رجال المبادىء الذين أنكروا عليه سعيه ذاك وحذروه منه أمثال الإمام عليه السلام وعمار وغيرهما.

(١) نفس المصدر ٥-٨٨.

شريك في السلطة.. شريك في المكائد

فعندما أزمع الإمام عليه السلام على مباشرة الحرب بنفسه وجهز الناس، أصبح معاوية في حيرة من أمره (فدعا عمرو بن العاص فاستشاره. فقال: أما إذا بلغك أنه يسير، فسر بنفسك، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك. قال: أما إذاً يا أبا عبدالله فجهز الناس)[1] ويتبين لنا هنا كما سيتبين لنا بصورة أوضح أن عمرو بن العاص لم يكن مجرد مستشار لمعاوية، بل كان شريكاً فعلياً في كل أعماله، كما يتضح لنا أنه في بعض مراحل الصراع بين معاوية والإمام عليه السلام حاول عمرو الايقاع بمعاوية نفسه ليخلو له الجو كما أدرك ذلك معاوية نفسه، لذلك فإن تصرفاتهما تجاه بعضهما كانت تتسم بالحذر الشديد الذي غالباً ما ينشأ بين شريكين غير أمينين.

وقد قام عمرو (بواجبه) بهمة عالية رغم عمره الذي أوشك أن يشارف على الثمانين، ومن ذلك ندرك طمعه الشديد بما قد يغدقه عليه معاوية من عطايا وهبات، فشمر عن ثيابه وأقبل على مهمته بجد منقطع النظير (فجاء عمرو فحضض الناس، وضعَّف علياً وأصحابه)[2] (وكتب [معاوية] في أجناد أهل الشام، وعقد لواءه لعمرو، فعقد لوردان غلامه فيمن عقد، ولابنيه عبد الله ومحمد)[3].

فلا عجب أن نسمع من عمرو، وهو يشارك في هذه الحملة الظالمة ضد الإمام عليه السلام افتراءات وأكاذيب يرددها مدعياً أن رسول الله صلى الله عليه وآله قالها، غير أن لا عجب أن تروح مجاميع من المسلمين المضللين بنقل رواياته الكاذبة على أنها أحاديث صحيحة لتتلقفها منهم أجيال مضللة أخرى مبهورة برجال الحديث هؤلاء أمثال البخاري ومسلم.. فقد (أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما مسنداً متصلًا بعمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين)[4].

فماذا نتوقع من شخص يشهر سيفه على الإمام عليه السلام ولو أتيحت له فرصة قتله لقتله؟ هل يؤيد ما ورد في حقه من أحاديث صحيحة موثوقة؟ أم يضع مقابلها مفتريات وأكاذيب ومزاعم وادعاءات باطلة؟ إن هذا ما فعله عمرو بن العاص بالضبط، حتى أنه راح يتهم الإمام عليه السلام اتهامات لا تليق أن تلقى حتى على أبعد صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) - (٣) الطبري ٣-٧١ وابن الأثير ٣-١٦٣.

(٤) شجرة طوبى - ص ٨٤.

فكيف بأخيه ونفسه ووصيه ومن عرفه الناس كلهم، ولم يدر بخلدهم أن يتمادوا إلى الحد الذي تمادى فيه ابن النابغة. وكانت من المضحكات المبكيات، حتى أن الإمام عليه السلام رد عليه مستنكراً أن يبلغ أحد في تفكيره الشيطاني إلى الحد الذي ذهب إليه هذا الشيطان وقد وصفه وصفاً بليغاً في معرض هذا الرد الذي كان يقطر مرارة وألماً (عجباً لابن النابغة! يزعُمُ لأهل الشام أنَّ فيَّ دعابة، وأني امرؤٌ تِلعابه، أعافس وأمارس! لقد قال باطلًا، ونطق اثماً. أما ـ وشر القول الكذب ـ إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويُسأل فيبخَل ويسأَلُ فيلحف، ويخونُ العهد، ويقطع الإلَّ، فإذا كان عند الحرب فأيُّ زاجرٍ وآمر هو! ما لم تأخذ السيوفُ مآخذها، فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القرمَ سبَّته، أما والله إني ليمنعني من اللعب ذكر الموت، وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة، إنه لم يبايع معاوية حتى شرطَ أن يؤتيه أَتيَّه، ويرضخُ له على ترك الدين رضيخه)[1].

ولربما يدعي مدع أن أقوال الإمام عليه السلام بحقه وحق معاوية قد لا يجوز الأخذ بها هنا، لأنه خصم، والخصم قد لا يتورع عن القول في (خصمه) أو (منافسه) أي شيء، وربما خرج في أقواله عن جادة الحق والصواب، إن هذا يصح على معاوية وعمرو بلا شك أما بالنسبة للإمام فما عرف أن أحداً نسب إليه أقوالًا وتصريحات باطلة حتى في حق أشد مناوئيه وأعدائه، وعلى الذي يتصدى لدراسته ودراسة هذين الشخصين العجيبين أن يعرف مجمل توجهاتهم ومدى صلتهم بالإسلام.

فهل عرف أحد لمعاوية أو عمرو مزية تجعله من رجال العقيدة وأنه يمكن أن يكون صحابياً لرسول الله صلى الله عليه وآله أم أن كل مؤهلاتهما أنصبت على مجالات المكر والخديعة والدهاء؟ وهل لمس أحد في تصرفاتهما انهما كانا يذكران الله ويجعلانه نصب أعينهما؟ هذا ما لا يمكن لأحد أن يدعيه، حتى أولئك الذين عاشوا في ظلهما ونالوا من عطاياهما وأنعامهما. !.

بين موقف وموقف

لقد أراد معاوية أن يمنع الإمام عليه السلام وجنده الماء في صفين عندما وصل قبله إلى نهركان هناك، وقد حاول عمرو أن يعزز من القوة التي وصفها معاوية، وخرج بنفسه

(١) نهج البلاغة ص ١١٥.

لهذا الغرض، إلا أن الخطة فشلت وأزاح أتباع الإمام جند معاوية عن الماء، إلا أنهم سمحوا لهم بإيعاز من الإمام عليه السلام بالتزود منه، وهو أمر يفصح أشد الإفصاح عنه عليه السلام وعنهم، ويبين اختلافهم واختلاف نفسياتهم وأخلاقهم وقوة المبادىء لديهم.

ومع ذلك فقد كان عمرو من الفطنة ما جعله منذ البداية يشير على معاوية أن لا يمنع اتباع الإمام عليه السلام الماء. وقال له: (خلّ بينهم وبين الماء، فإن القوم لن يعطشوا وأنت ريّان؛ ولكن بغير الماء، فانظر ما بينك وبينهم)[1] إلا أن معاوية لم يأخذ برأيه، وقد تبين له فيما بعد صواب رأيه عندما أزاح جند الإمام جنده، وعزموا على منعهم منه إلا أن الإمام عليه السلام أمرهم (أن خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسكركم، وخلوا عنهم! فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم)[2].

وكما أوضحنا فإن عمرو بن العاص قد شارك مشاركة فعلية في الحرب التي أعلنها معاوية ضد الإمام عليه السلام، فقد كان (على خيول أهل الشام كلها.)[3] وعندما خرج عمار بن ياسر (خرج إليه عمرو بن العاص، فاقتتل الناس كأشد القتال، وأخذ عمار يقول: يا أهل العراق، أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما، وبغى على المسلمين، وظاهر المشركين، فلما رأى الله عز وجل يعز دينه ويظهر رسوله، أتى النبي صلى الله عليه وآله فأسلم، وهو فيما نرى راهب غير راغب، ثم قبض الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله! فوالله إن زال بعده معروفاً بعداوة المسلم، وهوادة المجرم، فأثبتوا له وقاتلوه، فإنه يطفىء نور الله، ويظاهر أعداء الله عز وجل)[4].

الغدر، حتى ولو بالحليف، هو القاعدة

وفي مرحلة من مراحل القتال، عرض الإمام عليه السلام أن يتقاتل هو ومعاوية لحسم النزاع، وقال: (علام يقتل الناس بيننا! هلّم أحاكمك إلى الله، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور، فقال له عمرو: أنصفك الرجل، فقال معاوية: ما أنصف، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله، قال له عمرو: ما يجمل بك إلا مبارزته، فقال معاوية: طمعت بها بعدي)[5] وهكذا نرى أن هناك منافسة خفية بين الشريكين على

(١) - (٣) الطبري ٣-٧٦-٨٢ وابن الأثير ١٦٧ وما بعدها.

(٤) نفس المصدر ص ٨٣ وابن الأثير ١٦٧ وما بعدها.

(٥) نفس المصدر ص٩٤.

المنصب الخطير الذي كاد أن يكون قريب المنال. ولم يجمع بينهما حب في الله كما قد يتوهم بعض المخدوعين، ولم تجمع بينهما قضية مقدسة من أجل الإسلام ومبادئه.

الفئة الباغية

ويبدو أن الكتيبة التي قادها عمرو هي التي قتلت عمار بن ياسر، وذلك مما راع عمراً لأنه كان يعلم منزلة عمار من رسول الله ﷺ وقوله فيه: تقتله الفئة الباغية، مما هو شائع ومعروف عند الجميع، وقد فزع عمرو من ذلك أشد الفزع إلا أن معاوية طمأنه وهدأه بالتفاتة ماكرة من التفاتاته العجيبة.

فقد خرج عمار بن ياسر في صفين مواجهاً كتيبة عمرو قائلًا: (اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم ابن عفان، ويزعمون أنه قتل مظلوماً، والله ما طلبتهُم بدمه، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبّوها واستمرؤوها وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم، فخدعوا أتباعهم ان قالوا: إمامنا قتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً، وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون، ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان..)[1]. ونرى في قول عمار وصفاً دقيقاً لحالهم، فقد كان من الاطلاع على أوضاعهم ومن رهافة الحس أن راح يشخص لنا حالهم ومواقفهم الماكرة، وقد وجه خطابه إلى عمرو قائلاً: (يا عمرو بعت دينك بمصر، تبّاً لك تبّاً! طالما بغيت في الإسلام عوجا)[2] وقال: (لقد قاتلت صاحب هذه الراية [عمرو] ثلاثاً مع رسول الله ﷺ، وهذه الرابعة ما هي بأبر ولا أتقى)[3].

لقد راع عمراً أنه ساهم بقتل عمار وأنه في المعسكر المعادي له وحز في نفسه قول عبد الله ابنه له: (يا أبت، قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا، وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال!)[4] وقد تجاهل عمرو قول رسول الله ﷺ في عمار وتناساه وسأل

(١) الطبري ٣-٩٨-٩٩ وابن الأثير ١٧٦ وما بعدها و ١٨٦ وما بعدها
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر

ابنه: ما قال رسول الله ﷺ. قال: (لم تكن معنا ونحن نبني المسجد، والناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة، وعمار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين فغشي عليه، فأتاه رسول الله ﷺ فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول «ويحك يا بن سمية! الناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة وأنت تنقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين رغبة منك في الأجر! وأنت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية!» فدفع عمرو صدر فرسه، ثم جذب معاوية إليه، فقال: يا معاوية، أما تسمع ما يقول عبد الله! قال: وما يقول؟ فأخبره الخبر، فقال معاوية: إنك شيخ أخرق، ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض في بولك! أونحن قتلنا عماراً! إنما قتل عماراً من جاء به. فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم يقولون: إنما قتل عماراً من جاء به، فلا أدري من كان أعجب؟ هو أو هم)[1].

ونحن نعجب بدورنا من هذا المكر الذي لا يخطر حتى ببال الشيطان نفسه، غير أن عجبنا يزول إذا ما علمنا أن هؤلاء أناس توجهوا بشكل تام إلى الدنيا ومفاتنها ومغرياتها، ولم يكن أمامهم سوى الدجل والكذب والمكيدة والمكر، ولولا ذلك ما تبعهم رجلان على حد تعبير عمار رضوان الله عليه.

حيلة رفع المصاحف.. تفتق عنها مكر ابن النابغة

على أن ما أشعل الفتنة حقاً وكان سبباً لانشقاق أتباع الإمام عليه السلام وتفرقهم وظهور الخوارج، وما أدى إلى قتل الإمام نفسه في النهاية هي قصة رفع المصاحف بالرماح من قبل أهل الشام، ذلك الأمر الذي تفتق عنه مكر ابن النابغة، وذلك عندما مالت كفة القتال وأوشك معاوية أن ينهزم بما تبقى له من جند، وأوشك عمرو نفسه أن يقع بيد جند الإمام عليه السلام (فلما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد، وخاف في ذلك الهلاك، قال لمعاوية: هل لك في أمرٍ أعرضه عليك، لا يزيدنا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال: نعم؛ قال: نرفع المصاحف ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: بلى، ينبغي أن تقبل، فتكون فرقة تقع بينهم وإن قالوا: بلى، نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل وإلى حين)[2]. ويبدو أن عمراً استند في توقعاته خلاف أهل العراق

---

(١) نفس المصدر.

(٢) المصدر السابق ١٠١ وابن الأثير ١٩٢-١٩٣.

إلى ما سبق أن عرفه عن الكثيرين منهم من ميل إلى الخلاف والمعارضة وإلى الطابور المدسوس في جيش الإمام والذي سبق أن ساوم معاوية وأبدى استعداده لنصرته في اللحظات الحاسمة أمثال الأشعث بن قيس الذي أبدى ترحيباً فائق النظير بهذا الاقتراح وتبناه كأنه الحل الوحيد للمسألة كلها، كما أن جماعة مضللة أخرى كانت تأخذ بظاهر الأقوال القرآنية أبت أن تستجيب لتحذير الإمام عليه السلام بأن مسألة رفع المصاحف خدعة ينبغي أن لا تنطلي عليهم وكان في مقدمة هؤلاء مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي في عصابة معهما من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك. ويبدو أن الذين قبلوا رفع المصاحف كانوا أغلبية في جيش الإمام عليه السلام وأنهم اضطروه إلى ذلك رغم عدم قناعته التامة بذلك ومعرفته بخصومه الذين لم يعيروا في أي وقت من حياتهم أي أهمية لكتاب الله وللإسلام برمته، وقد صرخ فيهم محذراً إياهم من هذه اللعبة الخبيثة: (عباد الله، أمضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم. قد صحبتهم أطفالًا، وصحبتهم رجالًا، فكانوا شر أطفال وشر رجال، ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة)[1].

الحيل لا تنطلي إلا على الأغبياء

فلم يزدهم بيانه إلا إصراراً على قبول رفع المصاحف وطلبوا إليه أن يبعث إلى الأشتر الذي كان على وشك إحراز نصر حاسم في المعركة، وهددوه بشق وحدة الجيش والخروج عليه ويبدو أنهم كانوا أغلبية كما ذكرنا، وقد استجاب الإمام عليه السلام مضطراً لطلبهم غير أنه استمر يذكرهم بموقفه ورفضه لذلك قال: (فاحفظوا عني نهيي إياكم، واحفظوا مقالتكم لي، أما أنا فإن تطيعوني تقاتلوا وإن تعصوني فاصغوا ما بدا لكم! قالوا له: إمّا لا فابعث إلى الأشتر فليأتك)[2]. وقد تلكأ الأشتر بالاستجابة لذلك، عالماً برهافة حسه ومعرفته بالإمام عليه السلام أنه لم يكن ليقبل بذلك وأنه ربما كان مجبراً على الاستجابة له، وقد آلمه أن يتخلى عن موقفه وقد أوشك أن يصل إلى معاوية نفسه وقد صرخ بمن جاء يدعوه إلى التراجع: (أما والله لقد ظننت حين رفعت

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر ص ١٠١-١٠٢ وابن ائلأثير ١٩٣.

أنها ستوقع اختلافاً وفرقة، إنها مشورة ابن العاهرة، ألا ترى ما صنع الله لنا! أينبغي أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم؟)[١].

وقد وقف الأشتر موقفاً شديداً من هؤلاء الداعين إلى قبول رفع المصاحف إلا أنه لم يستطع ثنيهم عن قرارهم وقد زادهم اصراراً سعي بعض المساومين والمتخاذلين من أصحاب الإمام عليه السلام أو من الذين عدوا من أصحابه أمثال الأشعث بن قيس الذي كان يبدو فرحاً بهذا القرار.

والذي زاد الطين بلة أن هؤلاء المستجيبين لاقتراح أهل الشام الذين اختاروا عمرو بن العاص صاحب الاقتراح نفسه ليمثلهم في لجنة التحكيم، أبوا إلا أن يرسلوا أبا موسى الأشعري رغم معارضة الإمام عليه السلام ذلك وقوله لهم: (فإنكم قد عصيتموني في أول الأمر، فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن أولي أبا موسى. فإنه ليس لي بثقة، قد فارقني وخذّل الناس عني ثم هرب مني حتى آمنته بعد أشهر)[٢] ثم عرض أن يولي ابن عباس أو الأشتر، إلا أن الأشعث وجماعته رفضوا ذلك.

فكانا طرفا التحكيم عمرو بن العاص الذي يميل كل الميل إلى معاوية لأن مصالحهما واحدة وفشل معاوية يعني فشل عمرو نفسه، وأبو موسى (عبدالله بن قيس) الذي لم يكن يميل إلى الإمام وقد خذل الناس عنه وهرب منه حتى أمنه الإمام.

وخلال مهزلة التحكيم حول عمرو الدعوة إلى ابنه عبدالله كما حاول الأشعري أن يدعو إلى صهره عبد الله بن عمر (زوج ابنته) أي أنهما خانا من جاء للتحكيم باسمه، (قال أبو موسى: أما والله لئن استطعت لأحيِّين اسم عمر بن الخطاب (رض). فقال له عمرو: إن كنت تحت بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه! فقال: إن ابنك رجل صدق، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة)[٣].

نفس أمير المؤمنين تفيض أسى وحزناً حتى على أعدائه

وحتى مع رجال أمثال معاوية وعمرو، لم يترك الإمام عليه السلام النصح والإرشاد والدعوة إلى طريق الحق والتوبة والتراجع عن الباطل، ولعل نفسه كانت تفيض أسىً على أولئك الضالين المنحرفين، ولعله كان يتمنى أن ينتهجوا طريقه، لا لأنه طريقه

---

(١) و(٢) المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر ١١٢ وابن الأثير ٢٠٥ وما بعدها.

هو خاصة، بل لأنه طريق الإسلام الذي اختطه محمد ﷺ، فقد حدث شريح بن هانىء أن الإمام عليه السلام أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العاص، (قال: قل له إذا أنت لقيته: أن علياً يقول لك: إن أفضل الناس عند الله عز وجل من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه وكرثه، من الباطل وإن حنَّ إليه وزاده، يا عمرو، والله إنك لتعلم أين موضع الحق، فلم تجاهل؟ إن أوتيت طمعاً يسيراً كنت به لله وأوليائه عدواً، فكأن والله ما أوتيت قد زال عنك، ويحك! فلا تكن للخائنين خصيماً، ولا للظالمين ظهيراً. أما أني أعلم بيومك الذي أنت فيه نادم، وهو يوم وفاتك، تمنّى أنك لم تظهر لمسلم عداوة، ولم تأخذ على حكم رشوة. قال: فبلغته ذلك، فتمعن وجهه، ثم قال: متى كنت أقبل مشورة علي أو أنتهي إلى أمره أو أعتد برأيه! فقلت له: وما يمنعك يابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيّد المسلمين بعد نبيّهم مشورته! فقد كان من هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه، ويعملان برأيه، فقال: إن مثلي لا يكلم مثلك، فقلت له: وبأي أبويك ترغب عني! بأبيك الوشيط أم بأمك النابغة!)[1].

ولم يكن محتملًا من عمرو أن يتقبل كلام الإمام ونصيحته وهو من أعماه حب الدنيا وسار وراء أطماعه إلى آخر الشوط، وكان ما كان من نتيجة التحكيم (المهزلة) وكان الإمام عليه السلام يعلم من هما الحكمان. ولكن ما كان بوسعه أن يفعل مع مهادنين خونة وجهلة وطامعين ومتخاذلين، وقد قال فيما بعد حاثاً الناس على المسير ثانية إلى الشام بعد أن شهدوا بأعينهم النتيجة المخجلة المفزعة للتحكيم: (كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي الحكومة أمري، ونحلتكم رأيي، لو كان لوصيتي أمر! ولكن أبيتم إلا ما أردتم، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغدِ

إلا أن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحييا ما أمات القرآن، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله، فحكما بغير حجة بيّنة، ولا سنة ماضية، واختلفا في حكمهما، وكلاهما لم يرشد، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين)[2].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) نفس المصدر ص ١١٦ وابن الأثير ٢١٦.

ملك مصر سنتين.. مات بعدهما حتف أنفه

وبعد صفين اتجه الشريكان لتحقيق حلمهما، سلب مصر وضمها (للدولة الأموية) المنفصلة عن الدولة الإسلامية الكبرى بقيادة الإمام عليه السلام، وتخويل عمراً التصرف بها، كما اتفقا منذ البداية. وقد دعا معاوية كبار أصحابه ومنهم عمرو بن العاص نفسه، (فقال لهم: أتدرون لم دعوتكم؟ إني قد دعوتكم لأمر مهم أحب أن يكون الله قد أعان عليه، فقال القوم كلهم ـ أو من قال منهم: إن الله لم يطلع على الغيب أحداً، وما يدرينا ما تريد! فقال عمرو بن العاص: أرى والله أمر هذه البلاد الكثير خراجها، والكثير عددها وعدد أهلها، أهمك أمرها، فدعوتنا إذاً لتسألنا عن رأينا في ذلك، فإن كنت لذلك دعوتنا، وله جمعتنا فاعزم واقدم، ونعم الرأي رأيت، ففي افتتاحها عزك وعز أصحابك، وكبت عدوك، وذل أهل الخلاف عليك. قال له معاوية مجيباً: أهمك يا ابن العاص ما أهمك ـ وذلك لأن عمرو بن العاص كان صالح معاوية حين بايعه على قتال علي بن أبي طالب، على أن له مصر طعمة ما بقي ـ فأقبل معاوية على أصحابه فقال: إن هذا ـ يعني عمراً ـ قد ظن ثم حقق ظنه، قالوا له: لكنا لا ندري؛ قال معاوية فإن أبا عبدالله قد أصاب، قال عمرو: وأنا أبو عبدالله! قال: إن أفضل الظنون ما أشبه اليقين)[1].

وقد جهز معاوية عمراً لمحاربة محمد بن أبي بكر والي الإمام على مصر، وقد قتل محمد ومثل بجثته بشكل شنيع، ألقاه قائد عمرو في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار. وكان من أمر معاوية بعد ذلك أن بعث بحملات إرهابية في أطراف الدولة الإسلامية المتبقية تحت حكم الإمام كما سبق وأوضحنا في هذا الفصل.

فقد استقر عمرو في مصر والياً وحاكماً ومالكاً سنة أربعين للهجرة أي قبيل اغتيال الإمام عليه السلام على يد الخارجي ابن ملجم. وصفا له الجو وجمع ما جمع من أموال إلى أن توفي عام ثلاث وأربعين أي بعد ثلاث سنين من مقتل الإمام ولم يمكث والياً عليها لمعاوية إلا أقل من سنتين فقط، فهل كانت تستحقه هاتان السنتان وما ناله فيهما من (مكاسب)، أن يفقد عمرو حياته الباقية! وهل أفلحت تجارته مع شيطانه معاوية؟ أم كانت صفقة خاسرة أمضاها عجوز طماع مع آخر لا يقل عنه طمعاً وخبثاً. ثم جنا جناها في يوم شديد الحساب إذ أخذ على عاتقيهما مهمة حرف الأمة عن

(١) نفس المصدر ص ١٢٨ وابن الأثير ٢٢٨.

الإسلام وتشويهه إلى الأبد، وإلى أن يتسنى للأمة من ينبهها من الضلال الأموي المقيت، ويعيد للإسلام صفاءه وأصالته، وهي بالتأكيد مهمة لا يقدر عليها إلا آل البيت عليهم السلام ومن سار على منهجهم، منهج رسول الله صلى الله عليه وآله.

لم يرتدع رغم نصائح الإمام

كان الإمام عليه السلام يعلم مدى استعداده للشر، ويعرف مدى الدمار الذي سيلحق بالمسلمين إذا ما اتّحدت قوة الشر عنده مع أختها عند معاوية، وكان يدرك ضرورة فصل هاتين القوتين عن بعضهما، كما علمه رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ أنهما لا تجتمعان على خير أبداً كما صرح صلى الله عليه وآله.

ولقد حذره كثيراً من معاوية وشروره، بنفس القوة التي اتجه فيها إلى معاوية يحذره شرور نفسه وسيئات أعماله، وقد شخص الإمام بدقة حال عمرو مع معاوية، وكشف أمامه نفسه الملتوية المجبولة على الشر والخديعة، وقام يلقي عليه الحجة بعد الحجة، إذ ربما يعمد إلى التذرع بما يعمد إليه البسطاء والمغفلون، وكشف أمامه نفسه لأنه ربما حسب نفسه بمنجاة من مراقبة الآخرين وأن سلوكه ربما تخفى دوافعه عليهم. وربما تذرع ـ كما قلنا ـ بما يتذرع به البسطاء، وهو ليس بسيطاً، وليس بالذي لا يدرك ما يقوم به.

وكانت حجج الإمام عليه السلام بالغة قوية مؤثرة في كل خطاباته ورسائله إليه وقد رأينا نموذجاً منها، وهذا نموذج آخر: (فإنك جعلت دينك تبعاً لدين امرئ ظاهر غيّه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره وطلبت فضله، اتباع الكلب للضرغام، يلوذ إلى مخالبه وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته، فأذهبت دنياك وآخرتك. ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت، فإن يمكنني الله منك ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدمتماه وإن تعجزا أو تبقيا فما أمامكما شر لكما»[1].

لقد أراد الإمام أن يردع عمراً ويثنيه عن طريقه الأعوج ويريه أنه خاسر، لا في الآخرة وحسب ـ والتي لم يكن عمرو يحسب حسابها بأي حال من الأحوال، وإنما

(١) نهج البلاغة ٥٨٠.

في هذه الدنيا، التي أصبحت على وشك الانتهاء وقد شارف عمرو على الثمانين، وأي لذات ومباهج لابن الثمانين، غير مباهج الإسلام ولذات التهيؤ للقاء الله لو كان يعقل ابن العاص، وهو الذي يحسب نفسه أعقل البشر وأكثرهم دهاءً وفهماً.

«قال رب ارجعون، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت»

إن دنياه ستظل مجرد سعي مستمر لجوج وطمع دائم، يشقى به، ولا يرى نفسه إلا فقيراً محتاجاً مهما حصل عليه وناله ومهما امتلأ كيسه من الذهب. وقد أدرك عمرو ذلك ووعى الدرس والنصيحة، ولكن في اللحظة الأخيرة التي زاره فيها ملك الموت وخفق فوقه بجناحيه. وحين لم يعد الدرس والنصيحة تجديان. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[2].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[4].

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[5].

---

(١) المؤمنون ٩٩-١٠٠.

(٢) الأنعام ٢٧-٢٨.

(٣) السجدة ١٢-١٤.

(٤) الفرقان ١٣-١٤.

(٥) الفرقان ٢٦-٢٩.

(أي ندم وحسرة يجيشان في نفس هذا الظالم الذي يرى أمامه من أضلّه في النار ويرى إبليس وكل متشيطن منحرف موسوس معه. ويرى الرسول والذين آمنوا في الجنة، خالدين فيها، منعَّمين في مستقرهم المريح هنا. إن أسفه وأساه على ما فاته ليعادل عذابه في الجحيم. وأنه ليصب جام غضبه على من أضله وكان سبباً لمجيئه إلى هذا المكان المفزع. كيف صدق به وكيف أطاعه؟ لأنه وعده بأنه سيحمل خطاياه مسؤولياته أمام رب العالمين؟ ولعله لم يعده حتى بهذا)[1].

مات عمر وبقي شرّه

ولقد صح قول الإمام عليه السلام . . . ندم عمرو، ولكن عند موته وقبيل خروج روحه كان الدرس بليغاً لابن النابغة هذا، وكانت الموعظة جادة ومؤثرة، إلا أن عمرو لم يفهمها إلا في النهاية، وحين لم يعد يجديه الفهم، وكان عند مماته واعظاً لمن أتى بعده وأراد أن يسير سيرته، غير أن الطغاة والظالمين لا يتعظون بغيرهم، وغالباً ما يشكل سلوكهم مصائب عليهم وعلى الآخرين، وكان عمرو نفسه مصيبة أحاقت بالمسلمين وعملت على تأخرهم بعد أن تنحى بهم منحى جاهلياً يكرس لحكم الطواغيت والفراعنة المتسترين بلباس الإسلام. وقد كان هو أول أعوان الفرعون الأموي الأول حينما أراد أن يمهد الأمر لحكمه وحكم سلالته بكل الطرق المتاحة، سواء تلك التي أقرها الإسلام أو التي لم يقرها.

ولن نقول: إنه ليس أمراً مستغرباً أن يفعل عمرو ما فعل لأنه ابن نابغة معروفة. إذ ما ذنبه في ذلك، غير أن قذاراته التي أزكمت روائحها النتنة أنوف الناس إلى يومنا هذا وطريق الشر المظلمة التي انتهجها على الدوام جعلهم لا يتذكرون حسنة له، فكأنه هو الذي أثار الناس على نفسه وحرضهم عليها.

مات عمرو، وظلت نتائج أفعال عمرو، خراباً ودماراً لف المسلمين إلى يومنا هذا، فكأنه سعى بسنتين من حكم مصر ليضيع على الإسلام فرصة حكم البشرية حكماً عادلًا لا سلطان فيه لطاغوت أو فرعون.

(١) الحوار في القرآن الكريم المؤلف/ مخطوط ص ٢١٦.

زياد ابن أبيه (بن أبي سفيان)! بين بُعد الطموح، ودناءة الأصل

أصل دنيء وأخوة في الزنى

يمثل زياد بن أبيه (عبقرية الشر) الثانية بعد أخيه عمرو، ولا يكاد يتفوق عليهما في ذلك، إلا أخوهما معاوية[١] نفسه.

فهذه الشخصية كان لديها الاستعداد الكامل للانحراف، وربما كان استعداداً موروثاً آخر، فهو ابن (نابغة) أيضاً كصاحبه عمرو، ولعل (سهنة) أمه سمية التي كانت كانت من ذوات الرايات بالطائف تشكل أكبر عقدة نقص في حياته، حتى عندما قربه الإمام عليه السلام وعهد إليه ببعض المهام، عندما رأى قدراته الجيدة المبشرة بمستقبل جيد. فلم يكن يستطيع أن ينسئ هذه الوهدة التي مرغته بها أمه برغمه، ولم يستطع أن يصمد أمام اغراء معاوية لإلحاقه بأبي سفيان في أغرب عملية رشوة حدثت على مر التاريخ.

فعندما خرج معاوية على الإمام عليه السلام بحجة المطالبة بدم عثمان، وحشد جيوش أهل الشام وبعض الخارجين ممن استمالهم معاوية بمختلف الأسباب والذرائع والذين لجأوا إليه بحكم أنه (ممثل) المعارضة المعلنة المسلحة المتصدية للدولة الإسلامية بقيادة الإمام، وكانوا يستطيعون عن طريقة تنفيذ رغباتهم وأطماعهم والاعلان عن مواقفهم المناوئة للإمام عليه السلام والإسلام على حد سواء، وعندما خرج معاوية حاول أن يستميل العديدين حتى من بين أتباع الإمام نفسه وعماله محاولًا النفاذ إليهم من خلال استثمار نقاط الضعف الموجودة لديهم. وكانت المساومات التي

---

(١) من المعلوم أن معاوية ادعى زياداً لأبي سفيان، كما أن أبا سفيان نفسه كان أحد الخمسة الذين ادعوا (عمرو)، غير أن (النابغة) أمه نسبته إلى العاص، لما ان يحبوها به من أعطيات وهدايا، فانظر إلى هذه الفارقة التاريخية الغريبة، واجتماع هؤلاء (الاخوة) إلى باطلهم فى أكبر عملية تزوير وتشويه للإسلام تمت عبر كل تاريخه.

أجراها مساومات علنية مكشوفة أحياناً ومتسترة أحياناً أخرى، فهي صفقات (تجارية) في عالم (السياسة)، لها مردود (ينفع) الطرفين المتعاملين كليهما، وكانت الرشوة على قدر المرتشي وأطماعه ومطامحه.

الخائن

ومنذ البداية، لم يكن زياد يمتلك الحصانة اللازمة للصمود أمام اغراء امتيازات المنصب الذي شغله (خليفة) لعامل أمير المؤمنين عليه السلام، عبدالله بن العباس على البصرة وفارس وأعمالها، فكان يمد يديه ويستأثر ببعض أموال المسلمين، وكان يبلغ الإمام عليه السلام بعض تصرفاته، وقد حذره عليه السلام تحذيراً هيناً ليناً في البداية، وأوصاه أن (استعمل العدل، واحذر العسف والحيف، فإن العسف يعود بالجلاء والحيف يدعو إلى السيف)[1] ثم حذره تحذيراً شديداً وقرعه، عندما أوشكت الأخبار الواردة بشأنه أن تتحقق، وعندها شعر زياد بالخوف الشد من الإمام، وأنه لا أمل له بأي (مكسب) إضافي من وراثة أو بسرقة تتم من وراء ظهره، ولم تكن سيرة الإمام عليه السلام وأخلاقه تغيب عن زياد، وما جدوى أن يكون عاملًا له وهو كأحد الناس لا يتميز عليهم بمال أو ثروة إضافية، وقد استشعر الخطر الماثل أمامه إذا ما تجرأ وخرج على أصول التعامل والحكم التي أوضحها الإمام ورسمها لعماله وأصحابه.

لقد كتب إليه الإمام ثانية، ولعله كتب إليه قبل ذلك (وإني أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً، لأشدنَّ عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر، ضئيل الأمر)[2].

وإذا ما ظهر على الجانب الآخر من المعركة من يلوح له بما يرى أنه لا يمكن الحصول عليه ما دام مع الإمام عليه السلام، وهو الأموال الطائلة والصلاحيات المطلقة بأموال الناس ومقدراتهم، ويلوح له بأمر آخر لم يزل في نفسه، فإن آخر حصونه قد تهاوت أمام الاغراءات العديدة التي قدمها له (أخوه) معاوية بكل سخاء.

وقد أراد الإمام عليه السلام منذ البداية، ومنذ أن رأى معاوية يلوح بنسبه (السامي) لزياد ويعرض عليه أن يلحقه به، أن يحذر زياد من الوقوع في هذه المكيدة التي

---

(١) نهج البلاغة ٧٦٥.

(٢) المصدر السابق ٥٣٦.

سجلت عليه العار إلى الأبد وتجعله مضغة لا في أفواه معاصريه وحسب، بل في أفواه جميع من سيأتون بعد ذلك، فقد كتب إليه عليه السلام: (إني وليتك ما وليتك، وأنا أراك له أهلًا، وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس لا توجب له ميراثاً ولا تحل له نسباً، وأن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذره ثم احذره)[1]. وربما انتظر زياد الفرصة المناسبة للالتحاق بمعاوية، وقد واتته هذه الفرصة أخيراً بعد اغتيال الإمام وصلح الحسن عليه السلام. ولم يكن بالمرء الذي يستهين به معاوية، فقد كان (عاملًا لعلي بن أبي طالب على فارس، فلما مات علي عليه السلام وبايع الحسن معاوية عام الجماعة، بقي زياد بفارس، وقد ملكها وضبط قلاعها، فاغتم به معاوية)[2].

الولد للفراش وللعاهر الحجر.. قانون إسلامي مجمّد

وهكذا تم الاتفاق والتمهيد لسقوط آخر، لا يقل عن سقوط (سمية) نفسها ومهد معاوية للأمر، وأحضر شهوداً قالوا إن أبا سفيان قال إن زياداً كان ابنه، وقد عززت الشهادات بشهادة أبي مريم السلولي الذي أعلن في مجلس عام أنه جمع بين أبي سفيان وسمية أم زياد على زنا، وهل شهادة أبلغ من شهادة أبي مريم في هذا المجال..؟! (وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف، تؤدي الضريبة إلى الحارث بن كلدة، وكانت تنزل بالموضع الذي تنزل فيه البغايا بالطائف خارجاً عن الحضر في محلة يقال لها حارة البغايا)[3].

وتروي كتب التاريخ القصة وتتوسع فيها ويتندر المؤرخون المسلمون ويعجبون، ويرون في عمل معاوية وزياد خروجاً صريحاً عن الإسلام، فقد (كان استلحاقه أول ما ردت به أحكام الشريعة علانية، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضى بالولد للفراش وللعاهر الحجر)[4].

---

(١) ابن الأثير ٣-٣٠١.
(٢) العقد الفريد ٥-٢٤٩.
(٣) مروج الذهب ٧.
(٤) ابن الأثير ٣-٣٠١.

ومن المعلوم أن معاوية قد استلحق زياداً (وشهد له الشهود بذلك، وهذا خلاف حكم رسول الله ﷺ في قوله «الولد للفراش وللعاهر الحجر)[1].

وقد روي عن الحسن البصري (أنه كان ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله علياً، وقتله حجر بن عدي، واستلحاقه زياد بن أبيه، ومبايعته ليزيد ابنه)[2].

لقد كانت الأشياء الأربعة التي نقمها الحسن البصري تمثل قمة الخروج السافر والانحراف عن الإسلام، ولم تكن الأمور الوحيدة التي فعلها معاوية في حياته، التي كانت سلسلة من الخروج المتعمد عن الإسلام، ولم تكن من الأمور، التي يمكن السكوت عنها بأي حال من الأحوال، ومع ذلك يأتي من يقول إِنَّ معاوية تأول فاخطأ، وكأن الأمور التي أقدم عليها كانت (اجتهاداً) في مسألة بسيطة تتعلق بأمور (مستحبة) أو مكروهة، وأن خطأه لم ينتج عنه تحطيم الأمة ودمارها وفقدانها عزّتها كأمة إسلامية إلى يومنا هذا، وأن معاوية لم يخطط (لخطئه) ولم يسهر الليالي ويعد الجيوش لأغراضه ومطامعه، وكأنه لم يعمل ما عمله عن سبق تصميم واصرار.!.

ولعل تقادم الزمن على ذلك العهد، والخروقات السافرة التي ألفنا أن نراها أمامنا في زماننا هذا، جعلنا لا نرى في عمل معاوية إلا أمراً مقبولًا، وأنه ليس خروجاً سافراً كبيراً عن الإسلام الذي ألفنا أن نراه بصورة مشوهة أيضاً، واعتدنا أن نرى خروجاً أكثر صراحة عن الإمام وقد اتسعت زاوية الانحراف عما كان عليه حتى في زمن معاوية نفسه.

غير أننا إذا ما علمنا أن هذا الرجل الذي حكم باسم الإسلام، ونصب من نفسه قيماً على الشريعة، هو نفسه الذي أقدم على انتهاك هذه الشريعة بذلك النوع من الإصرار والمثابرة اللذين عمد إليهما، أدركنا عظم الجريمة التي أقدم عليها.

---

(١) العقد الفريد ٢٤٨.

(٢) مروج الذهب ١٣٣ وقد روى الطبري عن الحسن قوله (أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوا الفضيلة واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً، يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله ﷺ «الولد للفراش وللعاهر الحجر وقتله حجراً، ويا له من حجر، مرتين) الطبري ٣-٢٣٢.

كيف غاب الحياء

ولو قد تصفحنا فصول المهزلة التي حصلت باستلحاق زياد بأبي سفيان وشهادة أبي مريم السلولي الذي جمعه بسمية، وشهادات بعض من ادعى أن أبا سفيان قد دخل على سمية وزنى بها، ورأينا تصاعد ابتسامات السخرية والغضب على هذه المهزلة التي شكلت أكبر خرق واضح من (خليفة المسلمين)، لرأينا السبب الذي كان خلف حنق معاوية وغضبه على أولئك الساخرين المستنكرين، فهو لم يغضب لأن الناس قالت عن أبيه أنه زان، أو أنه اخترق حداً من حدود الإسلام أو حتى الأخلاق والمروءة التي تمتع بها بعض العرب حتى قبل ظهور الإسلام، بل لأنه وجد أن مصلحته أن يصانع هذا الداهية ويشكل معه ومع عمرو والمغيرة رباعياً منسجماً يرسي أسس المملكة الأموية الصاعدة وكان معاوية يدرك ما عليه زياد من طاقات كبيرة واستعدادات فائقة للشر، وقد رد على المغيرة الذي حاول التهوين من شأنه أمام معاوية (داهية العرب معه الأموال، متحصن بقلاع فارس، يدبر ويربص الحيل. ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعاد عليٌّ الحرب خدعة) الطبري ٣-١٧٦ وقد أشخص إليه المغيرة نفسه لاقناعه، فقال له في معرض (المصفح) (أرى أن تصل حبلك بحبله وَشخص إليه)المصدر السابق ٣-١٧٦ وقد سار زياد إلى معاوية وقد سأله عن الأموال التي معه فقدم له كشفاً بالحساب (فأخبره بما حمل منها إلى علي عليه السلام وما أنفق منها في الوجوه التي تحتاج فيها إلى النفقة، فصدقه معاوية على ما انفق ومابقي عنده، وقبضه منه، وقال: قد كنت أمين خلفائنا) نفس المصدر ٣-١٧٧ وكانت مصلحة معاوية أن (يصدقه).

قيل إن (الدهاة أربعة، معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة والمغيرة للمعضلات وزياد لكل صغيرة وكبيرة)[1] ومع ذلك فإن داهية الروّية (الحليم الصبور)، ربّ هذه المملكة غضب وانزعج وفقد هدوءه وحلمه عندما قيل له أنه بادعائه زياد لأبي سفيان، يخرج عن الإسلام، ولم ير أن يستجيب لهذه النصيحة لأنه رأى أنه لا يستطيع أن يفرط بهذه الطاقة التي كان يحتاج إليها حاجة شديدة، فهو لم يكن يلعب لعب صبيان! وهو يمهد لمشروعه الكبير... لقد احتج يونس بن عبيد في

(١) العقد الفريد ٥-٢٥٠.

جملة المحتجين وقال لمعاوية: (يا معاوية قضى رسول الله ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقضيت أنت أنَّ الولد للعاهر وأن الحجر للفراش مخالفاً كتاب الله تعالى، وانصرافاً عن سنة رسول الله ﷺ بشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان. فقال معاوية: والله يا يونس لتنتهي أو لأطيرن بك طيرة بطيئاً وقوعها. قال يونس: هل إلى الله ثم أقع؟ قال: نعم، واستغفر الله)[1].

ويبدو أن معاوية يمهد لفلسفة تريد أن لا يعرف الناس إلا شيئاً واحداً وهو أن الله غفور رحيم (خصوصاً معه هو)، لقد نسي عدالته ونسي غضبه وقدرته وعقابه، لم يرد أن يعرف عن الله إلا أنه مختص بغفران ذنوبه هو من دون الخلق. . !.

وكأنه قد حصل على صك بذلك، لقد كان الأمر برمته مجرد ملهاة لا يدخل فيها الله إلا كطرف مهمته دعوة الناس لحكم معاوية وغفران أخطائه وأخطاء أصحابه وحاشيته وحوارييه وهذه نقطة ينبغي الانتباه إليها عند تحليل كلمات معاوية وخطبه وأقواله.

أما قانون الله العام الواضح الذي نظم الحياة وجعل الإنسان خليفة على الأرض واصطفى من بني آدم المؤهلين لهذه المهمة من الأنبياء وأوصيائهم، يتحملونها بأكبر قدر من المسؤولية فلا يهم أن يخرق ما دام الذي خرقه هو معاوية (حبيب الله وأمينه ومهديه وهاديه) فكأن له قانوناً خاصاً واستثناءً انفرد به دون الخلق، متناسياً قول الله تعالى، بل كل أقواله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4].

وهكذا قابل معاوية ابتسامة السخرية والهزء بابتسامة مماثلة، ولم يعر أي اهتمام

---

(١) مروج الذهب ٩ كما أنه غضب على ابن عامر وهو أحد أعوانه عندما بلغه قوله (لقد هممت أن آتي بقسامة من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سمية) الطبري ٣-١٩٥.

(٢) المائدة ٩٨.

(٣) الأحزاب ١٦٥.

(٤) الأعراف ١٦٧.

لقول القائلين وسخرية الساخرين، ولم يرد أن يفهم إلا المقطع الذي يقول بأن الله ـ عز وجل ـ غفور رحيم. . . (متأولًا) كتاب الله نفسه ومفسِّراً إياه على هواه.

وقد عبر أحد هؤلاء الساخرين، عبد الرحمن بن أم الحكم، عن رزية المسلمين (بخليفتهم) الظريف المقدام بأبيات جاء فيها:

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة عن الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زاني
فاشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان[1]

(الداهية) زياد أصبح أخاً (للداهية) معاوية، اعترف به رأس الدولة بشكل رسمي متحدياً بذلك ما جاء به الإسلام وكل أمة الإسلام، وكأن شهادة أبي سلمة تبيح له ذلك[2].

(وفي سنة خمس وأربعين ولى معاوية زياد بن أبيه البصرة وأعمالها)[3].

(. . . ثم جمع له البصرة بعد ذلك وجمع له الحجاز مع العراقين)[4].

عقدة النقص لا يحلها التظاهر بالقوة

ولا شك أن زياداً لو لم يسلك طريق القوة والعسف، وخصوصاً بعد الفترة التي اغتيل فيها الإمام عليه السلام حيث تخلص من (القيود الشديدة) التي أخذ بها عليه السلام عماله بضرورة التزام العدالة والحق والأمانة، كما رأينا في الرسالتين المرسلتين إليه هو على الخصوص واللتين ذكرنا قسماً منهما هنا، لا شك أن هذه الاستعدادات للعسف والظلم اللذين لجأ إليهما في أغلب الظن بعد وفاة الإمام عليه السلام في فارس حيث ملكها وضبط قلاعها، كما رأينا، إضافة إلى ما تمتع به من قدرة فائقة، تشكل خطراً كبيراً

(١) مروج الذهب ٩.

(٢) وكان زياد نفسه كما قلنا تواقاً لإلحاق نسبه بمعاوية، فعندما قدم الكوفة قال: (قد جئتكم في أمر ما طلبته إلا إليكم، قالوا: ادعنا إلى ما شئت، قال تلحقون نسبي بمعاوية؛ قالوا: أما بشهادة الزور فلا؛ فأتى البصرة، فشهد له رجل) الطبري ٣-١٩٥.

(٣) المصدر السابق ٢٦.

(٤) نفس المصدر ٣٦.

على معاوية، إذا ما بقي زياد مناوئاً له، وهكذا كانت استمالته بكل طريقة ممكنة تشكل ضرورة آنية مستعجلة لمعاوية. .[1] عندما (قدم على معاوية من فارس، فصالحه على مالٍ يحمله إليه).

وهكذا استلحقه بأبي سفيان، وعينه عاملًا على البصرة أولًا وأعطاه حرية في التصرف لقمع أي شخص أو جماعة تفكر برفع راية العصيان والتمرد على الدولة الأموية.

قانون أموي «لآخذن الولي بالولي...»

وكان زياد عند حسن ظن (أخيه)، وكان عليه أن يثبت كفاءته وحزمه وحسن إدارته للأمور منذ اللحظة الأولى. لذلك فإنه ما كاد يصل البصرة ويجتمع بالناس في أول لقاء عام له في مسجدها أعلن بصريح العبارة (... وإني لأقسم بالله لآخذن الولي بالولي والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لي قناتكم)[2]. ومع أنه حاول بذلك ـ كما روي لنا ـ ضبط البصرة وتنقيتها من اللصوص وأشباههم. إلا أنه حاول بتهديداته تحويل الناس اتباعاً وعبيداً لمعاوية، وقد قرن تهديداته بممارسات عنيفة ذكر لنا المؤرخون بعضها، وحوَّل الدولة إلى مؤسسة أموية خاصة، والمسجد إلى ثكنة عسكرية، لا يشعر فيها أحد بالأمان، وهو يواجه ربه، إلا بالقدر الذي يكون فيه آمناً عندما يكون والي (الخليفة) راضياً عنه، وكانت الاجراءات المظهرية الدالة على ذلك هي اللجوء إلى اتخاذ حرس خاص من الشرطة يشكلون وجهاً لقوى القمع

---

(١) كما أن تلكؤ زياد وعدم الالتحاق بمعاوية حال مقتل الإمام عليه السلام يعود إلى اعتقاده بأن الريح ليست بعد مؤاتية لمعاوية وأنه قد يفشل أمام الجيش الذي أعده الإمام عليه السلام والذي بقي بعد وفاته متأهباً للقتال لذلك فإنه رد على معاوية قائلًا (العجب من ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، ورئيس الأحزاب، كتب إلي يتهددني وبيني وبينه ابنا عم رسول الله صلى الله عليه وآله يعني ابن عباس والحسن في تسعين ألفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم، لا ينثنون، لئن خلص إلي الأمر ليجدني أخمز ضراباً بالسيف) الطبري ٣-١٧١.

(٢) ابن الأثير ٣-٣٠٥.

التي يستعين بها في هذا المجال، فقد كان (زياد أول من سيّر بين يديه الحراب والعمد، واتخذ الحرس مرابطة خمسمائة لا يفارقون المسجد)[1].

وربما يكون لهذا الأمر، ومظاهر الفخامة والسيادة التي لجأ إليها زياد أسبابها النفسية المتعلقة بولادته المشبوهة، وهو أمر لا بد أن يفكر به المستغلون بعلم النفس والدراسات الإنسانية، عند استعراض أمر زياد، وربما أراد أن يؤكد خصوصيته وقربه من معاوية (كأخ) لم يتمتع بحقوق الاخوة منذ زمن طويل، وها هو الآن في دائرة السلطة، معلناً عن مظاهر، ربما كان معاوية نفسه لم يلجأ إليها إلى ذلك الحد الذي لجأ إليه زياد.

سياسة جديدة أساسها الشدة والعنف

وكانت شدته إعلاناً عن استعداده السافر للدفاع عن مصالحه الخاصة التي هي مصالح (الخلافة) نفسها، ومصالح (الخليفة) معاوية أخيه! فكأنه بذلك أعطى المبرر للجوء إلى العنف، هذا الأمر الذي لم يكن معاوية يقره علناً وإن كان يغض النظر عنه ويرتاح إليه ويشيد بصاحبه، ويروح يهنىء نفسه على حسن اختياره لهذا الرجل الصلب الكفؤ، الذي راح يعلن منذ الوهلة الأولى عن صلابته وكفاءته، كرد لجميل(أخيه) الذي لم ينسه ولم يفرط به حتى أنه استلحقه بأبيه.

كما أراد زياد أن يبين لأهل البصرة، ولأهل الأمصار كلهم أيضاً أنه يتبع سياسة جديدة لم يعرفوها من قبل، وإن مقاييس جديدة في تقريب الناس وعطائهم، ستكون على حسب ما يقومون به، للتقرب من البيت الحاكم الذي أراد أن يبين لهم أنه أحد أعمدته وأركانه بل وأصحابه المتصرفين به، وقد أنشد في بداية ولايته للبصرة قائلاً:

(ألا ربَّ مسرورٍ بنا لا نُسرُّهُ   وآخر محزون بنا لا نضره)[2] [3]

---

(١) المصدر السابق ٣-٣٠٧ والطبري ٣-١٩٩. والطبري ٣/ ١٩٧.
وقال فيها (وقد «أحدثنا» لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوماً غرقته، ومن حرق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف يدي وأذاي، لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه) الطبري ٣-١٩٧ ونجد أن زياداً قد (أحدث) أحكاماً وعقوبات جديدة لم يأت بها الإسلام.

(٢) مروج الذهب ٢٩.

(٣) ابن الأثير ٣-٣٧٤.

فقد أراد أن يعلن عن فتح صفحة جديدة، الولاء فيها للبيت الأموي هو المقياس.

كما أن معاوية أراد أن يقول للناس بصريح القول: إني إذا ما كنت ليّناً، وأتحمل (زلّاتكم) و (أخطاءكم) في الظاهر، فإن عليكم أن لا تأمنوا ذلك، ولا تطمئنوا إلى ابتسامة الأسد مني، فربما كنت مغيظاً وأنا أبتسم بوجوهكم، وأنا امرؤ من الناس تنطوي نفسي على عوامل الحقد والغضب، ومعي أناس لا يستطيعون كبح جماح غضبهم كما أفعل، فحذار، ثم حذار منهم. ومني أولّا... وهكذا صرح بإحدى المناسبات، عندما سكت عن رجل أغلظ عليه (فقيل له: أتحلم عن هذا؟ فقال: إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم، ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا)[1].

وحينذاك فقط، إذا ما ظهرت أي بادرة للحيلولة بينه وبين الملك، فإن الحلم يختفي ويحل محله الغضب، وحذار من هذا الغضب. إنه يتحمل الأمور البسيطة فكأنما يمتص بذلك البداية الحقيقية للغضب والنقمة من الناس، إلا أنه لا يتساهل مع أي إنسان يسعى للإطاحة بالعرش الأموي أو أي إنسان يعلن عن عدم شرعية قيام هذا العرش.

شديد فظ غليظ... اعترف لنفسه بهذه الصفات

لقد أظهر معاوية (حنكة ودهاء) لإدارة الدولة التي قام بتأسيسها هو وجعل مركزها الشام وجعل منها حاضرة (الدولة الإسلامية)، هذه البلاد التي رأى أهلها الإسلام بعينيه، وفهموه كما أرادهم أن يفهموه، ورباهم على مفاهيمه هو وقيمه

(١) وقد قال في خطبته المشهورة تلك في البصرة (إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته. فإذا فعل لم أناظره..) وقال: (إنّا أصبحنا لكم ساسه، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفيء الله خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا) الطبري ٣-١٩٧-١٩٨ فهو هنا يهددهم إذا ما أظهروا أي بادرة تذمر ضد الدولة. كما أنه لم يعدهم بأن يسوسهم بسلطان الله الذي بين أحكامه في شريعته المقدسة.. وإنما بسلطان الله الذي (أعطاهم) وفيئه الذي خولهم). ولا ندري كيف أعطاهم الله سلطانه وكيف خولهم فيئه؟ أنها خطوة لقلب مفاهيم الحكم والخلافة في الإسلام أصبحت فيما بعد هي الأساس وهي مفاهيم أوجدها معاوية كما هو معلوم.

وتصوراته عن دين الله القويم، كما أراد أن يبين أنه لا يستعمل أسلوباً واحداً في سياسة الدولة، وأنه كان يحلم ويسكت على المسيء ما لم يحل بينه وبين الملك، فإنه أراد أن يبين أن وراءه رجالًا أشداء أمثال زياد لا يتورعون عن الشدة والارهاب وأن هؤلاء رجال محنكون أقوياء، وأنه يلبس لكل حالة لبوسها، وأن على الجميع أن يحذروا ذلك[1]. فقد روي عن زياد الفظ الشديد الغليظ ـ حسب تعبير معاوية أنه قال: (ما غلبني أمير المؤمنين [معاوية] قط إلا في أمر واحد. طلبت رجلًا من عمالي كسر علي الخراج، فلجأ إليه، فكتبت إليه أن هذا فساد عملي وعملك. فكتب إلي: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جميعاً فيمرح الناس في المعصية، ولا تشتد جميعاً فنحمل الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشدة والفظاظة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة)[2].

أهل المدينة: استعانوا عليه بالله ورسوله

شديد فظ غليظ طبقت شهرته الآفاق بما فعل ونال من أهل البصرة والكوفة وكأنه كان يفخر بذلك، ويعتز بهذه الشهادة وهذا الوصف الدقيق من (أخيه) المحب الغيور. لقد وزعا المهمات توزيعاً عادلًا ودقيقاً. وإن على الذين يروق لهم التمرد على سلطة الدولة أن يتوقعوه سيفاً مصلتاً على رؤوسهم عندما يوليه معاوية عليهم حاكماً مستبداً مّطلقاً، فالدولة لا بد لها من الشدة. كتب زياد إلى معاوية (إنه ضبط العراق بيمينه وشماله فارغة، فجمع له الحجاز مع العراقين، واتصلت ولايته بأهل المدينة، فاجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله ﷺ وضجوا إلى الله ولاذوا بقبر

---

(١) فعندما جمع معاوية إليه الكوفة مع البصرة صعد المنبر وحاول استمالة أهلها إليه قائلًا: (فأردت أن أشخص إليكم في ألفين من شرطة البصرة، ثم ذكرت أنكم أهل حق، وأن حقكم طالما دفع الباطل فأتيتكم في أهل بيتي، فالحمد لله الذي رفع مني ما وضع الناس وحفظ مني ما ضيعوا. . . فخطب على المنبر، فجلس حتى أمسكوا، ثم دعا قوماً من خاصته، وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ثم قال: ليأخذ كل رجل منكم جليسه، ولا يقولن: لا أدري من جليسي؟ ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد، فدعاهم أربعة يحلفون بالله ما منا من خطبك، فمن حلف خلاه، ومن لم يحلف حبسه وعزله حتى صار إلى ثلاثين، ويقال بل كانوا ثمانين، فقطع أيديهم على المكان) الطبري ٣. ٢٠٧.

(٢) العقد الفريد ٥-١٠٦.

النبي ﷺ ثلاثة أيام لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعسف، فخرجت في كفه بثرة ثم حكها، ثم سرت واسودت فصارت أكلة سوداء فهلك بذلك)[1] وكان ذلك عام ثلاث وخمسين، قبل هلاك معاوية بثمان سنين.

فهو إذاً سفاح مشهور[2]، كان اسمه يلقي الرعب في قلوب الناس، وحسبنا مثالًا لذلك، خوف أهل المدينة الشديد منه عندما سمعوا أنهم سيكونون تحت حكمه، ولم يمنع خوفهم معرفتُهم (بخليفتهم الحليم)، إذ ربما يأخذ على يديه ويمنعه من العسف والجور، وكيف لا يخافون وهو قد رصده لذلك. ولن يردعه حتماً إذا ما أبدى شدته المعروفة تجاههم، وأدركوا أنه مثل في الجور والعسف، أليس هو قاتل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وميثم التمار وشريك بن شداد وجماعته الذين كانوا مع حجر وأضرابهم وهو صاحب الحملات الارهابية على أطراف الدولة الإسلامية، وأنه كان يلبس قفازاً فولاذياً مغلفاً بالحرير.

لقد بلغت درجة عسف زياد أنه (جمع الناس بالكوفة بباب مقره يحرضهم على لعن علي، فمن أبى ذلك عرضه على السيف)[3].

لقد أراد علي عليه السلام إنقاذه من الهلاك، وكان جزاؤه أن راح هذا الهالك يحرض الناس على سبه ويهددهم ويعرضهم على السيف.

تعاون على الشر والعدوان

ونتساءل: هل إن ما كان يفعله زياد يجري دون علم معاوية؟ وهل أنه لم يلزم الناس بسب علي كما فعل زياد؟

أسئلة نجد أن أجوبتها واضحة لا لبس فيها، كان معاوية هو الموجه الأول والقائد لعمليات العسف والجور كلها، فهل كانت هذه دولة إسلامية تقوم على نفس الأسس التي قامت عليها الدولة الإسلامية الأولى في عهد رسول الله ﷺ أو الدولة

---

(١) مروج الذهب ٣٢.

(٢) مع أنه لم يتبع أسلوب الارهاب وحده وحسب، بل كان يلجأ إلى أسلوب الرشوة كما يلجأ سيده معاوية فقد (كنت خمسمائة من مشيخته أهل البصرة في صحابته، فرزقهم ما بين الثلثمائة إلى الخمسمائة) الطبري ٣-١٩٩.

(٣) مروج الذهب ٣٢.

التي قامت في عهد أمير المؤمنين عليه السلام أو على أقل التقديرات على نمط الدولة التي قامت بعد وفاة رسول الله ﷺ في عهد عمرو وأبي بكر.

إن الارهاب هو السمة التي أراد معاوية أن تبدو بها هذه الدولة، رغم محاولاته التظاهر بالحلم واللين، وزياد هو خير من يعرض في هذا المجال[١].

الارهاب الأموي

ويبدو أن تلاميذ زياد في الإرهاب مثل سَمُرة بن جندب، علموا أن ما يقربهم ويرفع من أقدارهم عند أسيادهم هو تماديهم في القتل والإرهاب، وقد فاقوا بذلك هؤلاء الأسياد أنفسهم. فعندما استخلف زياد سمرة على البصرة وأتى الكوفة (فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس فقال له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت)[٢].

جريمة قتل حجر بن عدي

على أن أكبر جريمة اهتز لها العرش الأموي، وخجل منها، بل وندم عليها حتى معاوية نفسه، بل وقرّع نفسه عليها، وأبدى الندم في أخريات أيامه وكان يقول: مالي ولحجر!. وكان زياد هو الممهد والمشارك الأول بتلك الجريمة النكراء.

وكان الأمويون يشعرون منذ أن كان المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة، إن حجر بن عدي كان يتزعم المعارضة دونهم، وكان سكوت المغيرة عنه مكيدة منه،

---

(١) كما أن زياداً كان أول من حاول اضافة فخامة خاصة على (السلطان)وأراد بذلك إضافة عنصر جديد من الخوف أو الحاجب النفسي السلبي الذي لا يتسم بالاحترام المتبادل بين الراعي والرعية، وإنما تتحكم منه عناصر جديدة قديمة من التعامل الفرعوني الذي يجعل لفرعون قيمة خاصة استثنائية ويؤطره باطار خاص لا ينبغي لأحد من البشر أن ينفذ منه أو يفكر باختراقه. وقد بلغ من حرص زياد على ذلك أنه أقام قاعدة جديدة وهي ألا يسلم على قادم بين يدي السلطان فقد روي أن عبدالله بن عباس قدم على معاوية وعنده زياد فرحب به معاوية وألطفه وقرب مجلسه ولم يكلمه زياد شيئاً فابتدأه ابن عباس وقال: كأنك أردت أن تحدث بيننا وبينك هجراً؟ قال: لا ولكنه لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين!) العقد الفريد ١/ ١٧ وقد أيد معاوية تصرف زياد.

(٢) الطبري ٣-٢٠٨.

فقد كان يقول لمن يحرضه على حجر (إني قد قتلته، إنه سيأتي أمير بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شبيهاً بما ترونه يصنع بي، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة)[1].

وعند وفاة المغيرة جمع معاوية الكوفة إلى زياد، ولم يكن زياد ـ الذي يرى أنه له حصة كبيرة في هذه الدولة ليحتمل ما احتمله المغيرة، وقد أثاره اجتماع الناس إلى حجر وعلو مركزه في الكوفة، ولم يحتمل أن يرد عليه حجر في مواقف ذكر بعضها المؤرخون، وقد كتب إلى معاوية في أمره وعظمه وكثّر عليه (فكتب إليه معاوية أن شدّه في الحديد ثم احمله إليَّ، فشد في الحديد ثم حمل إلى معاوية، فقال له معاوية: أما والله لا أقيلك ولا أستقيلك. أخرجوه فاضربوا عنقه، فأخرج من عنده، فقال حجر للذين يلون أمره: دعوني حتى أصلي ركعتين، فقالوا: صل؛ فصلى ركعتين خفف فيهما، ثم قال: لولا أن تظنوا بي غير الذي أنا عليه لأحببت أن تكونا أطول مما كانتا، ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خير فما في هاتين خير؛ ثم قال لمن حضره من أهله: لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً، فإني ألاقي معاوية غداً على الجادة. ثم قدم فضربت عنقه)[2].

لقد اقتضت هذه الحادثة المروعة بآل معاوية (فبلغنا أنه لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حجر يومٌ طويل)[3].

مكر وغدر

وقد استطاع زياد بأسلوب ماكر، استغل فيه ضعف أشراف الكوفة ووقوعهم بين يدي معاوية متخاذلين بل موتى، أن يجعل هؤلاء (الأشراف) يدعون أصحابهم وأقاربهم واخواتهم الملتفين حول حجر، يجرده من قوى المعارضة هذه الملتفة حوله، وكان حديثه معهم يدل على مكر شديد لم يكن ليصدر إلا عن أحد هؤلاء (الدهاة) الذين أقاموا أعمدة الدولة الأموية الغاشمة، فكان حديثه تقريعاً في البداية ثم دعوة إلى أمر لم يكونوا ليستجيبوا له لولا هذا التقريع. قال زياد: (يا أهل الكوفة، أتشجّون بيد وتأسون بأخرى! أبدانكم معي وأهواؤكم مع حجر! أنتم معي وإخوانكم

---

(١) الطبري ٣-٢١٩.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر السابق -٣-٢٢٠.

وأبناؤكم وعشائركم مع حجر! هذا والله من دحسِكم وغشكم! والله لتظهرن لي براءتكم أو لأتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصَعَركم! فوثبوا إلى زياد، فقالوا: معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما هنا رأي إلا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين، وكل ما ظننا أن فيه رضاك، وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر فمرنا به..)[١] وهنا بعد تهديدهم واشعارهم أنهم باتوا على خطر، أظهر لهم خطته، قال: (فليقم كل امرىء منكم إلى هذه الجماعة حول حجر، فليدع كل رجل منكم أخاه وابنه وذا قرابته ومن يطيعه في عشيرته، حتى تقيموا عنه كل من استطعتم أن تقيموه، ففعلوا ذلك، فأقاموا جل من كان مع حجر)[٢]. ومع ذلك فلم يسلّم ما تبقى من أصحاب حجر، حجراً إلى أعوان زياد إلا بعد معارك حشد فيها زياد كل أعوانه من (الأشراف) وأتباعهم، وإلا بعد خيانة محمد بن الأشعث، الذي قيل أنه طلب من زياد أن يؤمن حجراً، وقد أخذ (الأمان) وأحضره أمام زياد الذي هدد وتوعد، وقال بعد أن حبسه: (والله لأحرصنَّ على قطع خيط رقبته)[٣] وقد قبض على بقية أصحابه، وقد قتل بعضهم وحبس الآخرون وعذبّهم وضربهم. وقد دعا زياد بعض رؤوس الأرباع وطلب منهم الشهادة ضد حجر وهم عمرو بن حريث وخالد بن عرفطة وقيس بن الوليد وأبي بردة بن أبي موسى الأشعري. (فشهد هؤلاء الأربعة أن حجراً جمع إليه الجموع، وأظهر شتم الخليفة. ودعا إلى حرب أمير المؤمنين، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب، ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عذر أبي تراب والترحم عليه، والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه، وعلى مثل رأيه وأمره)[٤]. ولم يكتف زياد بشهادة الأربعة[٥]. ودعا بقية الناس إلى الشهادة مثلهم، فتطوع كثيرون وكان من هؤلاء ممن سيرد اسمهم في مجال هذه الدراسة،

---

(١) الطبري ٣، ٢٢٠-٢٢١-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) وكان نص شهادة أبي بردة بن أبي موسى الأشعري: (شهد أن حجر بن عدي خلع الطاعة، وفارق الجماعة ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب والفتنة وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين معاوية، وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء) الطبري ٣/٢٢٦.

عمر بن سعد وشبث بن ربعي، وحجار بن أبجر العجلي، وعمرو بن الحجاج الزبيدي وشمر بن ذي الجوشن العامري، ومخفر بن ثعلبة، وزحر بن قيس الجعفي، (وهؤلاء قد اشتركوا بشكل فعلي بمذبحة الطف التي استشهد فيها الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، مع سبعين آخرين)، بذل ابن زياد جهوداً شاقة من أجل جمع هذه الشهادات.

وقد كتبت أسماء أشخاص لم يكونوا يعلمون أي شيء مما ذكر، كما أن بعض الأشخاص لم يشهدوا وكتبت أسماؤهم في محضر الشهادة المزورة.

تحريض على الجريمة

وقد تردد معاوية بقتل حجر وأصحابه ويبدو أنه كان يخاف من تصاعد النقمة الشعبية ضده وحدوث ما لا تحمد عقباه، وكتب إلى زياد بذلك قائلًا: (فأحياناً أرى قتلهم أفضل من تركهم وأحياناً أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم)[1]، غير أن زياداً الذي دبر كل شيء لم يشأ ـ ربما بدافع نرجسية خاصة أو بشعور نفسي متدنٍ سببه نقطة الضعف التي يعاني منها ـ أن تذهب جهوده أدراج الرياح، وربما اعتبر هذه العملية أخطر شيء قام به في حياته.

ولما كان يعلم أن هاجس معاوية الوحيد هو الحفاظ على الدولة التي أقامها وإنما لم يكن لتيار إلا إذا تعرض أحد بسوء لهذه الدولة فإنه كتب إليه رسالة مختصرة أشار فيها إلى أنَّ بقاء حجر يشكل خطراً بالغاً، وأنه حتى زياد نفسه ـ رغم بطشه وقسوته ـ لا يستطيع ضمان أمن الكوفة إذا ما عاد إليها حجر، قال زياد: (فعجبت لاشتباه الأمر عليك فيهم، وقد شهد عليهم بما قد سمعت من هو أعلم بهم، فإن كانت لك حاجة في هذا المصر فلا تردنَّ حجراً وأصحابه إليَّ)[2].

حجّوهم ورب الكعبة

وقد روي عن الحسن عليه السلام لما بلغه قتل حجر وأصحابه، قال: (صلّوا عليهم وكفنوهم، واستقبلوا بهم القبلة، قالوا: نعم؛ قال: حجّوهم ورب الكعبة)[3].

---

(١) الطبري ٣-٢٢٨.

(٢) نفس المصدر.

(٣) المصدر السابق ٢٣١-٢٣٤.

وقد حاول معاوية التنصل من ارتكاب جريمة قتلهم وقال: (لست أنا قتلتهم، إنما قتلهم من شهد عليهم)[1]، وهو نفس العذر الذي تذرع به عندما قتل عمار، عندما قال: قتله من جاء به ولم يستطع في نهاية المطاف إلا أن يرى عظم الجريمة التي ارتكبها قبيل أن يلم به ملك الموت ويتوجع مما جنى قائلاً: (يوم لي من ابن الأدبر طويل! ثلاث مرات)[2].

لم يبق زياد بعد مقتل حجر سوى عامين، فهذا جناه وهذا عمله، فهل خلصه معاوية من ميتة، وهل وقف له عند المعاد؟ وهل تبناه ولم يتبرأ منه؟.

(١) المصدر السابق.
(٢) نفس المصدر ٢٣٣.

المغيرة بن شعبة..
(الداهية) الوسواس

دهاة أم أغبياء

لا ندري كيف تحملت الأمة وجود طاقات الشر المتمثلة بهذا الرباعي من (الدهاة) الذي جثم على صدرها في وقت واحد، وكان يكفي أن تبتلى بواحد منهم فقط لتمسخ وتزور هويتها، فلا تعود أمة إسلامية كما أراد لها نبيها الكريم ﷺ لقد كان رابع (الدهاة)، المغيرة بن شعبة لا يحب أن يتحرك إلا في الظلام وكان يتطوع للقيام بدورالمشير الناصح الغيور، وقد حاول أن يدلي بدلوه بعد مقتل عثمان ويجرب حظه مع الإمام عليه السلام عندما أراد عزل جميع ولاة الخليفة المقتول، أشار على الإمام أن يبقيهم على مكانتهم، وعندما أبى الإمام ذلك قال له: (فإن كنت أبيت علي فانزع من شئت واترك معاوية، فإن في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يستمع منه)[1]. وعندما رفض الإمام (اقتراحه) رفضاً باتاً وقال له: (لا والله لا أستعمل معاوية يومين. والله لا أعطيه إلا السيف)[2]، جاءه في اليوم التالي وقال أنه كان مخطئاً في رأيه ونصحه لإبقاء معاوية. وقد أدرك الإمام عليه السلام دوافعه وعلم أنه لم يكن ناصحاً، وأنه كان بفعله يساوم الإمام عليه السلام ليبقى قربه كمستشار أمني ومعاوية ليجعل له عنده يداً يذكره بسببها في المستقبل، وقد ذكر له معاوية هذه اليد، وربما اتفق معه في الخفاء على العمل سوية منذ البداية.

المصلحة الشخصية أولًا

كان المغيرة كأصحابه ينظر بعين التاجر الذي يفكر دائماً بما قد يستفيده من الآخرين الذين يتعامل معهم، ويضع أمامه مقاييس أرضية بحتة للربح والخسارة. كم سيربح هو وكم سيخسر، لا كم سيربح الإسلام أو تخسر المبادىء، وربما كان الدين

(١) و(٢) الكامل ٣-٨٧.

آخر (سلعة) يفكر بالتعامل بها. لأنه قد يبدو بنظره سلعة بائرة لا مكان لها في دنيا التجارة. وهكذا فإنه لم يقترب من الدين إلا إلى الحد الذي يتمكن مته من تحقيق مطامحه وأطماعه. وقد وصفه أمير المؤمنين عليه السلام وصفاً دقيقاً عندما لمس تماديه في دروب الانحراف والضلالة وسعيه لتفريق شمل الأمة قائلًا: (فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربه من الدنيا، وعلى عمد لبّس على نفسه ليجعل الشبهات عاذراً لسقطاته)[١].

وكما جعلوا من معاوية كاتباً للوحي وأميناً لله على وحيه[٢]، فإنهم بالغوا بأمر أصحابه وجعلوا منهم أبطالًا ممتازين، أو هكذا حاولوا أن يفعلوا في ظل إعلامٍ أموي مركز هادف حاول رفعهم والغض من قيمة أعدائهم ومناوئيهم.

معتزل.. متحيّز

كان المغيرة بن شعبة كاتباً لأبي موسى الأشعري، ولا شك أنه كان يتمتع بمؤهلات ومعلومات في الأدب والتاريخ، غير أن ما تميز به هو (دهاؤه) الذي اشتهر به اشتهار أصحابه من قبل (ومكيدته) وآراؤه الشريرة حتى قالوا فيه وفي غيره: (ذوو رأي العرب ومكيدتهم: معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وقيس بن سعد ومن المهاجرين عبدالله بن بديل الخزاعي، وكان قيس وابن بديل مع علي عليه السلام وكان المغيرة بن شعبة وعمرو مع معاوية، إلا أن المغيرة كان معتزلًا بالطائف حتى حكم الحكمان فاجتمعوا بأذرح)[٣] [٤] فكيف يكون معتزلًا وهو مع معاوية.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نهج البلاغة ٧٥١.

(٣) مع أنه لم يسلم إلا قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وآله ولعله حاول دس نفسه في جهاز الدولة الإسلامية ككاتب من كتاب الحوائج، هذا إذا صح ما رواه بعض المؤرخين وبالغ فيه البعض الآخر فقد روي (إن خالد بن سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، يكتبان بين يديه في حوائجه، وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس، وكانا ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا) العقد الفريد ٤-٢٤٤. ومن ذلك نستنتج أنه ربما كانت علاقة المغيرة بمعاوية (كنائب عنه في كتابة الحوائج) لا الوحي طبعاً، علامة أقدم من تاريخ قيامه باللاولاية على الكوفة نائباً عن معاوية.

(٤) الطبري ٣-١٦٨ مع أن روايات أخرى تروي أنه كان قرب (الحكمين) وأنه جس نبضهما وتوصل إلى قناعات خاصة بشأن التحكيم.

كان المغيرة يتمتع (بدهاء) كبير لا يقل عن دهاء سيده، وكان معاوية يدرك أنه سيكون عموداً قوياً من أعمدة دولته، فكان يستميله وهو يعلم أنه قابل للشراء، وأن المبادىء آخر شيء يمكن أن يشغل حيزاً في تفكيره.

نحن مع من غلب

لقد كان المغيرة أحد الذين شهدوا مهزلة التحكيم وقريباً من بطليها عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري وكان فيما مضى كاتباً له[1]، وربما أراد أن يكون من (المعتزلة) ليقيّم الموقف ويرى إلى جانب من تكون الغلبة في النهاية فينحاز إليه.

علاقة قديمة بمعاوية

ومن الرواية التي رويت لنا في تاريخ الطبري نجد أن المغيرة لم يكن بعيداً عن ساحة المعركة، وأنه كان يراقب مسألة التحكيم، وربما كان يمد الحكمين بآرائه، إذ بدا أنه على اتصال بكليهما، وربما كان ينسق بينهما ويعمل على توحيد القرار الذي سيظهران به أمام الناس: فقد روى الطبري قائلاً: (فلما اجتمع الحكمان بأذرح، وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي الرأي من قريش: أترون أحداً من الناس برأي يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يتفرقان؟.

قالوا: لا نرى أحداً يعلم ذلك، قال: فوالله إني لأظن أني سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأراجعهما فدخل على عمرو بن العاص وبدأ به فقال: يا أبا عبدالله، أخبرني عما أسألك عنه، كيف ترانا معشر المعتزلة،؟ فأنا قد شككنا في الأمر الذي تبين لكم من هذا القتال، ورأينا أن نتأنى ونتثبت حتى تجتمع الأمة! قال: أراكم معشر المعتزلة خلق الأبرار وامام الفجار! فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل على أبي موسى فقال له مثل ما قال لعمرو، فقال أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأياً، فيكم بقية المسلمين، فانصرف المغيرة ولم يسأله غير ذلك، فلقي الذين قال لهم ما قال من ذوي الرأي من قريش، فقال: لا يجتمع هذان على أمر واحد)[2].

(١) وقد عزله عمر بن الخطاب عن كتابة أبي موسى (العقد الفريد ٢-١٠٥).
(٢) الطبري ٣-١٠٥-١٠٦.

ومع ذلك فقد اجتمع الحكمان على أمر واحد. خلعا كلاهما الإمام عليه السلام وأقر أحدهما معاوية في العلن وأقره الثاني في السر وإن أبدى للناس نفسه أنه ضد صاحبه. ربما كان (المغيرة) يموه على المسلمين ويريهم أن لكلا طرفي التحكيم رأياً لن يتعداه ولن يحيد عنه حتى يسير التحكيم إلى نهاية الشوط ويؤدي غاياته. (والذي فعله عمرو هو نفس الذي فعله أبو موسى لا يفترق عنه قط في نقير ولا قطمير. وأن أبا موسى وعمراً اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عن راض. فعمرو لم يغالط أبا موسى ولم يخدعه لأنه لم يعط معاوية شيئاً جديداً ولم يقرر في التحكيم غير الذي قرره أبو موسى ولم يخرج عما اتفقا عليه)[1].

لقد تحدى معاوية (المطالب بثأر الخليفة المقتول) الإمام عليه السلام وتصدى له بقوة السلاح. ووجد في نفسه القوة لهذا التصدي بوجه إمام الأمة المجمع عليه من قبل الأمة كلها في بيعة تاريخية لم يسبق لها مثيل، أما الآن وقد وجد من يؤيده ويطعن بشرعية خلافة الإمام عليه السلام ويدعو إلى إعادة أمر الخلافة إلى (الصحابة) ثانية، في عملية (تحكيم) ممهد لها، فإن موقفه قد أصبح أقوى مما كان عليه في السابق.

وقد هرب أبو موسى إلى مكة بعد (التحكيم)، ثم قدم على معاوية بعد استتباب الأمور له وحاول التقرب منه لنيل ولاية أو منصب، إلا أن معاوية لم يحقق له رغباته.

الاقتراح المشؤوم ـ دمر الأمة في سبيل مصالحه الشخصية

كان المغيرة بن شعبة مشؤوماً، بما ارتكبه بحق هذه الأمة، فبغض النظر عن الدور المشين الذي لعبه باعتزاله الحرب بين الإمام عليه السلام ومعاوية، وكأن الأمر كان يحتاج لتربص وتدبر واعتزال لمعرفة من هو الضال المضل الباغي ومن هو المصيب الذي يدور مع الحق أنّى دار. ومع أنه بقيامه بدور المحايد هو وأشباهه أمثال أبي موسى وسعد بن أبي وقاص وغيرهما، وما في ذلك من ايحاء للأمة بأن (أصحاب) رسول الله صلى الله عليه وآله أنفسهم في شك من أمرهم بشأن أي الرجلين أحق بالأمر، علي أم معاوية، فإن المغيرة كان سبباً في أحداث ثلاث ألحقت بالأمة الخراب والدمار، ثم لم تنهض من كبوتها بعد، أولهما ـ وقد تكلمنا عنه في سيرة زياد ـ هو التمهيد لخنق

(١) محب الدين الخطيب - نقلًا عن هامش ابن الأثير ٣-٢٠٩-٢١٠.

المعارضة الإسلامية بقيادة حجر بن عدي، وقوله هو نفسه عن حجر: أني قد قتلته. فكان ذلك أول ذل دخل الكوفة. فقد قيل: (إن أول ذل دخل الكوفة موت الحسن بن علي وقتل حجر بن عدي ودعوة زياد)[1].

أشار على معاوية باستلحاق زياد

أما دعوة زياد واستلحاقه فكانت بايحاء ومشورة من المغيرة نفسه أيضاً. فقد كان المغيرة يدرك حاجة معاوية لزياد، لذلك فإنه تستر على أمواله التي أودعها عند عبد الرحمن بن أبي بكره ولم يعذبه كما طلب منه معاوية للاعتراف بما لديه. وقد أراد في البداية جس نبض معاوية لمعرفة مدى حاجته لزياد وقال له: (ما زياد هناك يا أمير المؤمنين! فقال معاوية: بئس الوطْء العجْزُ، داهية العرب معه الأموال، متحصن بقلاع فارس، يدبر ويربّص الحيل، ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعاد علي الحرب خدعة)[2] وقد عرض المغيرة على معاوية أن يذهب بنفسه لاقناع زياد، وقد ذهب إليه وأشار عليه (أرى أن تصل حبلك بحبله، وتشخص إليه)[3].

وقدم زياد على معاوية فسأل معاوية زياداً عما صار إليه من أموال فارس، فاخبره بما حمل منها إلى علي عليه السلام وما أنفق منها في الوجوه التي يحتاج فيها إلى النفقة، فصدقه معاوية على ما انفق، وما بقي عنده، وقبضه منه، وقال: قد كنت أمين خلفائنا)[4].

وقد تساهل معاوية بأمر الأموال التي كانت مع زياد، وسمح له بنزول الكوفة وكان المغيرة نفسه والياً عليها، فكان يعظمه ويكرمه، ورغم استسلام زياد لمعاوية إلا أنه كان يخشى شره وكان يوصي المغيرة بمراقبته وأخذه بالصلاة في الجماعة[5].

دعا معاوية إلى بيعة يزيد.. وضع الأمة في مأزق شديد

أما ثالثة الأثافي فكانت مشورته المشؤومة بجعل يزيد ولياً للعهد بعد معاوية، وكان الدافع إليها، أن المغيرة أحس بفتور من قبل معاوية وأنه أراد تنحيته، فسار إليه

---

(١) الطبري ٣/ ٢٣٢.

(٢) و(٣) المصدر السابق ٣-١٧٦.

(٤) و(٥) نفس المصدر -٣- ١٧٦-١٧٧ وراجع العقد الفريد ٥-٢٦٨-٢٦٩.

وأشار عليه بتولية يزيد وأنه سيكفيه الكوفة إذا ما بدأ التمهيد لهذا الأمر الذي جر الويلات على هذه الأمة وجعل السلطة الأموية تكشف عن انحرافها وخروجها السافر عن الإسلام بشكل علني ونهائي، ونستمع إلى القصة كاملة من مروج الذهب: (كتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر وخاف أن يستبدل به: أما بعد، فقد كبرت سني، ورق عظمي، واقترب أجلي، وسفهني سفهاء قريش، فرأي أمير المؤمنين في عمله موفق.

فكتب إليه معاوية: أما ما ذكرت من كبر سنك، فأنت أكلت شبابك؛ وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك، فإني لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان، وأما ما ذكرت من سفهاء قريش، فحلماؤها أحلّوك ذلك المحل؛ وأما ما ذكرت من العمل، ف «ضحِّ رويداً يدرك الهيجا حمل».

فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة، كتب إليه يستأذنه في القدوم، فأذن له فخرج، فلما دخل عليه، قال له: يا مغيرة، كبرت سنك، ورق عظمك، ولم يبق منك شيء، ولا أراني إلا مستبدلًا بك، قال المحدث عنه: فانصرف إلينا ونحن نرى الكآبة في وجهه، فأخبرنا بما كان من أمره، قلنا له: فما تريد أن تصنع؟ قال: ستعلمون ذلك.

فأتى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الأنفس ليغدى عليها ويراح، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر، فلو نصبت لنا علماً من بعدك نصير إليه! فإنّي قد كنت دعوتُ أهل العراق إلى بيعة يزيد، فقال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك ورُم هذا الأمر لابن أخيك، فأقبلنا نركض على النجب، فالتفت فقال: والله لقد وضعت رجله في ركاب طويل ألقى عليه أمة محمد ﷺ [1].

وقد روى الطبري هذا الخبر بصيغة أخرى، قال: (قدم المغيرة على معاوية واستعفاه وشكا إليه الضعف، فأعفاه وأراد أن يولي سعيد بن العاص. [وقد أخبر رجل سمع الحديث بذلك] قائلًا: يا مغيرة، ما أرى أمير المؤمنين إلّا قلاك، رأيت ابن خنيس كاتبك عند سعيد بن العاص يخبره أن أمير المؤمنين يوليه الكوفة، قال المغيرة: أفلا يقول كما قال الأعشى: أم غاب ربك فاعترتك خصاصة ولعل ربك أن يعود مؤيداً. رويداً أدخل على يزيد، فدخل عليه فعرّض له بالبيعة، فأدى ذلك يزيد إلى

---

(١) العقد الفريد ١/ ٧٧-٧٨.

أبيه. فرد معاوية المغيرة إلى الكوفة، فأمره أن يعمل في بيعة يزيد. فشخص المغيرة إلى الكوفة. وعمل في بيعة يزيد وأوفد في ذلك وافداً إلى معاوية.

فهل وضع رجل معاوية في ركاب طويل، أم وضع رجله هو.؟ هل كان ذلك عمل امرىء يحسب حساباً للآخرة؟ أم عمل امرىء لا يرى أمامه إلا هذه الدنيا؟

ورجع إلى الكوفة فرحاً ببقائه على (عرش الكوفة) متمثلًا:

بمثلي فافزعي يا أم عَمرو إذا ما هاجني السفر النَّعوُرُ)[١]

هرب من الطاعون وعاد ليقتله الطاعون

ومات المغيرة بعد ذلك بأقل من أربع سنين وهو ابن سبعين سنة، وكان قد هرب من الكوفة! فقدمها فطعن فمات وضم معاوية الكوفة إلى زياد[٢] وتزوج زياد زوجته.

ولسنا بصدد إيراد سيرة ذاتية للمغيرة، فليس في حياته لقطات مشرقة، إلا ما حاول بعض كتاب الدولة الأموية إيراده. أما الآخرون فقد رووا عنه أخباراً أخرى، روى ابن هشام (إن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلًا من بني مالك، من ثقيف، فتهايج الحيان من ثقيف: بنو مالك، رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغيرة، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر)[٣].

ماض ملوث.. يزني وهو أمير

وقد عزله عمر عن البصرة عام ١٧هـ عندما كان والياً عليها واستعمل بدله أبا موسى وأمره أن يشخص إليه المغيرة، وقبيل شخوصه إلى عمر أهدى جارية إلى أبي موسى، وكان سبب عزله أن أبا بكره (وهو أخو زياد لأمه) وجماعة معه منهم زياد رأوا المغيرة بين رجلي امرأة (وكانا في مشربتين في كل واحدة منهما كوة مقابلة الأخرى، فاجتمع إلى أبي بكرة ليسده فبصر بالمغيرة، وقد فتحت الريح باب كوة مشربته، وهو بين رجلي امرأة، فقال للنفر: قوموا فانظروا، فقاموا فنظروا وهم أبو بكرة ونافع بن كلدة، وزياد بن أبيه، وهو أخو أبي بكرة لأمه، وشبل بن معبد البجلي فقال لهم:

(١) الطبري ٣-١٩٦.

(٢) المصدر السابق ٣-٢٠٦.

(٣) السيرة النبوية/ ابن هشام م ٢-٣١٣-٣١٤.

اشهدوا قالوا: ومن هذه؟ قال: أم جميل بن الأفقم، وكانت من بني عامر بن صعصعة وكانت تغشى المغيرة والأمراء [والأشراف] وكان بعض النساء يفعلن ذلك في زمانها، فلما قامت عرفوها)[1] وأدلوا بشهادتهم أمام عمر، إلا زياد الذي أبدى تردده بمعرفة المرأة، وكان حوار المغيرة للشهود دقيقاً بحيث جعلهم لا يعطون وصفاً متطابقاً للحالة التي شاهدوه عليها.

وقد أورد الطبري تفاصيل أكثر من تلك التي أوردها ابن الأثير، فقد روى عن محمد بن يعقوب بن عتبة عن أبيه، قال أن المغيرة (كان يختلف إلى أم جميل، امرأة من بني هلال، وكان لها زوج هلك قبل ذلك من ثقيف، يقال له الحجاج بن عبيد، فكان يدخل عليها، فبلغ ذلك أهل البصرة، فأعظموه، فخرج المغيرة يوماً من الأيام حتى دخل عليها، وقد وضعوا عليها الرصد، فانطلق القوم الذين شهدوا جميعاً، فكشفوا الستر، وقد واقعها)[2].

وقد شهدوا عليه أمام عمر أنهم رأوه بين رجلي أم جميل الازياد ـ كما ذكرنا، لذلك فإن شهادة الثلاثة ردت في نهاية المطاق بسبب الحوار الدقيق الذي أجراه معهم المغيرة.

صحابي مزيف.. ادعى أنه أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ

لم تكن حصيلة المغيرة من (صحبته) للرسول الكريم ﷺ مما يعتد به، إلا ما ذكر عن كونه نائباً لمعاوية في كتابه الحوائج، وحتى هذه تحتاج إلى تأمل وتدبر، وكما تبجح معاوية بوجود قميص لرسول الله ﷺ معه وبعض قلامة أظفاره فإن المغيرة تبجح بأنه كان أحدث الناس عهداً به فقد كان المغيرة بن شعبة يدعي أنه أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ يقول: أخذت خاتمي، فألقيته في القبر، وقلت: إن خاتمي سقط مني، وإنما طرحته عمداً لأمس رسول الله ﷺ فأكون أحدث الناس عهداً به ﷺ[3].

ومع أن ذلك لا يتيح له منزلة خاصة ممتازة، إذ لو أن الأمر كذلك فكيف بمن

(١) ابن الأثير ٢-٣٨٤-٣٨٥ والطبري ٢-٤٩٢-٤٩٣-٤٩٤.

(٢) الطبري ٤٩٢.

(٣) ابن هشام/ السيرة النبوية م ٢ ص ٦٦٤ والطبري ٢/ ٢٣٩.

كانوا بضعة من النبي ﷺ وكانوا نفسه. ومع ذلك فقد حاولت الدعايات المضللة ووسائل الاعلام الأموية المغرضة طمس فضائلهم، ولم يكن لها من هَمٍّ سوى إبراز ما ادعاه معاوية والمغيرة وأمثالهما. مع أن ما ادعياه لا يقدم من الأمر شيئاً ولا يؤخر منه أي شيء.

ومع ذلك فقد كانت هذه كذبة من المغيرة أراد منها رفع شأنه بنظر الناس، فقد روي أن نفراً من أهل العراق سألوا أمير المؤمنين قائلين: (يا أبا حسن جئنا نسألك عن أمر نحب أن تخبرنا عنه؟ قال: أظن المغيرة بن شعبة يحدثكم أنه كان أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ، قالوا: أجل، عن ذلك جئنا نسألك؛ قال: كذب! قال: أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ قُثَم بن عباس)[1].

قاتل عمر بن الخطاب

وكان غلام المغيرة بن شعبة هو الذي قتل عمر بن الخطاب، وهو فيروز أبو لؤلؤة وقتل معه سبعة أشخاص، عندما أبى عمر أن يستجيب لشكواه من المغيرة ـ وكان قد شكا إليه ثقل الخراج. ولسنا بصدد الحديث عن ملابسات تلك القضية، فما لدينا عنها قليل، غير أننا لا نستغرب من المغيرة الذي كان عمر يقرعه كثيراً أن يكون قد حرَّض خادمه على قتل عمر، فهو لم يكن يعير شيئاً باله إلا إذا كانت فيه مصلحته، ولم يكن لأي حساب آخر ـ سوى حساب المصالح والنزعات الأرضية المتدنية ـ قيمة في نظره.

انتهازي متلون

وعندما جعل عبد الرحمن بن عوف الأمر لعثمان في مسألة الشورى التي ابتكرها عمر قال له المغيرة: (يا أبا محمد، قد أصبت إذ بايعت عثمان، ولو بايعت غيره ما رضيناه، قال: كذبت يا أعور! لو بايعتُ غيره لبايعته وقلت هذه المقالة)[2].

لقد عرف عبد الرحمن المغيرة، وأنه متقلب كذاب، وأنه كان يعير اهتمامه لمن سيكون خليفة، ما دام يستطيع تحقيق بعض المطامح في ظله. ولا يفرق عنده إن كان عثماناً أو علياً، فهو مع الغالب، وهو مع من يدفع له.

---

(١) المصدر السابق ٦٦٤. والطبري ٢/ ٢٣٩.

(٢) العقد الفريد ٥-٣٢-٣٣.

كيف التقى الزناة وأولاد الزواني

لا ندري كيف التقى هؤلاء (الدهاة) الأربعة وكيف حصل إن كانوا قريبين إلى بعضهم هذا القرب الشديد. غير أن ما حصل قد حصل. وكانوا أعمدة لهذه الدول المسخ التي لم ينجبها الإسلام ولم تلدها مبادئه وقيمه. وكانوا بلية جلبت معها بليات أكبر على هذه الأمة المنكوبة المضطهدة.

لقد تمرغوا في نعمة الملك والامارة أمداً محدوداً، وكان طمعهم الغريب وهم في ذلك العمر الذي وصل فيه بعضهم إلى أرذله يكاد يكون مدعاة للاستغراب والعجب، أفلم يأن لهم أن يرتدعوا بعد أن أصبحوا على حافة هذه الحياة الدنيا وأوشكوا أن يفدوا على ربهم وحسابه العادل.؟ غير أن من يعمل عملهم ربما لم يجعل في رأسه حساباً لهذا الخالق العادل الرحيم الجبار! ورحم الله الشاعر الذي مر عليه وهو يدفن فقال فيه:

أرسمَ ديارٍ للمغيرة تعرف ... عليها دوي الانس والجن تعزف
فإن كنت قد لاقيت هامان بعدنا ... وفرعون فاعلم أن ذا العرش منصف[1]

لقد غلب عليه ضعفه دائماً، فكان في صف معاوية، وكان من أعمدة الدولة الأموية، فهو داهية المعضلات، وقف مع الدهاة الثلاثة وخدمهم وأعوانهم لاقامة هذه الدولة على أسس فرعونية تلبس زياً إسلامياً براقاً تخدع به جماهير المسلمين وتموه عليهم طبيعة أغراضها وأهدافها.

(١) مروج الذهب -٣٠.

مروان بن الحكم
الشيطان الغبي... قاتل عثمان

الأموي الذي لعنه رسول الله ﷺ في بطن أمه

وابن طريد رسول الله ﷺ، ومَن لعنه ﷺ وهو في بطن أمه، وهو ابن عم عثمان وزوج ابنته، وابن عم معاوية أيضاً، من العائلة الأموية العدوة للإسلام والحاقدة على رسول الله ﷺ، فهو نتاج الحقد الأموي، وهو آلته الخبيثة التي أبرزها في عهد عثمان، وكان أحد الأسباب الرئيسية في مقتله، حيث أن قربه منه ونفوذه وامتداد سيطرته عليه، شكل أحد أهم الأسباب التي نقمها الناس عليه وما نقم الناس على عثمان أنه آوى طريد رسول الله ﷺ الحكم بن أبي العاص، ولم يؤوه أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف، وتصدق رسول الله ﷺ بمهزون ـ موضع سوق في المدينة ـ على المسلمين فأقطعها الحرث بن الحكم أخا مروان، واقطع فدك مروان، وافتتح افريقية فأخذ خمس الفيء فوهبه لمروان)[1].

الوزير الأول لعثمان ـــ عينه ولسانه

لقد كان فتاه المدلل والناطق الرسمي باسمه والناظر في أموره وشؤونه الخاصة والعامة وأمين سره والقائم على أمره، كان مروان هو الذي يسيطر على مقدرات الخليفة الشيخ ومقدرات الدولة الإسلامية التي يديرها هذا الشيخ الضعيف إدارة اسمية، وكان قربه الشديد منه يتيح له أن يعيش في مملكة أسطورية، رغم أن الشيخ يدرك أحياناً من هو مروان ويدرك أنه قد تجاوز حده، فيقرعه عندما يتجاوز هذا الحد ويتصرف بشكل فاضح يثير الناس ويزعجهم، كان يتصرف وكأن هذه الدولة ملك لبني أمية خاصة من دون الناس يتمتعون بها ويتصرفون بها كيف شاءوا، وكان أداة فعالة للانحراف المتسارع والفساد الذي بدأ يظهر بجسم الدولة الإسلامية الناشئة.

---

(١) العقد الفريد ٥-٣٣.

استغلوا ضعف الشيخ فتسللوا إليه

لقد تسلل بهدوء وخبث إلى جوار الشيخ الضعيف واستغل حبه لأقاربه وضعف الشيخوخة به ليتلاعب به ويدمر آخر صورة جميلة ربما بقيت له في بعض الأذهان بحكم انتمائه لصحابة رسول الله ﷺ والتي رسمها له من لم يودّه حقاً ولكنه رسمها نكالًا (بمنافس العائلة الأموية) الذي كان مقدراً له أن يكون على رأس هذه الدولة، لو لم تتلاعب الأهواء وتتصارع المطامع بعيد وفاة رسول الله ﷺ، فحتى عبد الرحمن بن عوف الذي رشحه للخلافة وحتى طلحة والزبير أصبحوا من الناقمين عليه بل والمحرضين بفعل تصرفاته التي كان يبدو مروان وراء أغلبها، بل ورائها كلها، ولم يكن مروان، الذي لم يكن ذا سابقة في الإسلام أو شرف قديم فيه، يجرؤ على الظهور علانية على الشعب المسلم متقدماً أصحاب رسول الله ، بل كان يعمل في الظلام من وراء الأستار، وكانت حياته الظلامية وما يحوكه من خطط لإيقاع الخليفة الشيخ في حبائله، مدعاة لبروز المزيد من الخطط والمكائد والدسائس ضد كل من يلمس أنه قد يكون عقبة في سبيل مجد العائلة الأموية المعاد، والذي كاد أن يضمحل بفعل ظهور الإسلام.

على أنه أظهر نفسه في النهاية بشكل علني سافر وأخذ يتحدى الشعب المسلم وجعل مسألة تحريض عثمان على الإمام شغله الشاغل، مدركاً أن الأمة في خضم وقوعها في غمرة الانحراف المعلن لا بد أن تستنجد به وتلتف حوله في النهاية، فهو المؤهل الوحيد لقيادة الأمة وتخليصها من الورطة التي وقعت فيها.

استغلال السلطة

وعندما أتيحت لمروان فرصة التقرب من عثمان إلى أدنى حد ممكن بعد أن تزوج ابنته أم أبان، استغل ذلك أبشع استغلال وورط الخليفة الشيخ بأخطاء كان فيها حتفه في النهاية و(لم يكن الرجل في ثاني شطري عهده إلا ثوب عثمان وذهن مروان [الذي] كان مفتوناً بالصلف، مستبد النزعة، يثيره النقد حتى الحماقة، ولا يدفعه إلى معالجة الخطأ بقدر ما يدفعه إلى الإصرار عليه، ولم يكن فحسب مشيراً للأمير، ولا وزيراً ينصاع لإرادته ويعمل وفق أمره، ولا أداة يستعين بها عثمان على انجاز ما يريد، ولكنه كان أولئك جميعاً في حساب المظاهر، وكان أيضاً الأمير في حساب الواقع الصريح السافر! وكان امرأ لم يعوزه الخبث إلى جوار الشره وبعد الأهواء، يحرك

بأصابعه الخيط في الناحية التي تمليها عليه شهوته، ويعمل دائماً وهو محجوب عن الناس بهيكل الخليفة الشيخ فيبدو العمل ويبدو عثمان في آن، الخفاء كان ميدانه والدس سلاحه، والتمويه مركبه إلى هواه، أفلا يشي كل هذا بجبن طبعه؟ كانت الكلمة الواحدة يوسوس بها للخليفة كفيلة بما يريد، ولو أن مروان كان حقاً وزير صدق لوسعه أن يتدارك الفتنة وأن يكشف مخلصاً عن مكمنها ثم يشير على ولي نعمته بالعلاج الحاسم، ولكنه كان أمرأ جبان الطبع لا يستطيع أن يواجه الحقائق فاستعان دائماً على الأزمات بأسلحة الظلام.

أَفشى الدس والخدع والوقيعة، ومشى بين الخليفة وبين شعبه، كذلك لم يبق في الأمة رجل مشى إلى الخليفة بكلمة نقد إلا لبسها مروان ثوب باطل ولا دعوة تحدثت بها الشفاه إلا حاول خنقها قبل أن تذيع)[1].

(ولم يكن في هذا بحامي الخليفة ولا بالذائد عنه بقدر ما كان ذائداً عن جاهه هو وعن سلطانه. حارب مروان النقد ليدافع بهذه الحرب عن سلطانه، وحاول خنق حرية الرأي لأن حياته الناعمة وحياة آله لا تكون إلا في ظلام الاستبداد، هو حقاً لم يبد للعيان في صورة المناجز، ولكنه اتخذ من عثمان ستاراً توارى خلفه، وما أحسب خطأ واحداً من أخطاء الشيخ إلا وفيه آثار واضحة من أصابع ابن الطريد)[2].

بداية تفاقم الانحراف في عهد عثمان

وإذ كان لا بد من وقف الانحراف الذي بدأ يهدم جسم الأمة الإسلامية ويزعزع أركانها ويحيلها إلى أمة مملوكة لكسرى أو لقيصر، بدأ الناس يطالبون بقطع أسباب هذا الانحراف وطرد الزمرة الطفيلية التي تسلقت على أكتاف الخليفة العجوز وبدأت تحتكر كل مكاسب الأمة، وفي مقدمتهم مروان ومعاوية وابن عقبة وابن عامر وسعيد وغيرهم دون أن تكون لديهم المؤهلات اللازمة ليساووا حتى أقل المسلمين مستوى وجاهاً ونفوذاً، فكيف بهم وقد أصبحوا سادة وأمراء وحكاماً ومالكين لثروات هائلة يعجز العقل عن تخيلها؟.

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب ـ عبد الفتاح عبد المقصود ج ٢ ط ٤ مكتبة مصر ص ١٦-١٧-٢٣-٢٤.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤-٢٥.

وقد أدرك الناس أن طرد مروان أولاً كان يشكل حاجة ملحة، لأنهم علموا أنه كان شؤماً على الأمة الإسلامية برمتها لأنه كان يتصرف بمقدراتها ويوحي للخليفة العاجز بأفكاره الشيطانية التي كان يحوكها في الظلام والتي من شأنها أن تهدم كيان الدولة وتجعل منها دولة مستبدة لا تمت للإسلام بصلة. ثم عندما رأوا أنه لا يزال مقرباً ومتنفذاً ومسيطراً على شؤون الدولة وقراراتها بدأوا يطالبون برأسه عندما رفض الخليفة إبعاده أو التخلي عنه، رغم الوعود المتكررة منه بذلك، وعندما تيقنوا بشكل قاطع أنه سبب كل المصائب التي لحقت بالإسلام والتي سوف تلحق به في المستقبل إذا ما اتسعت زاوية الانحراف بذلك النمط المتسارع.

وقد اتسع الشق أمام إصرار عثمان على تقريب مروان، حتى رأينا أن المطالبة قد أصبحت بالتالي برأس عثمان نفسه، وهكذا كان نتاج الثورة المسلحة مقتل عثمان وإصابة مروان الذي خيل للثوار أنه قتل أيضاً.

الإمام عليه السلام أول من حاول ايقاف الانحراف

«إني كلمتك مرة بعد أخرى»

كان الإمام عليه السلام يمثل أمل الأمل لتصحيح الانحراف الواضح عن الإسلام في عهد الخليفة الثالث والذي كان يتمثل بالاجراءات الكيفية عند البتّ في العديد من القضايا، وإغداق الأموال على الأقارب، وتعيينهم في أهم مناصب الدولة الحساسة.

(وكان عثمان كثيراً ما يولي بني أمية ممن لم يكن له من رسول الله صلى الله عليه وآله صحبة، وكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، فكان يستعتب فيهم، فلا يعزلهم)[1] لذلك فإن الأمة التي يئست من عدول عثمان عن مواقفه، اتجهت إلى الإمام عليه السلام لكي يحل الأزمة الناشبة بينها وبين الخليفة والتي لا يبدو أنها ستحل ما دام وراء الخليفة الشيخ مستشار أحمق مثل مروان، فكان الإمام كثيراً ما يتوجه بالنصح إلى عثمان ويعاتبه إلى حد التقريع، وكان يَذْهب إليه بنفسه أحياناً وأحياناً يرسل إليه ابنه الحسن عليه السلام لهذا الغرض (وكان كلما اشتكى الناس إليه أمر عثمان، أرسل ابنه الحسن إليه، فلما أكثر عليه، قال له: إنَّ أباك يرى أن أحداً لا يعلم ما يعلم، ونحن

(١) العقد الفريد ٥-٣٧.

أعلم بما نفعل، فكف عنا! فلم يبعث علي ابنه في شيء بعد ذلك)[1] ثم عندما استنجد به عثمان أخيراً، قال له الإمام: (إني قد كلّمتك مرة بعد أخرى، فكل ذلك تخرج وتقول حتى ترجع عنه، وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبدالله بن سعد، فإنك أطعتهم وعصيتني)[2]. وقد اعتذر عثمان مرة أخرى ورجع وخطب في الناس، حتى اقتنع أهل مصر، وهم أغلبية الثائرين ورجعوا.

وهنا كانت عين مروان الأموية ترى أن سبب كل ما أحاق بالخليفة الأموي وحاشيته من علي عليه السلام، كما كان أبوه وعمه أبو سفيان يريان أن سبب كل (بلاء) أو انتقاص لمجد العائلة الأموية من محمد صلى الله عليه وآله، وكان يرى أيضاً أن أمل الأمة بتقويم الانحراف سوف يتحقق عندما تزول المظاهر الطارئة التي أوجدها عثمان بمجرد موته ميتة طبيعية، وهو الآن شيخ قد أشرف على الثمانين، وميتته محققة بين لحظة وأخرى. ويعلم علم اليقين أن الامتيازات الأسطورية التي حصل عليها سوف تسلب منه إذا ما تولى الإمام الخلافة.

لا تنازل عن (المكاسب)

كان مروان يحمل نفس الهاجس الذي يراود معاوية وغيره من الحاشية الضالعة بالشر، وهكذا فإنه لم يكن يقبل أن يتنازل بسهولة عن المكاسب التي حصل عليها وجعل الخليفة الشيخ ضحية لأطماعه، وقد حرضه على التراجع عن الوعود التي قطعها للإمام، وقال له: (تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلًا، ففعل عثمان)[3]. فقد خطب عثمان في الناس قائلًا (اللهم إني أتوب إليك، اللهم إني أتوب إليك! اللهم إني أتوب إليك! والله لئن ردّني الحق إلى أن أكون عبداً قناً لأرضينّ به، إذا دخلت منزلي فادخلوا علي، فوالله لا أحتجب منكم، ولأعطينكم الرضا، ولأزيدنكم على الرضا، ولأنحين مروان وذويه.. فلما دخل أمر بالباب ففتح، ودخل بيته، ودخل عليه مروان، فلم يزل يقتله في الذروة والغارب حتى قتله عن رأيه وأزاله عما كان يريد، فلقد مكث عثمان ثلاثة أيام ما خرج استحياء من الناس) الطبري ٢-٦٦٠.

---

(١) المصدر اسابق ص ٥٦.

(٢) ابن الاثير ٣-٥٤.

(٣) المصدر السابق ص ٥٤.

(وبعد خطبة عثمان، خرج مروان إلى الناس وقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهبنا، شاهت الوجوه إلى من أريد، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، أخرجوا عنا، والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم من أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على أمرنا)[١].

كان كلام مروان ـ وحتى تصرفاته ـ عندما يجري بهذا الشكل الموحي بأن الأمر أمر ملك خاص ببني أمية الذين لا تعرف لهم سابقة في الإسلام، بل سجلت عليهم عداوتهم العنيفة له منذ البداية، تستفز الأمة وتثير سخطها وتولد في نفوس أبنائها حالة من اليأس والقنوط من مستقبل مشرق يحكم فيه الإسلام لا مروان وأشباهه وتصحح فيه المسيرة وتعاد إلى ما كانت عليه، وكان مروان يبدو كرأس الحربة التي يوجهها البيت الأموي لجماهير المسلمين، وكان هو يدرك ذلك ويدرك ما لَهُ من صلاحيات ويندفع بحماقة إلى أقصى حد لإعلان ما لم يجرؤ حتى أحمق الناس من بني أمية لإعلانه وإظهاره، فكأنه كان يستهتر بالأمة ولا يرى أنها أمة إسلامية وحّدها الإسلام وقامت على قيمه ومبادئه، وكان مروان، حينما يتصور أن توجه الأمة إلى علي عليه السلام سيضعه في النهاية في الموقع الصحيح، على رأس الدولة الإسلامية التي انفرد بها عثمان وأقاربه واستأثروا بخيراتها ومكاسبها، يستشيط غضباً من ذلك ويحاول بكل طريقة النيل من الإمام وإظهاره على أنه منافس لعثمان في الملك والسلطة، وحاول عدة مرات تحريض عثمان عليه ودق أسفين العداوة والبغضاء بينهما، رغم أن الجميع ـ ومنهم ـ عثمان يدركون النوايا السليمة للإمام عندما يتقدم بنصائحه إلى عثمان لإنقاذه وإنقاذ الأمة من شر فتنة شاملة تصيب الجميع وتعود على الإسلام بالشر والوبال. ولم يستطع في إحدى المرات عندما جاء الإمام مع جماعة من الناس لإنقاذ الموقف ونصح عثمان، إلا أن ينبري مع جماعة من أقاربه مهددين الإمام وموجهين إليه الاتهام قائلين: (أهلكتنا وصنعت بنا هذا الصنيع. والله لئن بلغت الذين تريد لتمرن عليك الدنيا، فقام مغضباً وعاد هو والجماعة إلى منازلهم)[٢].

لم يكونوا يريدون أن يتنازلوا عن سلطتهم التي اكتسبوها بقرابتهم من الخليفة لأي سبب من الأسباب، ولو أدى ذلك إلى قتل الخليفة نفسه، وهو ما كان يتهدده بالفعل، وهو ما كان يبدو أنهم يريدونه بالفعل، بل ويسعون إلى تحقيقه. إذ كيف

---

(١) نفس المصدر ص ٥٦ والطبري ٦٦٠.

(٢) نفس المصدر ص ٥٣.

يتسنى لهم الخروج على الإمام الذي كانت كل الدلائل تشير إلى أن الأمة كانت تتجه إليه بكل كيانها ومشاعرها. فلو مات عثمان موتاً طبيعياً، ترى ما هو المبرر الذي سيجدونه للخروج على الإمام وإعلان الحرب عليه؟.

كل الناس تكره مروان حتى نائلة زوجة عثمان

وقد أثار موقف مروان من الناس وسبه إياهم واستهانته بهم، وتحريض عثمان على عدم الاستجابة لمطالبهم، التي كان يرى أن في الاستجابة لها وهناً بمركز الخليفة وذويه وربما زيادة الهوة بينه وبين الناس مما يفوت عليه الفرصة لإقدامهم على قتله وهو ما يبدو أنه قد سعى إليه مع معاوية بكل جد ودبرا هذه النهاية المشؤومة للشيخ الفاني. أثار موقف مروان هذا غيض نائله بنت القرافصة زوج عثمان التي قطعت أصابعها عندما هجم الثوار على عثمان وقتلوه، وقد حَنقت على مروان. (وكانت نائلة زوج عثمان تكره مروان وتكره تدخله في الأمر)[1] وكانت ترى أنه قد تمادى في ذلك إلى أبعد الحدود، وأنه سبب كل المشاكل التي تحيط بعثمان وتوشك أن تودي به، وكان تشخيصها لقيمة مروان وشخصيته تشخيصاً دقيقاً حيث أدركت وهي القريبة منه والمنتمية إلى العائلة الأموية بحكم زواجها من عميدها أن مروان قد سيطر على زوجها سيطرة تامة وأن كره الناس لعثمان إنما يعود سببه لكرههم هذه الشخصية الغبية النزقة التي لم تعرف لها سابقة في الإسلام والتي أصبحت تدير أمور الدولة إدارة تامة وتتلاعب بمقدراتها بشكل كيفي وعبثي فاضح، وقد جاءت في النهاية إلى زوجها عثمان محذرة إيَّاه من مروان وطلبت منه إبعاده قائلة: (وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما تركك الناس لمكانه)[2].

وقد أصبح مروان وحده قضية بأكملها، بل أصبح هو القضية الأساسية، حتى أن الثائرين قد طلبوا من عثمان. (أحد أمور ثلاثة، إما أن يعزل نفسه، أو يسلّم إليهم مروان بن الحكم أو يقتلوه، فكانوا يرجون أن يسلم إلى الناس مروان أو يعزل نفسه فيستريح)[3].

---

(١) نفس المصدر ٥٦.

(٢) نفس المصدر ٥٧.

(٣) ابن كثير ٤/٢١٦-٢١٧.

وهكذا قتل عثمان بسبب مروان ومعاوية وأَضرابهما ممن قربهم إليه لإدارة شؤون الدولة الإسلامية الناشئة، ومن الغريب أنهما شخصياً جنيا في النهاية المكاسب التي أعقبت ذلك واستثمرا مقتله إلى أبعد الحدود!

مروان ومعاوية أعدّا وأخرجا مسرحية قتل عثمان

ومهما يقال عن مقتل عثمان، وبواعث الثورة عليه، فإن الوقائع التاريخية تجمع على الأسباب التي ذكرت في هذا الفصل والفصل السابق، لو جردنا القضية من (الأموية)، وبعبارة أخرى، لو نظرنا نظرة حيادية غير متحيزة إلى القضية بمجملها كواقعة من وقائع التاريخ الإسلامي، يتعامل معها الجميع وفق تصوراتهم وفهمهم للإسلام ومصالحهم التي تقترب بعضها من مصلحة الإسلام حتى تكون نفسها هي هذه المصلحة، كما هو الحال مع الإمام عليه السلام وتبتعد بعضها عنه حتى لا نكاد نجد أي رابطة تربطها به كما هو الحال مع الحزب الأموي الذي سيطر بعد ذلك على كل الدولة الإسلامية، وصور قضيته على أنها القضية العادلة الواقعية الموضوعية، وأنها قضية الأغلبية من أبناء الأمة، وأن الإمام عليه السلام كان مجحفاً بتصديه لهم وساعد فوز الأمويين على الاستئثار بكل شيء على انطلاء هذه الحيلة المعدة إعداداً جيداً ومتقناً على الكثير من المسلمين وخصوصاً في الشام الذين عرفوا الإسلام الأموي فقط، ذلك الذي صوره لهم معاوية وتلقوه عنه شخصياً، فقد كان تعرفهم عليه عن طريقه، وكانوا نتاج تربيته ونتاج يديه الماهرتين وحذقه في شؤون السياسة والحياة.! كما أن أولئك الذين لم تنطل عليهم أحابيل معاوية وحيله لم يتمكنوا من الإعراب عن آرائهم صراحة ولم يكن بإمكانهم سوى السكوت، وكان معاوية أمهر القادرين على إسكات الناس بمختلف الأساليب، وقد تعرضنا إلى بعضها في هذه الدراسة.

إن مواقف الأمويين، وحتى تلك المواقف الخاطئة المتكررة لمروان وأضرابه، لا تدل على مجرد فورة عاطفية أو ميل مجرد للعائلة والأهل، وإنما تعبر عن استعداد كامل للم شعث هذه العائلة، ورص صفوف أبنائها لمواجهة ما احتملوا أن يواجهوه، مما قد يعمل على نقض بنيانهم الذي رأوه صاعداً وهم يرون أن رأس الدولة ومعظم ولاته وحاشيته منهم هم، فليس من السهل عليهم أن يتخلوا عن كل ذلك ببساطة بمجرد أن يموت الخليفة موتاً طبيعياً، ولا بد من إعداد لهذا الموت وإخراج جيد له.

وهكذا فإن مواقف مروان لا يمكن تبريرها كلها بأنها كانت نتيجة اندفاعات الشباب والطيش وعدم الحكمة أو أنها كانت تعبر عن ميل عاطفي مجرد لعثمان، إذ أنها لم تكن تصرفات مروان لوحده وإنما عكست تصرفات كل أعضاءالأسرة الأموية الذين حاولوا استفزاز الأمة وفي مقدمتها الإمام عليه السلام، وقد رأينا موقف معاوية من مجموعة من المسلمين كان الإمام عليه السلام معهم وتحذير معاوية لهم بشكل وأسلوب متعالٍ مدروس لا شك أنه أراد من ورائه إعطاء انطباع للأمة بأن الأوامر ملك خاص لا شأن لأحد به أو مناقشته مهما كان مركزه أو قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو سابقته في الإسلام!.

وقد بدا بشكل واضح أن معاوية ومروان وكل أعضاء البيت الأموي أرادوا جر الإمام عليه السلام ليكون طرفاً معلناً العداء لعثمان، ليستثمروا ذلك في النهاية ويخرجوا عليه إذا ما أصبح في موقع القيادة الفعلية للأمة، ومع أنه أفشل مخططاتهم، لا لمجرد إفشال هذه المخططات، بل بفعل مبدئي ثابت، ولم يحرض أحداً على عثمان، بل على العكس، حاول منع وقوع المأساة التي لم تود بعثمان وحده، وإنما أثرت على مسيرة كل الأحداث فيما بعد ـ كما تنبأ الإمام وأوضحناه ـ بإسداء النصح المتكرر لعثمان، حتى منعه عثمان من ذلك.

كان مروان يجابه حاله مستعجلة لا بد فيها من حسم سريع، وكان لا بد أن يتصدى بكل الوسائل الممكنة لمن حسب أنهم يريدون الاستحواذ على ملكهم كما صرح بذلك أمام الثوار. وهكذا فإن تصرفاته لم تكن مجرد نزوات عابرة في رأسه وإنما كانت نتيجة موقف مبيت مرسوم لاستفزاز الأمة وإخراجها عن طورها لكي يكون تصرفها العفوي في مصلحة البيت الأموي في النهاية ليمكن اسثماره من قبلهم إلى أقصى حد ممكن.

وهكذا كان الأمر كما خطط له معاوية ونفذه مروان.

مروان.. قاتل طلحة يوم الجمل

لقد التحق مروان بالخارجين على الإمام في معركة الجمل أولًا، ثم بمعاوية بعد ذلك، وشاء سوء حظ طلحة الذي كان مروان أحد أتباعه في تلك المعركة، أن يقتل على يديه (وكان الذي رمى طلحة مروان بن الحكم)[1].

---

(١) ابن الأثير ٣-١٣٢ والطبري ٣-٤١.

(لما رأى مروان بن الحكم يوم الجمل طلحة بن عبيدالله، قال: لا أنتظر بعد اليوم بثأري في عثمان، فانتزع له سهماً فقتله)[١].

وقد روي أنه أخذ أسيراً يوم الجمل (فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلماه فيه، فخلى سبيله، فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أولم يبايعني بعد قتل عثمان؟ لا حاجة لي في بيعته! إنها كف يهودية، لو بايعني بكفه لغدر بسبته، أما أن له أمره كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر)[٢] وقد تحقق ما قاله الإمام عليه السلام، ولا بد أن علمه بذلك كان عن رسول الله صلى الله عليه وآله.. ولقيت الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر.

أفل نجمه أمام نجم معاوية ويزيد

وقد رأينا الملابسات العديدة التي وضعت معاوية على كرسي الخلافة، وفي كل هذه السنين التي واجه فيها معاوية الإمام عليه السلام لم نجد موقفاً بارزاً لمروان، ويبدو أن نجم معاوية قد غلب نجمه، حيث قبع بعد ولاية معاوية في المدينة يجتر مكاسب قتل عثمان. وقد عبر عن ذلك معاوية صراحة بقوله لسعيد بن العاص: (إنه كصاحب الخبزة، كفي إنضاجها فأكلها)[٣]. ويبدو أن معاوية وجد فيه منافساً محتملًا أو خليفة له قد يحتل مكانه في النهاية مُرجَّحاً على يزيد، لذلك فإنه يبدو أنه قد أبعد الأضواء عنه وأهمله إلى حد بعيد، وغاية ما حمله من مسؤوليات أنه كان يوليه المدينة سنة ويوليها سعيد بن العاص سنة أخرى، وكان يحرض أحدهما على الآخر ويكيد بينهما. وربما أراد إضعافه إلى الحد الذي يتمكن فيه من إتمام البيعة ليزيد.

وهنا تتضارب الأخبار في موقف مروان من هذه البيعة، فأحدها يذكر أن معاوية عندما أراد مبايعة يزيد بولاية العهد، كتب بهذه البيعة إلى الأمصار، ومنها المدينة، وعامله عليها مروان بن الحكم، وقد غضب مروان عند سماعه ذلك (فخرج مغضباً في أهل بيته وأخواله من بني كنانة حتى أتى دمشق فنزلها، ودخل على معاوية يمشي بين السماطين، حتى إذا كان منه بقدر ما يسمعه صوته، سلم وتكلم بكلام كثير يوبخ

(١) مروج الذهب ٥-٧٠.
(٢) نهج البلاغة ـ دار لكتاب اللبناني ص ١٠٢.
(٣) العقد الفريد ١/ ٢٥١.

فيه معاوية منه: أقم الأمور يا ابن أبي سفيان وأعدل عن تأميرك الصبيان، واعلم أن لك من قومك نظراء، وأن لك على مناوأتهم وزراء)[1]. وقد هدأه معاوية وأوعده بولاية العهد من بعد يزيد. فمروان كان يطمح للخلافة، وربما كان متفقاً منذ البداية مع معاوية على أن تؤول إليه من بعده، وكان يعد نفسه نظيراً له، وكان الغضب من تولية يزيد هو رد الفعل الطبيعي لديه فهو يرى في استخلافه تعدياً على حقوقه ونقضاً للاتفاق التي قد يكون مبرماً بينهما على الأرجح.

غير أن هذه الرواية التي تروى لنا عن الغضب الذي اجتاح مروان، حتى أن سفرته الطويلة من المدينة إلى الشام لم تستطع أن تطفىء سورته، وأبى إلا أن يعلن عنه أمام معاوية بهذه الشدة، تناقضها روايات أخرى.

فإحداها تقول أنه قام خطيباً في أهل المدينة عندما وصله خبر استخلاف يزيد، وقال لهم: (إن أمير المؤمنين قد اختار لكم، فلم يأل جهداً، وقد استخلف ابنه يزيد بعده)[2].

وأخرى تروي أنه قام خطيباً فيهم (فحثهم على الطاعة، وحذرهم الفتنة، ودعاهم إلى بيعة يزيد)[3]. ونرى من خلال هذين النصين أنه قد قبل باستخلاف يزيد وروّج له وحث عليه، ولم يجد في نفسه قوة للوقوف بوجه معاوية والاعتراض على هذا الأمر، كما يدللان على تراجعه وصمود شخصيته أمام شخصية معاوية القوية المتحدية، بل وحتى أمام يزيد. ومهما يكن فإن الصفقة التي عقداها لم تتم في حينها، وجاءت متأخرة بعد هلاك يزيد على رغم معاوية. وأصبح مروان خليفة المسلمين و (أمير المؤمنين) وأورثها من بعده أولاده الأربعة الذين لقيت منهم الأمة بأساً شديداً وشراً منقطع النظير.

مأثرته الوحيدة.. بغض أهل البيت عليهم السلام

تحريض على قتل الحسين عليه السلام

لقد عاش مروان بدايات الانحراف، وشهد نهاياتها على عهد معاوية ويزيد،

---

(١) مروج الذهب ٣٢.

(٢) ابن الأثير ٣-٣٥١.

(٣) العقد الفريد -٥-١١٢.

وكان شاهداً حياً على كل ما وقع من انتهاكات صريحة وخروج واضح عن الإسلام في كل المجالات، ولم تخف عنه خفايا مسيرة هذا الانحراف وخطواته ومراحله.

وقد قبع في بيته في المدينة نائباً عن معاوية أو معزولاً عن الولاية، ولعل معاوية قد أتاح له أن يغترف ما يشاء من أموال المسلمين، ما دام قد كرس وقته وجهده لحماية العرش الأموي، وحسبه أن يظل متنعماً مرفهاً ما دام الأمر قد مهد بحيث لا يخرج عن هذا البيت الذي ينتمي إليه.

على أن أهم ما طبع شخصية مروان هو كرهه الشديد لآل الرسول ﷺ، وقد عمل على إحداث فجوة بين عثمان والإمام في بداية الأمر، وكان يتصدى بكل السبل للإمام عليه السلام ويحاول النيل منه. كما منع قيام المسلمين بدفن الإمام الحسن عليه السلام قرب جده رسول الله ﷺ، مدللاً بذلك على حقده الأسود على آل البيت. وفي النهاية حاول تحريض والي المدينة الوليد بن عتبة على الإمام الحسين عليه السلام واقترح عليه قتله أو إجباره على البيعة ليزيد وذلك عند ورود خبر هلاك معاوية إلى المدينة، وقد رفض الوليد ذلك قائلاً: (إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني، والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها، وإني قتلت حسيناً، سبحان الله! أقتل حسيناً إن قال: لا أبايع! والله إني لا أظن امرأً يحاسب بدم حسين بخفيف الميزان عند الله يوم القيامة)[1].

كان مروان أبرز ممثل للصلف والغرور الأمويين، وأكثر المجاهرين بالعداء لآل رسول الله ﷺ.

قطعة مهملة من أحجار الشطرنج

ولم يكن حضوره واضحاً في رسم السياسة الأموية ومسيرتها بعد مقتل عثمان، ولم يكن من الذين يصيغون القرارات ويشاركون مشاركة فعالة في هذه السياسة إلا بعد موت يزيد ثم معاوية ابنه من بعده، حيث طمع في الخلافة كثيرون حتى عبيدالله بن زياد بن سمية.

ويبدو أن مروان لم يكن يملك المؤهلات التي يملكها الدهاة الأربعة، وأن تأثيره السابق كان منصباً على الخليفة الضعيف عثمان، ولذلك لم يأخذ دوراً رئيسياً

(١) الطبري -٣-٢٧٠.

في إدارة هذه الدولة وأن تقريبه كان بسبب انتمائه للعائلة الأموية وأحد الرموز السابقة المقربة من عثمان، أما مؤهلاته الشخصية فلم تكن مما يفتخر به. غير أنه كما قلنا كان ممثل الانحراف وشاهده الحي وعرابه القديم.

على أن أقذر دور قام به في واقعة الحرة المشؤومة ضد أصحاب رسول الله ﷺ وأنصاره، حيث حرض يزيد على أهل المدينة، ومهد لدخول مسلم بن عقبة المري إليها واستباحتها بشكل يندى له جبين الإنسانية.

لم يحسن مروان العمل إلا في الظلام، وكانت نفسه الشيطانية تخشى النور وتهرب منه.

كاد أن يبايع ابن الزبير لولا أن منعه ابن زياد

لقد تضاءل دور مروان إلى حد بعيد، ولم يعد يتطلع إلى الخلافة أو يطمح إليها حتى عند موت يزيد ومعاوية ابنه من بعده. وعندما رأى إقبال الناس على مبايعة ابن الزبير واجابتهم له (فأراد أن يلحق به وينضاف إلى جملته، فمنعه من ذلك عبيدالله بن زياد، وقال له: إنك شيخ بني عبد مناف فلا تعمل)[١]، فكان ذلك أول ما حرَّك مطامعه بهذه الخلافة. ثم التقى بعد ذلك عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، وعرض عليه أن يدعو الناس إليه، على أن يكون ولي عهده، أو ولي عهد خالد بن يزيد من بعده، فاتفقا على ذلك، فمضى الأشدق يدعو إليه الناس إلى أن تم له الأمر.

ليس نقاتل إلا عن عرض دنيا

ويبدو أن الناس قد علموا طبيعة هؤلاء المتخلفين الذين لا يتعاملون إلا بالقسوة والرشوة يعطون المال من يشاؤون ويمنعونه عمن يشاؤون. وقد أصبح التعامل معهم علنياً يتم على هذا الأساس؛ فقد اشترط حسان بن مالك، وكان رئيس قحطان، وسيدها بالشام على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد منها: (أن يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين، وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي منهم ومشورة، فرضي مروان بذلك فانقاد إليه. وقال له مالك بن هبيرة

(١) مروج الذهب ١٠٣.

اليشكري: إنه ليست لك في أعناقنا بيعة، وليس نقاتل إلا عن عرض دنيا، فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك، وإن تكن الأخرى، فوالله ما قريش عندنا إلا سواء، فأجابه مروان إلى ما سأل)[١].

هكذا قالوا له صراحة: ليس نقاتل إلا عن عرض دنيا، وإن كنت لنا كما كان معاوية ويزيد نصرناك، واعط كل واحد منا ألفين، ونحن أهل الحل والعقد... أما على أي أساس يمنح هذه الامتيازات لمن يتعاملون معه بهذه الصراحة ويقولون له: ليس نقاتل إلا عن عرض دنيا، لا دفاعاً عن الإسلام أو المبادىء، وكيف يبرر جلوسه خليفة لرسول الله ﷺ، وكيف يبرر الشرعية التي يريد أن يزين بها عرشه، فهذا يبدو أنه أمر لا يهتم به مروان كما لم يهتم به معاوية أو يزيد من قبل، فالشرعية - بعد مرور هذا الزمن ووصول المجتمع الإسلامي إلى هذه الحال من الحذر والكسل واللامبالاة - لم تعد أمراً ذا بال.

ولله در الشاعر الظريف، أخ مروان نفسه عبد الرحمن بن الحكم، عندما قال في أخيه (خيط باطل) كما كان يدعى

مروان: خيط باطل أهل الدار أدرى بما فيها

لحى الله قوماً أمرّوا خيط باطل ... على الناس يعطي ما يشاء ويمنع[٢]

لقد أدرك هذا الشاعر أن كل واحد من قومه، آل أمية خيط باطل، وأنه يعطي ما يشاء ويمنع ما يشاء أيضاً، ما دام لا يتقيد بدين أو منهج ثابت في الحياة، وما دامت مصلحته ورغباته ونزواته هي وحدها التي تسيره وتتحكم فيه.

بطل مسرحي

وقد رويت قصة هزلية عن (قبول) مروان لمنصب الخلافة، وقد أريد بها الإيحاء بأنه كان زاهداً عنها ومنصرفاً إلى كتاب الله يتلوه في كل وقت من أوقات يومه، فعند موت معاوية بن يزيد، وإقبال الناس إلى ابن الزبير، تشاور رجال بني أمية مع أشراف وجوه أهل الشام، ورفضوا أن ينتقل (ملك أهل الشام) إلى الحجاز، ورأوا

(١) المصدر السابق -١٠٤.
(٢) المصدر السابق ١٠٤.

أن يختاروا رجلًا منهم لهذا الأمر، فوقع اختيارهم على مروان (فأتوا مروان بن الحكم، فإذا عنده مصباح، وإذا هم يسمعون صوته بالقرآن، فاستأذنوا ودخلوا عليه، فقالوا: يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر. فقال: استخيروا الله واسألوا أن يختار لأمة محمد ﷺ خيرها وأعدلها. فقال له روح بن زنباع الجذامي: إن معي أربعمائة من جذام، فأنا آمرهم أن يتقدموا في المسجد غداً، ومر أنت ابنك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليه فإذا فعل ذلك، تنادوا من جانب المسجد: صدقت، صدقت، فيظن الناس أن أمرهم واحد، فلما اجتمع الناس، قام عبد العزيز، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان كبير قريش وسيدها، والذي نفسي بيده، لقد شابت ذراعاه من الكبر، فقال الجذاميون: صدقت صدقت، فقال خالد بن يزيد: أمرٌ دبِّر بليل، فبايعوا مروان بن الحكم)[١].

وهكذا تم إخراج هذا الفصل الهزلي الجديد الذي دبر بليل وأخرج هذا الإخراج وتوزع أبطاله وممثلوه على خشبة المسرح، والذي حرف (الخلافة) وصرفها عن آل أبي سفيان لآل مروان، لتبدأ سلسلة (الخلفاء) الظرفاء المتحررين من كل (قيود) الإسلام والتزاماته، وكان الفضل في ذلك لشيخهم الذي شابت ذراعاه من الكبر، وهو يتلو كتاب الله وينظر فيه ولا شاغل له غيره، والذي كانوا يسمعون صوته وهو يقرأ القرآن من مسافة بعيدة، والذي كان خير أمة محمد وأعدلها، هذه الأمة التي استجاب الله دعاءها فوهبه لها. والذي مهد لهم الطريق إلى العرش الجميل الذي استأثروا به دون الناس جميعاً.

قادة أم أعضاء عصابة سرّية

ولا نريد أن نتعرض بالتفصيل إلى كل رموز الحكم الأموي والحاشية الأموية، وقد استعرضنا نماذج منهم ورأينا أنهم كانوا القادة الحقيقيين الذين يتحكمون بمصير الأمة الإسلامية ومقدراتها. ولن نتكلم عن أبي الأعور السلمي وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس والنعمان بن بشير وسفيان بن عوف وعبد الله بن مسعدة الفزاري وبسر بن أبي أرطأة ومسلم بن عقبة ووردان والحارث بن عبدالله الأزدي ومعاوية بن خديج وسعيد بن العاص وسمرة بن جندب وغيرهم

(١) العقد الفريد ٥/ ١٣٤.

وغيرهم... فهم كانوا أدوات بيد معاوية ولم يذكر التاريخ لنا أنهم كانوا حريصين على الإسلام بقدر حرصهم على ما نالوه من جاه ومكانة في ظل النظام الأموي الجديد.

إن كرسي الخلافة الإسلامية قد سرق و(ذبح) بطريقة غير إسلامية، وإن الطريق إليه كان عبر الرشوة والغش والارهاب.

أما ما زعم عن ذلك الدهاء الأموي، فلم يكن إلا تمويهاً، فالدهاء الأموي كان عبارة عن عمليات متسلسلة من الكذب والخداع والمداهنة والنميمة والتفرقة ولم يكن ينجح وحده في مواجهة استقامة الإسلام وقوة مبادئه لو لم يرافقه السيف والارهاب وضروب الرشوة!.

وحتى في يومنا هذا يوجد من يعتقدون أن معاوية كان حملًا وديعاً، وأنه نال ما ناله بفضل حلمه وصبره وتسامحه ومروءته، متناسين شلة الارهاب من القادة والعمال ورؤساء القبائل الذين أحاطوا بعرشه، وأنه تصدى بكل عنف لجميع من رأى أنهم كانوا يشكلون عقبة بطريق الزعامة الأموية، وكان أمره مع الإمام عليه السلام نفسه وتحريضه أهل الشام معروفاً لا يمكن تجاهله.

الارهاب الرسمي.. هو الشرعي

وحسبنا أن نرى أن استعانته بمجموعة من الإرهابيين والقتلة الرسميين المتسترين بشرعية الدولة والمتذرعين بالحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية، كانت تدل على توجهه الدموي لتنفيذ أغراضه إذا ما فشلت سياسته مع من يريد ترويضهم وإخضاعهم والتغلب عليهم.

كان معاوية يزين تهديداته بابتسامة عريضة، وهو يتوجه إلى قريش بحديثه قائلًا: (ألا أخبركم عني وعنكم، قالوا: بلى. قال: فأطير إذ وقعتم، واقع إذ طرتم. ولو وافق طيراني طيرانكم سقطنا جميعاً)[١].

وإذ أن الجو لا يتسع إلا لطائر واحد، فمن عسى أن يكون هذا الطائر سوى معاوية نفسه. وما على قريش ـ وغير قريش ـ إلا أن تستسلم وتلقي أعنتها لمعاوية وأهل الشام الذين رباهم على مفاهيمه وقيمه وتصوراته.

---

(١) العقد الفريد ٥-١٠٦.

ولم يحاول معاوية أن يتستر في النهاية على العديد من خططه وآرائه، فبعد أن استقامت له الأمور، أعلن خروجه السافر عن القيم السماوية العليا، والتصاقه بقيم الأرض وحدها، فهو ابن الدنيا، وهي أمه، هكذا أعلنها صراحة عندما قدم المدينة، وقال في حديث له مع أهلها، أولئك الذين عاش العديدون منهم عهد رسول الله ﷺ ولا يزالون يتنفسون في الجو الإسلامي الذي أوجده في عاصمة الإسلام ويتنسمون رائحة الرسول العظيم (وأما أنا فمالت بي، وملت بها ـ (يقصد الدنيا) ـ وأنا ألنها، فهي أمي وأنا ابنها فإن لم تجدوني خيركم، فأنا خير لكم)[1].

فهو يعلم، أنهم يعلمون، أنه ليس خيرهم، وربما وجد من يهمس بذلك إذا لم يقله أمامه صراحة، غير أنه يشهد لنفسه بأنه خير لهم (لدنياهم) وأن عطاءه غير محدود بقانون أو نظام، لمن يمدون إليه أيديهم، ويوافقونه على امرته ويقفون وراء عرشه. وقد كان من الحصافة وبعد النظر بحيث لم يدع أمام الناس بأنه خيرهم، وكانت مواقفه وتصريحاته ورسائله وخطبه تعبر عن ذلك بكل وضوح وصراحة. إنه يقول لهم أنه إنسان أرضي دنيوي لا يريد أن يملك أي تصور صحيح عن الإسلام وقيم السماء العليا التي نزل بها الأمين جبرئيل إلى الأمين محمد ﷺ، وأنه لا يستطيع أن يلتزم حتى بالحدود التي التزمها أبو بكر وعمر بل وحتى عثمان، فكيف يمكن أن يلتزم بخط النبي ﷺ نفسه، ذلك الذي التزمه الإمام عليه السلام من بعده؟ إنه أمر بعيد عن التصور والامكان والواقع، وليس على أحد أن يفكر به أو يجعله بباله بأي حال من الأحوال. ومع ذلك فإنه يتمنى بالتالي لكل من يقول أنه يبتعد عن شرعية الإسلام ومبادئه وأصوله، في حكمه وحياته، ويتصدى لكل معارض بقوة السيف أو بالرشوة أو بالرد المملوء بالمغالطات والأكاذيب والدجل.

لماذا الدفاع عن معاوية وأقطاب النظام الأموي

ومع ذلك فإننا نجد من ينبري للدفاع عن معاوية، الذي لم يكلف أحد للدفاع عنه ويحاول ستر ما حاول هو كشفه. !.

أترى أنها مسألة عاطفية بحتة، متعلقة بمقتل عثمان، إن معاوية لجأ إلى سب الإمام عليه السلام علناً فوق منابر أقطار الخلافة. ؟ لأنه كان يعتقد أن الإمام عليه السلام مسؤول عن قتل عثمان. !.

---

(١) المصدر السابق ٥-١٠٧.

لا نعتقد ذلك، ولا نعتقد أن معاوية نفسه يعتقد ذلك، فهو يعلم أنه نفسه أحد قتلة عثمان وأحد المسببين الرئيسيين لذلك، لكنه لجأ إلى هذا الأسلوب المباشر في المواجهة، حتى بعد غياب الخصم ووفاته، ليعلن أنه سيلجأ إلى هذا الأسلوب الشديد لكل من تسول له نفسه أن يعادي العائلة الأموية المالكة، وكانت جرأته التي بلغت حد الفظاظة، ملفتة للنظر حقاً، ومحذرة أولئك الذين لا يصلون إلى مستوى الإمام بأي حال من الأحوال، فإذا كان حاله هكذا مع أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يعرف موقعه من الرسول صلى الله عليه وآله ومن المسلمين ويعترف له صراحة بالتفوق والجدارة، فكيف سيكون مع أولئك الآخرين الذين قد يفكرون بمناوأة الدولة الأموية أو الخروج عليها.؟ إنه تحذير لكل الآخرين بضرورة الاستسلام النهائي وإلى الأبد لمعاوية ودولته.!.

ومن شابه أباه فما ظلم

لقد قتل معاوية سنة ثلاث وخمسين حجر بن عدي الكندي (وهو أول من قتل صبراً في الإسلام)[1]، لأنه تولى أبا تراب، وهو أمير المؤمنين عليه السلام، (والحق به من وافقه على قوله من أصحابه)[2]، وكان قتل حجر إيذاناً بحرب معلنة، مستمرة على كل من يوالي أمير المؤمنين وآله عليهم السلام ويوالي الإسلام ومبادئه الحقة.

وقد أدرك معاوية أن يزيد الذي كان يسفر عن سلوكه ونواياه وتصرفاته، وبما واجه بعض (المتاعب) و (الصعوبات) من أهل المدينة أو من بعض أهل الأقطار الإسلامية الأخرى. فقد روي (إن معاوية قال ليزيد: إن لك من أهل المدينة يوماً، فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة، فإنه رجل قد عرفت نصيحته.!)[3].

وهكذا كان فعلًا، أرسل يزيد مسلم بن عقبة إلى المدينة فاستباحها في واقعة الحرة المشهورة، التي لا تكاد تذكر إلا كنقطة سوداء في تاريخ العرب ولا نقول المسلمين.! وسنتطرق إلى هذه الواقعة عند الحديث عن نتائج ثورة الحسين عليه السلام.

ولا يعتقدن أحد أن معاوية كان يقل عن يزيد دموية وتهوراً، فما فعله يزيد كان بوصايا من معاوية كما رأينا قبل قليل وكما سنرى عندما حذره من ثورة محتملة

(١) مروج الذهب ص ٣-٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ابن الأثير ٣-٤٥٦.

للحسين عليه السلام ضده. وكانت وصيته إلى بسر بن أبي أرطأة أحد قادته العسكريين حين أرسله إلى الحجاز واليمن (سر حتى تمر بالمدينة فاطرد الناس وأخف من مررت به وانهب أموال كل من أصبت له مالاً ممن لم يكن قد دخل في طاعتنا)(١).

ويصف الطبري وابن الأثير ما فعلته جيوش معاوية بقيادة بسر هذا وقائده الآخر سفيان بن عوف الغامدي حين أرسله إلى العراق وقد أوصاه أيضاً (أقتل كل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، واخرب كل ما مررت به من قرى)(٢)

وشتان بين هذه الوصايا القاسية، ووصايا الإمام الشهيرة لقواده والتي يأمرهم فيها الرفق حتى بالحيوان، ناهيك بالإنسان، بل وتبين لهم أدق التفاصيل في كيفية الرفق به. فهو عليه السلام يرى لكل شيء قيمة في ظل الإسلام وتصوراته حتى لو كان حيواناً أعجم ومنع العبث به أو الاستهانة به(٣). وكانت وصاياه بضعاف الناس وفقرائهم تفيض حناناً ودقة، كما أنه حذر بشدة من سفك الدماء، فإن هذا أول شيء تحاسب عليه البشرية يوم القيامة(٤).

---

(١) نهج البلاغة ص ١١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ولا نرى بأساً من ايراد بعض وصاياه لبعض من كان يستعمله على الصدقات (ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ولا تسوءَن صاحبها فيها. ولا توكّل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً، غير معنف ولا مُجحف ولا ملغب ولا مُتعب. فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه ألا يحول بين ناقة وبين فصيلها، ولا يَمصرُ لبنها فيضر ذلك بولدها ويلا يجهدنّها ركوباً وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها. وليرفه على اللاغب، وليستأن بالنقب وليوردها ما تمر به من العذر، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق وليروحها في الساعات وليمهلها عند النطاف والأعشاب. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج. (نهج البلاغة ٣٨١-٣٨٢-٤٣٦).

(٤) ففي وصيته إلى مالك الأشتر حين ولاه على مصر قال عليه السلام: (إياك والدماءَ وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدنى لنقمةٍ ولا أعظم لتبعةٍ، ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها. والله سبحانه مبتدىء بالحكم بين العباد، فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه، بل يزيله وينقله ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العَمد لأنه فيه قود البدن. وإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة، فإن في الوكزة فما فوقها مقتله، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم) نهج البلاغة ٤٤٣ ولا يخفى على القارىء ما في هذه الوصايا من لمسات إنسانية، هي لمسات الإسلام وتعاليمه الرحيمة.

تلاقفوها...!

لقد كان من ذكرناهم نماذج بارزة (للقيادة) التي تجمعت حول معاوية، وضمت الأقارب الأمويين بالدرجة الأولى ومن يدينون بالولاء لسيد العرش الأموي ويتبنى مواقفه وأساليبه، وأولئك الذين تحلقوا حوله طلباً للثروة والمنصب، حتى أنهم تساوموا بشكل مكشوف وعلني، طالبين حصصهم في هذه الدولة (الإسلامية) التي استأثر بها معاوية لنفسه وعائلته وأقاربه، وإذا ما أضيفت الحاشية المقربة التي تضم أبناء هؤلاء وأقاربهم وعوائلهم وأنسباءهم، والذين نشأوا في أحضان الترف والنعيم والبطالة، لرأينا أن مداً جديداً يوشك أن يكتسح الأمة الإسلامية، يتكون من هؤلاء المترفين الذين نشأوا على قيم ومبادىء وحياة جديدة مغايرة تماماً للحياة الإسلامية الأصيلة.

وفيما بعد، كان يزيد يدرك كل الإدراك أن التمويه وأساليب الخداع والغش التي استعملها معاوية للتغطية على سلوكه وتستره ببعض مظاهر الدين ما كان ليستطيعه هو أو من يأتي بعده، لذلك فإنه أعلن الأمر صراحة عندما أفضى الأمر إليه، متحدثاً عن معاوية (وكان دون من كان قبله وخير من بعده)[١].

لقد كانت قناعة هؤلاء أن الدين لم يكن سوى ومضه سريعة اختفت بمجرد أن أشرقت وأن لا أمل بوجود صفوة مقربة من الإسلام تنظر بمقاييسه وقيمه وتصوراته، وإن الانحدار لا بد أن يشمل الجميع، ليظل الإسلام مجرد أثر غابر، لم يمر بهذه الحياة إلا مروراً عابراً، وحلماً بعيد التحقيق على أرض الواقع. فإذا كان معاوية خير من بعده كما عبر عن ذلك يزيد، فإنه أراد بذلك التمهيد لقبوله هو، ذي التصرفات المكشوفة، والذي ما كان ليصل إلى مستوى معاوية المتستر المتخفي. لأنه لم يملك من الحصافة والدهاء وبعد النظر ما يمكنه من التظاهر بما كان يتظاهر به أبوه، أو يتعامل بحذر مثله أمام مختلف المواقف الحياتية المتنوعة، ولعل يزيد يريد أن يوحي هنا أنه هو أيضاً أفضل ممن سيجيء من بعده أيضاً. فهل كان كذلك فعلًا؟ بالنسبة للعائلة الأموية المتفسخة التي تمادت في انحرافها وعبثها وابتعادها الواضح عن الإسلام، وخرقها العلني الواضح لكل ما جاء به من تشريعات وقيم ومثل.؟!.

---

(١) مروج الذهب -٨٠.

٢ - خصائص المجتمع الإسلامي وبعض ملامحه

عهد يزيد.. امتداد لعهد معاوية

لا بد لنا ـ في البداية ـ من الإشارة إلى أن السنوات الثلاث التي حكم فيها يزيد، عقيب وفاة معاوية تشكل امتداداً زمنياً لعهد مؤسس الدولة الأموية الطويل نسبياً. ويكاد المجتمع الإسلامي أن يكون هو نفسه في نهاية عهد الأول وبداية عهد الثاني، فإذا ما تكلمنا عن الأمة الإسلامية في عهد معاوية فإننا نقصد بذلك العهدين كليهما، وكما كان المجتمع الإسلامي في عاصمة الإسلام الجديدة متأثراً بايحاءات وأضاليل معاوية وتوجهاته الدنيوية البحتة، فإن يزيد نفسه كان نتاج تربية معاوية والنموذج المعد لحكم الدولة الإسلامية فيما بعد لتظل دولة إسلامية بالاسم وملكاً شخصياً لمعاوية وعائلته فعلًا.

وقبل الخوض بمبحث هذا الفصل نود أن نشير مسبقاً إلى أننا نتكلم هنا عن (أمة إسلامية) و (مجتمع إسلامي) لا عن مجتمع جاهلي قديم أو حديث أو أمة تتبنى خط الطاغوت أو التصورات الأرضية البحتة والتي تخضع غالباً لمصالح الأقوياء والمتنفذين والمسيطرين فعلًا على زمام الأمور.

إلى الجاهلية من جديد

وعند دراسة خصائص هذا المجتمع، والحديث عن تطابقه مع المواصفات الإسلامية المطلوبة، ينبغي علينا وضع مقياس قائم على تصور إسلامي واضح وسليم. فنحن لا نناقش خصائص مجتمع من مجتمعات الجاهلية القديمة ـ كما قلنا ـ ولا خصائص مجتمع دولة معاصرة قائمة على أسس مستحدثة، قد يراها (بعضنا) جديرة بأن تقوم حياتنا عليها، مبنية على تصورات (الذرائعيين) أو (الاشتراكيين) أو (الديمقراطيين البرلمانيين) أو غيرهم. كما أننا لا نناقش أمر دولة منفصلة عن الإسلام إلا في الأمور الطقوسية أو الشعائرية وحسب. وإنما نناقش أمر دولة يفترض أن هذا

الدين هو المتحكم الرئيسي فيها والمسيّر الأول لكل شؤونها وأمورها وفعالياتها. وإن مبادئه وقيمه وتشريعاته ملزمة للحاكم مثلما هي ملزمة لكل فرد من أبناء الأمة، بل لعل التزام الحاكم بها ومدى قربه هي المقياس الأول لصلاحيته كحاكم مؤهل على أساس الإسلام خليفةً أو أميراً للمؤمنين.

لماذا التساهل.. هل الأمر خاص لا يمس مصالح المسلمين؟

لذلك فإن على الذين يتصدون لدراسة هذا الموضوع أن لا يتظاهروا بالتسامح المسبق والأريحية وعدم التصلب وادعاء التخلي عن الجمود، والموضوعية والحياد وما أشبه من المبررات التي يضعها الباحثون قديماً وحديثاً عند التطرق إلى مسألة الحكم الأموي.

لأن المسألة برمتها ليست مسألة خاصة بهم، كما أنها ليست مسألة خاصة بمعاوية وعائلته والملأ المقربين منه، وإنما هي مسألة تخص الأمة كلها ومن حق كل فرد فيها أن يستعرض الأمر استعراضاً موضوعياً جاداً لا غلبة للعواطف فيه أو للأهواء أو النزعات الشخصية أو التعصب الأعمى الذي لا يقود إلا إلى الضلالة والخطأ.

هل يحق للحاكم إبعاد الإسلام عن الحياة

وإن أول سؤال نطرحه على هؤلاء الدارسين: من الذي يتمتع بحق إبعاد الأسس والمبادىء والتشريعات التي قامت عليها الدولة الإسلامية الأولى في عهد رسول الله ﷺ عن حياة المسلمين بعد حوالي نصف قرن فقط، وإرساء أسس جديدة لا علاقة لها بتلك الأولى إلا من الناحية المظهرية الشكلية؟ وعلى أي أساس اكتسب هذا الحق؟ وهل يبرر مجرد الوثوب إلى السلطة والحكم واستلامهما، قيام هذا الحاكم بنسخ ما كان قائماً قبله؟ هل هو نبي جديد حتى يفعل ذلك؟ أم أنه مجرد طاغية جعل مهمته القضاء على مكتسبات الإسلام، بل على كل المكتسبات التي جاء بها كل الأنبياء وختمها نبي الرحمة ﷺ بدين الله القويم الذي لم يكن ـ بلا شك ـ مرسلاً للناس في زمن الرسالة وحسب، وإنما للناس كافة في كل زمان ومكان.؟.

أهذا ما نعلمه فعلًا عن الإسلام؟ أم أن فينا من يعلمون شيئاً آخر؟.

مقاييسنا لكشف الانحراف

إن كثيراً من الباحثين لا يرون مبرراً لعرض دولة معاوية على دولة رسول الله ﷺ لدراسة مدى صلاحيتها وتطابقها مع تلك الدولة الأولى النموذج. ويرون بما

أنه لا امكانية لأحد بامتلاك قدرات الرسول ﷺ وامكاناته الفريدة، فمن الطبيعي أن لا تقوم دولة كتلك التي أسسها وقادها الرسول ﷺ وأرسى دعائمها وبنيانها، ويرون أن من الطبيعي أن تتنازل وتائر عمل تلك الدولة، وتبتعد عن النموذج الأول، كلما تعدد الخلفاء وبعدت الفترة الزمنية عن العهد الأول؛ فليس الأمر في عهد أبي بكر مثله في عهد الرسول ﷺ وليس في عهد عمر مثله في عهد أبي بكر، وليس الأمر مع عثمان مثله في عهد عمر.

وهكذا فإننا لا ينبغي أن نتوقع أن يكون معاوية كعثمان أو يزيد كمعاوية.. وعلى هذا الأساس التنازلي، فإن هؤلاء الباحثين قد أوجدوا الأعذار المسبقة لانحراف مروان أو عبد الملك أو الوليد أو هشام أو غيرهم.

وهنا تكمن ملابسات ووقائع تاريخية مهمة تتيح لهم أن يقولوا ما قالوه. إذ أن الأمر كان هكذا فعلًا، فقد بدأت وتائر عمل الدولة الإسلامية تتنازل من ناحية المستوى (الكيفي) أو الأدائي العملي على الأسس الإسلامية الصحيحة.

لماذا العدّ التنازلي

فلم يكن من جاء بعد الرسول ﷺ يحكم بنفس الأداء الرسالي الأول، ولم يكن عثمان حتى ـ كسلفيه ـ، ولم يكن معاوية مثل أسلافه ولا يزيد كمعاوية، غير أننا نتساءل: هل أن الرسول ﷺ قد خطط للدولة الإسلامية وهي نموذج كامل معد ومسدد بالإرادة الإلهية والوحي لكي تقوم في عهده فقط ثم تضمحل تدريجياً، ولا يظل منها إلا اسمها فقط بعد عدد من الحكام يأتون من بعده بشكل اعتباطي خاضع للظروف والأحداث والنزعات الشخصية؟ أم أنه خطط لهذه الدولة لكي تنمو وتتطور بعده وتتزود بالخبرات التي من شأنها أن تجعل منها الدولة العالمية الوحيدة المؤهلة لكي تسود وتحكم إلى ما لا نهاية ما دام الإسلام هو خاتم الديانات ومحمد ﷺ هو خاتم الرسل.؟.

وإذاً فلا بد لنا من التفكير الجدي بهذه المسألة. لماذا بدأ العد التنازلي لضمور هذه الدولة بعد وفاة الرسول ﷺ؟ وهل كان السبب في ذلك يكمن في قصور هذا الدين وعدم اكتمال الرسالة؟ أو أنه يعود إلى مسألة المركز الأول ـ وهو مركز الخليفة ـ في هذه الدولة الإسلامية ـ منذ البداية.

لو أن من أثير حوله الخلاف ـ لمختلف الأسباب والدوافع ـ وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد أتى بعد وفاة ثلاثة من قبله ـ قد تبوأ منصبه الذي أهل وأعد له منذ البداية. هل كانت الأمور ستستمر في هذا الهبوط إلى ذلك الحد القاتل الذي وصلت إليه في بداية الدولة الأموية وما بعدها؟.

لو لم يأت في أعقاب الانحراف والفتن والخروج السافر المتعمد عن التشريعات والمبادىء الإسلامية وفي أعقاب حكم آيل للسقوط، أما كانت وتائر عمل الدولة الإسلامية ستظل كما هي وستتصاعد وتتحسن من ناحية الأداء وبعض المظاهر الشكلية والاجرائية.

لقد أريد للقيادة المؤهلة أن تستكمل عرض الإسلام وبسطه على ساحة الحياة وإبرازه بشكل واضح انطلاقاً من شعورها العالي بالمسؤولية وتصورها وفهمها الإسلامي الصحيح في الحكم والعطاء وكل الدقائق والتفصيلات الأخرى.

الأمة ليست قريشاً

هل مسألة الحكم الإسلامي مرهونة بقريش عموماً أو بالأنصار كونهم من أهل المدينة وأنهم من أنصار الرسول ﷺ الذين آزروه ونصروه وأعز الله بهم رسالته أو المهاجرين من أهل مكة فقط أو غيرهم، وهل هي مسألة لا يحق مناقشتها إلا من قبل أهل الحجاز ثم (أهل الشام) فيما بعد، أم أنها مسألة بنيت على أسس واضحة يعرفها الجميع وقد أوضحناها في الفصل الأول من هذا الكتاب.

إنها بالتأكيد لا تخص مجموعة بعينها في زمن معين، وإنما تخص عموم المسلمين على امتداد الأزمان. فليس لجيل أن يفرض ويحكّم فيها تصوراته وآراءه هو وإنما يضعها عل البساط كمسألة إسلامية عامة، لا تزال نتائج التصرف السلبي فيها والآراء المتوارثة تواجهنا حتى اليوم، وتنعكس علينا هزائم وتراجع وتدهور وضمور، وتتيح لكل القوى المعادية طيلة ألف وأربعمائة عام أن تنال منا بشكل خاص ومتعمد.

وإذا ما تمت هزيمتنا وتراجعنا مع علمنا وإدراكنا أننا نمتلك ما نمتلك من دين عظيم مؤهل لقيادة البشرية لا قبلًا، بل اليوم وغداً وفي كل مكان أدركنا عمق الانتكاسة التي نتعرض لها وعمق الجرح الذي أصابنا.

لماذا نقلب صفحات التاريخ

قد يقول قائل: ولماذا تقليب صفحات التاريخ (القديمة) وتقليب (المواجع) معها..؟ ونجيب: إننا ما دمنا نستعرض مسألة تاريخية مهمة، فإننا لا بد أن نستعرض مسبباتها والأحداث المتعلقة بها. وهكذا فإننا لن نستطيع دراسة المجتمع في العصر الأموي بمعزل عن دراستنا للأحداث التي أدت إلى أن يكون هذا المجتمع كما كان عليه، ولن نستطيع أن ندرس معاوية ويزيد بمعزل عمَّن سبقهما والظروف التي جاءت بهما إلى كرسي الخلافة والحكم.

ومن الطبيعي أننا لا بد أن نتعرض لمسألة الخلافة منذ البداية. ومع أننا أكدنا في الفصل الأول أن هذه المسألة قد حسمت وبت بشأنها وأنها الآن لم تعد تشكل إلا أحد فصول الماضي، إلا أننا يجب أن نعرف هذا الفعل وأحداثه وملابساته ليتسنى لنا توخي الدقة التاريخية والموضوعية عند البحث بأمثال هذا الأمر، لأن الكثير من تصرفاتنا وعلاقاتنا مع بعضنا وحتى فهمنا للإسلام والحكم والخلافة وغيرها مرهون بتلك المسألة وذيولها لحد الآن ومنها المسألة الطائفية والمذهبية المفتعلة والمبتكرة لتخريب الإسلام من الداخل، فليس عرض هذه المسألة هنا مما يقصد به إثارة الخلاف بأكثر مما يقصد به عرض الحقائق التاريخية وحسب، تلك الحقائق التي يغمض الكثيرون أعينهم عنها بحجة عدم جواز التعرض للشخصيات (المقدسة) بالنقد وبحجة عدم إثارة الضغائن والعداوات، فإذا ما أثيرت بهذا القصد فنحن مع هؤلاء لا نود فتح المزيد من جبهات الحرب والخصومة مع بعضنا، غير أننا جميعاً ـ ولا بد أن هدفنا واحد ـ وهو معرفة الحقيقة والسير وفقها ـ تواقون لذلك، وإن كانت الحقيقة مرة أو قاسية.

السلطة في الإسلام.. وسيلة لتحقيق عدالته

لقد بدأ الإمام عليه السلام في نظر الكثيرين متلهفاً على كرسي الخلافة وعلى السلطة ومتشوقاً لهما، وقد كانت تصريحات الإمام نفسه توحي لهم بهذا أيضاً، غير أنهم متى ما نظروا إلى الأمور من الزاوية التي ينظر منها ـ والتي ينبغي أن ننظر نحن منها أيضاً. عندما ننظر إلى مدى شعوره العالي بالمسؤولية، وضرورة اضطلاعه بها وتنفيذ مهماته المعهود بها إليه وبالشكل الذي حدده الرسول الكريم ﷺ، ووفق عقليته وتصوره هو عليه السلام، هذه العقلية وهذا التصور الذي يستوعب الإسلام بشكل واضح واستثنائي

ملفت للنظر، أدركوا أن حرصه على المقام الذي أهّل وأعد له منذ البداية، منذ أن احتضنه رسول الله ﷺ ورباه، ومنذ أن انضم إلى الإسلام قبيل بلوغه العاشرة من عمره، ومنذ أن نشأ وهو في أحضان الإسلام، لا يرى غيره أبداً ولا يتصرف إلا على أساسه، ناشيء عن شعوره الأكيد بمسؤولية القيادة التي عليه أن يكملها بعد انتهاء دور رسول الله ﷺ ووفاته وبعد أن امتلك التصور الأقرب والفهم الأقرب لتصور وفهم الرسول الكريم ﷺ. وكانت كل الدلائل والوقائع تشير إلى امتلاك ذلك الذهن والتصور عن رسالة الإسلام العظيمة.

إن هذه المسألة، مسألة الخلافة، لو بحثت بشكل موضوعي حقاً، لا شأن للنزعات أو المشاعر الشخصية به، ونظر إليها لا على أنها مسألة فترة زمنية لمدة عشر أو عشرين سنة فحسب يجلس فيها هذا الخليفة أو ذاك على كرسي الحكم ويحكم وفق أدائه وهواه وتصوراته وفهمه عن الإسلام. وليكن بعد ذلك الطوفان، لرأينا أننا نستطيع أن نتوصل إلى رأي حاسم موحد بشأنها.

ما فائدة أن يجلس على كرسي الخلافة شخص له تصور وفهم وسلوك ومزاج خاص، ثم يأتي بعده شخص آخر، يحمل تصوراً وفهماً وسلوكاً ومزاجاً مغايراً، ثم يأتي بعدهما ثالث لا يماثلهما، وهكذا.؟.

أليست هناك صيغة موحدة للحكم والعمل؟.

أليس هناك تصور موحد؟.

ألا يوجد تشريع واحد؟.

لماذا الاختلاف بين الحكام

فلم هذا التغاير إذاً بين كل الذين حكموا الأمة الإسلامية على امتداد عهودها؟
لو كان الذين يحكمون المسلمين يحملون عقلية واحدة وتصوراً واحداً ونمطاً واحداً أو متقارباً من السلوك والشعور بالمسؤولية، يقوم على أساس الإسلام والإسلام وحده، ولا يشترط أو يبتعد عنه بأية حجة أو ذريعة، مثل الدهاء أو السياسة أو كسب الناس وتأليف قلوبهم أو استمالتهم أو توحيدهم أو غير ذلك؛ لرأينا نمطاً إسلامياً واحداً للحكم، نمطاً متطوراً يمكن أن يتعايش مع كل المجتمعات على مر الأزمان ليقودها على طريق الإسلام، ويطور كل أساليب حياتها وفق متطلبات الظروف

والمستجدات الحياتية وما تضخه من منجزات حضارية متعلقة بحاجة هذه المجتمعات ونموها.

كان ذلك ما يمكن أن تحققه سلسلة الأئمة الكرام من آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لو أنهم لم يمنعوا من حقهم الطبيعي ولم تسلب منهم تلك المكانة التي كانت تتيح لهم عرض الإسلام ونشره وإعلاء شأنه وتوسيع حدوده وترسيخه على نفس الأسس التي أقامه عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

هل كان الإمام عليه السلام يطالب بحقه أم بحق الأمة

وهكذا رأينا السبب الذي دعا الإمام للمطالبة (بحقه)، لأنه كان بذلك يطالب (بحق) الأمة كلها في أن تحكم وفق نظرة الإسلام وتوجهاته الصحيحة وحدها وحسب.

ولم يكن حق الأمة هذا مما يمكن التفريط بأي حال من الأحوال، وخصوصاً من قبل أكثرها علماً ووعياً وشعوراً بالمسؤولية، غير أن المطالبة بالحق الشرعي إذا ما سببت أذى لعموم المسلمين وخرقاً كبيراً بينهم وفجوة لا يمكن سدها إلا بالدماء والأشلاء.

دماء الأمة كلها وأشلائها، فإنها تشكل هنا خطراً لا يمكن إثارته، ولا يمكن إلا السكوت معه، وقد سكت الإمام عليه السلام. متى.؟ عندما كان شاباً تجيش في صدره قوة الشباب وحماسه وعنفوانه. كان أحرى به أن يثور ويعلنها حرباً منذ البداية لو كان مثل غيره لا ينظر إلا من زوايا ضيقة لا يرى معها الإسلام بوضوح، وكانت هذه شجاعة حقيقية إن سكت عن حقه المغتصب في سن لا يتمكن معه غيره من السكوت والصمود أمام إغراءات السلطة والحكم، فلم يكن سكوته عن خوف، ولن يستطيع أحد مهما بلغت عداوته له أن يدعي ذلك بأي حال من الأحوال.

لقد كان الإمام (يمثل الرسالة، وكان هو الأمين الأول من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على التجربة على استقامتها وصلابتها، وعدم تميعها على الخط الطويل الذي سوف يعيشه الإسلام والمسلمون بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فالعمل كان بروح الرسالة، ولم يكن بروحه هو، كان عملًا بروح تلك الأهداف الكبيرة، ولم يكن عملًا بروح المصلحة الشخصية. لم يكن يريد أن يبني زعامة لنفسه، وإنما كان يريد أن يبني زعامة الإسلام

وقيادة الإسلام في المجتمع الإسلامي، وبالتالي في مجموع البشرية على وجه الأرض)[1].

وقد بيّن هو نفسه عليه السلام السبب في تعريف الأمة بحقه بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله (اللهم إنك تعلم أنه لم يكن منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك ونقام المعطلة من حدودك. اللهم إني أول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني إلا رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة، وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة)[2].

إن تصريحات الإمام صلى الله عليه وآله العديدة بهذا الشأن، ومواقفه جميعاً، تدل على حرصه على الإسلام ووحدة المسلمين وحسب. غير أن الإعلام الأموي الذي ركز على التقليل من شأن الإمام عليه السلام إلى حد سبه من على منابر المسلمين قرابة ألف شهر، بنفس القدر الذي ركز فيه على رفع شأن العائلة الأموية بنظر المسلمين ووضع الأحاديث الملفقة على لسان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وتأويل النصوص القرآنية ورواية القصص المتنوعة، هذا الإعلام عمل على إبراز مسألة الخلافة مستنداً في ذلك إلى الوقائع التي قامت فعلًا، وكأنها صراع على الملك بين أهل الحجاز وأهل الشام أو بين بني عبد مناف أنفسهم (آل هاشم وآل أمية) أو بين قريش نفسها، ثم بين علي ومعاوية، وأراد أن يبين أن معاوية لم يكن يقل عن علي، بل ربما يتفوق عليه بنصرة الخليفة المقتول والمطالب بدمه.

وهنا لا نريد أن نستطرد في الحديث بعد أن تكلمنا عن هذا الموضوع، وقلنا ما لا بد من قوله والوقوف عند هذا الحد الذي نتطرق فيه إلى إعلام الدولة الأموية الذي تبناه معاوية بنفسه ورعاه شخصياً وأخذ زمامه بيده.

---

(١) محمد باقر الصدر ـ أهل البيت ـ تنوع ادوار ووحدة هدف، ـ محاضرات مطبوعة بالرونيو ١٣٨٨ هـ.

(٢) نهج البلاغة ٣٠١.

لماذا استمال معاوية مجتمع الشام وأعده لتنفيذ مشاريعه؟

ولا بد لنا من التأكيد على نقطة مهمة، عند الحديث عن خصائص المجتمع الإسلامي في عهد معاوية الذي افتتح به العهد الأموي الرسمي المعلن والطويل نسبياً ـ إذ أن الأمويين بدأوا عهدهم، أو خططوا لذلك منذ عهد عثمان ولم يكونوا بعيدين عن السلطة كما رأينا ـ وهي: تركيز معاوية على مجتمع الشام بشكل استثنائي ـ كمجتمع صفوة خاص به ـ بحكم علاقته الوثيقة به قبل استلامه الحكم (كخليفة)، وتربيته على القيم والتصورات الخاصة التي أراد أن يحملها هذا المجتمع، ليكون مركزاً لضخها ونقلها فيما بعد إلى بقية المجتمعات الإسلامية في أقطار الإسلام الأخرى كقيم وتصورات أصيلة متبناة من قبل القيادة (الإسلامية) للدولة نفسها والمتمثلة بمعاوية نفسه.

لقد نجح معاوية في توجيه المجتمع الشامي ـ وهو ليس مجتمعاً صغيراً، بل يحتل مساحة كبيرة في خارطة العالم الإسلامي آنذاك ـ كما أراد وخطط بالضبط، لسبب بسيط واضح، وهو أن هذا المجتمع قد عرف الإسلام من خلاله ومن خلال أخيه يزيد الذي كان عاملًا على الشام قبله وبعد مركز الخلافة النسبي عن الشام، وقرب هذه الأخيرة من مركز الامبراطورية البيزنطية وخضوعها لها أمداً طويلًا.

مملكة واسعة.. اقتطعت لمعاوية في عهود الخلفاء السابقين

فبعد الفتوحات الإسلامية العديدة، ومنها فتح الشام نفسها، وانشغال المسلمين بأمور الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرة، وما رافقها من ملابسات، وامتداد رقعة العالم الإسلامي ووجود الحزب الأموي أو الجبهة الأموية كقوة لا يزال لها نفوذها وتأثيرها الاجتماعي والأدبي على فئات كبيرة من الناس وتأييد قريش لها، وارتفاع نغمة هذه الأخيرة ثانية وتعدد مراكز القوى فيها، كان لا بد من امتصاص بعض القوى التي قد تشكل خطراً لو ظلت سائبة ولم تأخذ دوراً في هذه الدولة الناشئة التي غاب عنها قائدها الأول ﷺ. وقد رأينا كيف كان رد فعل عمر من أبي سفيان عندما أراد مبايعة الإمام عليه السلام، وكيف أشار على أبي بكر أن يترك ما بيد أبي سفيان له، وهي أموال استحصلها الأخير لبيت المال، وذلك بقصد كسب وده أو أبعاد شره على الأقل. ويبدو أن اللعبة أو المساومة لم تفت أبا سفيان، التاجر الذكي الحاذق الذي يحسب لكل شيء حسابه والذي ألف المساومة والمطاولة والذي يُري من يتعامل معه

أنه يقبض منه القليل مهما منحه، فقد أراد حصة من هذه الغنيمة، ليس له وحده، فسمعته المكشوفة وماضيه المعروف لكل الناس، لم يكن يؤهله لأي منصب في الدولة الإسلامية، وإنما لأولاده على الأقل! إذ لم يكن أحد يعرف عنهم ما عرفه عنه، وهو العدو الدائم للرسول ﷺ وللإسلام.

ليس لأحد أن يبرر وضع يزيد بن أبي سفيان والياً على الشام من قبل أبي بكر ثم من قبل عمر وإقرار معاوية بعده من قبل عمر الحازم الشديد وعدم محاسبته دون عماله جميعاً والذين كان يأخذهم على كل صغيرة وكبيرة. وقد وجد معاوية المبررات (المقنعة) لعمر دائماً لكي يسامحه على الخروقات الكبيرة التي كان يقوم بها مثل مظاهر الفخامة والأبهة والاستئثار ببعض الأموال وصرفها بغير وجهها المطلوب، وكان إقرار عمر لمعاوية رغم خروجه المتعمد على بعض قواعد التصرف الإسلامي المطلوب وسكوته عنه يتيح لعثمان فرصة التغاضي عنه نهائياً وعدم محاسبته على الإطلاق، وغض النظر لا عن الخروقات أو الخروج التمهيدي المتهيب والحذر عن بعض المبادىء الإسلامية، بل عن بعض التجاوزات الكبيرة التي أصبح يعلن عنها دون خوف أو وجل مما كانت أحد أسباب النقمة على عثمان نفسه كما رأينا، إذ أن معاوية شكل دولة مستقلة داخل الدولة الإسلامية ولم تكن تتبعها إلا بالاسم[1].

فعندما عاتب الإمام عليه السلام عثمان في أمر معاوية وقال له: (ضعفت ورفقت على أقربائك، قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً. فقال علي: لعمري إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم؛ قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته

---

(١) (مات عمر ومعاوية على دمشق والأردن، وعمير بن سعد على حمص وقنسرين، وإنما مصَّر قنسرين معاوية بن أبي سفيان لمن لحق به من أهل العراقين ومات يزيد بن أبي سفيان، فجعل عمر مكانه معاوية ونعاه لأبي سفيان، فقال: من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين؟ قال: معاوية، قال: وصلتك رحم؛ فاجتمعت لمعاوية الأردن ودمشق، ومات عمر ومعاوية على دمشق والأردن.

لما ولي عثمان أقر عمال عمر على الشام؛ فلما مات عبد الرحمن بن علقمة الكناني ـ وكان على فلسطين ـ ضم عمله إلى معاوية، ومرض عمير بن سعد في امارة عثمان مرضاً طال به، فاستعفاه واستأذنه فإذن له، وضم عمله إلى معاوية، فاجتمع الشام على معاوية لسنتين من امارة عثمان) الطبري ٢ ٦١٨/٦١٩ وأصبحت مملكته تضم دمشق والأردن وفلسطين وحمص وقنسرين.

كلها؟ فقد وليته. فقال علي: أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يَرفأ غلام عمر منه؟ قال: نعم. قال علي: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها، فيقول للناس: هذا أمر عثمان، فيبلغك ولا تغيّر على معاوية)[1].

وهكذا أصبحت الشام إقطاعية لمعاوية وآل أبي سفيان تجاور اقطاعية ابن عمهم الخليفة المستضعف، كما أسماه بعد ذلك عبد الملك بن مروان.

معاوية، لم يكن موظفاً بل كان ملكاً

ولم يكن دور معاوية دور الموظف المعين الذي يؤدي عمله ويتلقى عليه أجراً. وإذا ما صدر إليه أمر رئيسه بأن يترك هذه الوظيفة أو ينتقل إلى وظيفة أخرى فإنه يستجيب لذلك برحابة صدر ولا يرى بذلك أي سبب للمضايقة والانزعاج.

إن مقاييسه الشخصية تجعله يضع نفسه فوق الجميع، حتى أولئك الذين كانوا يستخدمونه كأبي بكر وعمر نفسيهما. ولا بد أنه كان يرى نفسه متفوقاً بشكل كبير على عثمان. وإذا كان هؤلاء في قمة السلطة، فهل يسكت هذا الداهية الحاذق ولا يفكر في حصة دائمية من هذا الأمر، وينام قرير العين في ظل من يراهم أقل كفاءة وشرفاً ومنزلة منه؟ لا بد أن الأمر عكس ذلك بالضبط.

استغل الانحرافات الأولى

«فقد كنا، وأبوك فينا، نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازماً لنا مبروراً علينا».

وقد أفصحت رسالته التي كتبها إلى محمد بن أبي بكر عن مشاعره أفصح تعبير، عندما كتب إليه هذا يوبخه على خروجه على الإمام. فقال معاوية في رسالته الجوابية: (فقد كنا، وأبوك فينا، نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازماً لنا مبروراً علينا، فلما اختار الله لنبيّه عليه الصلاة والسلام ما عنده، وأتم له ما وعده وأظهر دعوته، وأبلج حجته، وقبضه إليه صلوات الله عليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه حقه وخالفه على أمره. على ذلك اتفقا واتسقا. ثم أنهما دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما، فهمّا به الهموم وأراد به العظيم. ثم أنه بايع لهما وسلم لهما وأقاما لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضهما الله. ثم قام

(١) الطبري ٢-٦٢٥.

ثالثهما عثمان فهدى بهديهما وسار بسيرهما. أبوك مهد مهاده وبنى لملكه وسادة، فإن يك ما نحن فيه صواباً فأبوك استبد به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب ولسلمنا إليه. ولكنا رأينا أباك فعل ذلك من قبلنا، فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك، أو دع ذلك»[1].

أيَّ نفس تفصح عنه هذه الرسالة..؟ إنه رأى أن الأمر منذ البداية أمر غنيمة أخذت من صاحبها غصباً، فرأى أن تكون له حصة فيها. خصوصاً وإن من حصلوا على الحصة الكبيرة لم يكونوا بنظره أعلى منه مقاماً أو أرفع شأناً. كان ممثل الانحراف يريد أن يستفيد من السوابق الأولى لإبعاد أمير المؤمنين عليه السلام عن كرسي الخلافة، وقد رأى أمامه سلماً فصعده، وطريقاً مهّده له غيره فسلكه. فهل نعتقد أن معاوية الذي أقر عثمان تعيينه ووسع حدود مملكته، ينتظر بهدوء موت هذا الخليفة الشيخ وخلو الساحة من منافسين آخرين للإمام عليه السلام ليبتعد عن هذه الساحة نهائياً..؟ هذا إذا لم يحاسبه الإمام ويطالبه بالأموال التي اختصها لنفسه وعائلته وأخذها دون وجه حق. وقد رأينا ـ فيما سبق ـ كيف أنه استثمر قتل عثمان بعد أن خذله وقعد عن نصرته في البداية، وكيف شمر عن ساعديه بعد ذلك بكل جد مطالباً بدمه.

ماذا لو هزمه الإمام

إن تمهيد معاوية للبقاء على كرسي الحكم، لم يكن ليتم بمجرد التمني أو عقد النية أو العزم على ذلك، ولا بد من خطوات إجرائية تمهيدية لا تراجع فيها في النهاية. ونعتقد أن معاوية لو لم يستتب له الأمر، وانتصر عليه الإمام عليه السلام لهرب في حماية دولة أجنبية، ولكان مع القياصرة في أغلب الظن، يمهد لهم الطريق لحروب يشنونها على الدولة الإسلامية ويكشف لهم عن عوراتها وجوانب الضعف فيها، ولكان قد ارتد إلى (دين) يحقق له بعض طموحاته وأمانيه.

وقد كانت الخيارات التي وضعها معاوية نصب عينيه لا تتضمن بأي حال من الأحوال الخضوع للإمام عليه السلام ومبايعته.

---

(١) مروج الذهب ص ١٦.

لا بد من قوة عسكرية ضارية.. أهل الشام

ولعلنا نتساءل: هل كان معاوية يستطيع مجابهة الإمام عليه السلام بأقاربه من آل أمية وحدهم أو بقريش التي انهزمت أمامه في معركة الجمل؟ وكان معاوية يدرك أن لا بد له من قوة عسكرية تطيعه طاعة عمياء وتؤمن (بأحقيته) وصلاحيته ممثلًا للخلافة، بل خليفة إن اقتضى الأمر. وكانت الشام تربة صالحة لبذوره، وقد أعدَّها بعناية فائقة وفق مخطط ماهر محكم. ولعل بعد الشام النسبي عن المدينة، مركز الدولة الإسلامية واختلاط أهلها بغير العرب، ووجود الخليط غير العربي فيها، وتأخر وصول الدعوة إليها ووضع يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية على رأس السلطة فيها، شكل عاملًا مهماً لأن يرى أهل الشام الإسلام من خلال معاوية نفسه، الإسلام الأموي الذي لا يحمل من إسلام محمد صلى الله عليه وآله إلا اسمه وبعض مظاهره؛ أما ممارساته الواقعية، فهي تتجه إلى تركيز السلطة واحتكارها بيد العائلة الأموية، وعلى وجه الدقة بيد معاوية (المؤسس) بالذات أولًا تحت غطاء الشرعية الإسلامية.!.

إن التمهيد لتعزيز سلطة معاوية وتقوية شعبيته بين أهل الشام، لا بد أن يمهد له بجيش من المحدثين والقصاصين والمفسرين والأعوان المختصين ببث الدعايات والأراجيف والأكاذيب على الطرف المقابل الذي يقف بمواجهته ويقوده الإمام عليه السلام وجيش من فقهاء الدولة المجندين (المشرّعين) والمبررين لتصرفاته وتصرفات أعوانه.

وقد رأينا كيف أن معاوية راح يمهد للدعاية عن نفسه، وكيف أبرز الأمر كله وكأنه أحد أقرب المقربين من رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه أمين الله على وحيه، بل هو أحد الأمناء الثلاثة (جبرئيل ومحمد صلى الله عليه وآله ومعاوية)...! وكيف أن الله قد غفر له بدعوة من الرسول صلى الله عليه وآله مما قد ذكرناه أثناء هذا الكتاب.

إن هذا التركيز على شخصيته، والذي امتد منذ ظهوره على مسرح الحكم في دمشق وحتى وفاته، كان يهدف إلى إضفاء طابع رفيع على الشخصية التي أراد لها أن تمتلك من البريق والأبهة والجلال ما يتيح له أن يخلب به لب أولئك الشاميين المبهورين (الجهلة) إلّا من (الثقافة الإسلامية المعاويّة)، التي غرسها هو وسقاها ورعاها بمعرفته وفهمه وتصوراته الخاصة البعيدة عن المعرفة والفهم والتصورات الإسلامية الصحيحة التي جاء بها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله. وقد رأينا كيف وظف بعض (المحدّثين) واشتراهم وأفاد منهم خلال حربه مع الإمام عليه السلام.

أما استقطابه (الدهاة) الذين مر ذكرهم، عمرو بن العاص، وزياد، والمغيرة وأضرابهم من ذوي الحيلة والمكر، فقد كان يتيح له تحقيق أغراضه مع مجتمع الشام الذي رباه ورعاه هو بنفسه.

رأوا الإسلام بعيني معاوية

ولو فرضنا أن معاوية كان منذ مطلع عهده يحكم مجتمع المدينة أو مكة بدلًا من مجتمع الشام، فإنه ما كان ليجد في هؤلاء المحدثين والفقهاء ورواة الأخبار والدهاة والمكرَةِ أية فائدة. إذ ما كانت تنطلي على هذا المجتمع الذي عاصر رسول الله ﷺ وعاش في ظله وفهم الإسلام عنه، ولعاد معاوية خاسراً بكل جيشه المسخر هذا، لكنه مع مجتمع الشام نجح إلى حد بعيد في التمهيد لإرساء تصوراته وآرائه والتمهيد لبقائه وبقاء سلالته من بعده على سدة الحكم عندما استعان بهؤلاء المأجورين الذين كان لبعضهم بعض التأثير بحكم معاصرتهم لعهد الرسول ﷺ وكانت مجموعة المنافقين هؤلاء هي التي وصفها الإمام عليه السلام خير وصف بقوله: (رجل منافق مظهر للإيمان، متصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على رسول الله ﷺ متعمداً، فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه، ولم يصدقوا قوله، ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله ﷺ رآه وسمع عنه، . . . فيأخذون بقوله، وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده، فتقربوا إلى أئمة الضلالة، والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس، فأكلوا بها الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا، إلا من عصم الله، ولقد كذب على رسول الله ﷺ في عهده حتى قام خطيباً فقال: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) نهج البلاغة ٣٢٥-٣٢٦.

وقد رأينا كيف أنه أمدهم بكل ما كانوا يطمحون إليه من مال وجاه في سبيل تجنيدهم لهذه الغاية. لقد كان معاوية مراقباً حذراً ومستطلعاً ماهراً لكل تحركات الأعداء، فلم يكن يتحرج أن يواجهه بعض هؤلاء بمثالبه ونقائصه، بل كان يضحك ويفتخر بسكوته وحلمه عليهم، وربما كان يريد أن يعرف مدى ما أحرز من نجاح ويعرف نقاط الضعف عند أعدائه، وهل لا يزالون على ولائهم القديم للإمام عليه السلام وهل لا يزالون يحقدون عليه هو شخصياً، ليعمل حسابه في المستقبل بعد جس نبض هؤلاء الأعداء؛ وكتب التاريخ حافلة بالنصوص التي تذكر لنا ذلك متعجبة من حلمه وسعة صدره ودهائه. !!.

لم يكن معاوية بالإنسان البسيط الساذج الذي يأخذ الأمور على علاتها، ولم يكن بالإنسان المستقيم الذي لا يرى أمامه سوى شريعة الله، وإنما كان إنساناً دنيوياً بكل معنى الكلمة، لا يمت إلى قيم الإسلام إلا بالقدر الذي يحقق فيه مصالحه عن هذا الطريق.

في عهد الدولة الأموية: لم يبق من الإسلام إلا اسمه

وهكذا فإن هذا الإسلام الأموي الذي يتطابق مع نماذج (مستحدثة) مشابهة نشهدها الآن، لا يحمل من الإسلام إلا اسمه. وإذ لم تبلغ الجرأة بمعاوية ليخرج عن الإسلام بشكل سافر كما يخرج عليه كثيرون اليوم بكل جرأة ووقاحة، مع أنهم يحكمون باسمه ويدعون تمتعهم بسلطات إلهية مطلقة. فما ذلك إلا لخوفه من الاسفار عن وجهه بشكل تام، قد يثير حفيظة الناس كلهم، حتى أهل الشام أنفسهم، وهكذا كانت درجة الانحراف قليلة بالقياس إلى ما هي عليه اليوم، غير أنها واسعة جداً بالنسبة إلى حكومة الرسول ﷺ وتكاد تقترب من الدرجة التي سبقتها في عهد عثمان.

لقد كان عهد عثمان تمهيداً لمعاوية، وكان عهد معاوية تمهيداً ليزيد وما بعده.

وكان العهد الأموي برمته تمهيداً لكل ما نشهده من انحراف واسع، شمل كل أقطار الإسلام في مختلف الأزمنة.

تمهيد للعد التنازلي وقبول أمثال يزيد حكاماً وقادة

مقولات مدروسة

لقد جاء في آخر خطبة خطبها معاوية قوله: (إني وليتكم، ولن يليكم أحد بعدي خير مني، وإنما يليكم من هو شر مني، كما كان من وليكم خيراً مني)[١] فهو هنا يمهد ليزيد، فهو يقول: إن عليكم أن تتقبلوا واقعكم، وعليكم أن لا تتخلوا عمن سيجيء من بعدي وإن كان شراً مني، وهكذا فإنه أعد حجة سيرددها (الخلفاء) من بعده إذا ما فكر أحدهم بالخروج على هؤلاء الخلفاء أو الاعتراض على أشكال سلوكهم.

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ٨- ١٤٤.

وهكذا كانت خطبة يزيد بعد وفاة معاوية نسخة مكررة منها وقد جاء فيها: (إن معاوية بن أبي سفيان كان حبلًا من حبال الله، مدّه ما شاء أن يمدّه، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه، وكان دون من قبله وخيراً ممن يأتي بعده، ولا أزكيه وقد صار إلى ربه فإن يعف عنه فبرحمته وإن يعذبه فبذنبه، وقد وليت الأمر بعده، ولست أعتذر عن جهل ولا أني عن طلب، وعلى رسلكم، إذا كره الله شيئاً غيّره، وإذا أراد شيئاً يسرّه)[1] [2].

نادرة مبكية

ولمعاوية نادرة طريفة هنا مع يزيد، ترويها لنا كتب التاريخ. فقد قال معاوية ليزيد: (كيف تراك فاعلًا إن وليت؟ قال: كنت والله يا أبة عاملًا فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله يا بني. والله لقد جهدت على سيرة عثمان بن عفان، فما أطقتها، فكيف بك وسيرة عمر؟!)[3].

لقد كان معاوية يدرك أنه يسير بزاوية انحراف، لا بد أن تنفرج في النهاية عن المزيد. وقد سخر من يزيد حينما قال بأنه سيعمل بسيرة عمر ـ هذا إذا كانت الرواية صحيحة، ورأى أن يزيد ما كان لَيستطيع أن يبلغ فابلغه هو، بل أنه سينحدر وسينحرف كثيراً. إن كل انحراف كان يمهد لانحراف أوسع بعده، فكأن الأمر كان متعمداً للخروج بشكل سافر عن الإسلام.

---

(١) وقد أورد ابن كثير الخطبة بشكل يختلف عن هذا حيث ورد فيها (أن معاوية كان عبداً من عبيدالله، أنعم الله عليه، ثم قبضه إليه، وهو خير ممن بعده ودون من قبله، ولا أزكيه على الله عز وجل، فإنه أعلم به. إن عفى عنه فبرحمته وإن عاقبه فبذنبه. وقد وليت الأمر من بعده، ولست آسي على طلب ولا أعتذر من تفريط. وإذا أراد الله شيئاً كان. . . ثم قال: وإن معاوية كان يغز لكم في البحر وإني لست حاملًا أحداً من المسلمين في البحر، وأن معاوية كان يشتيكم بأرض الروم ولست مشتياً أحداً بأرض الروم وأن معاوية يخرج لكم العطاء ثلاثاً وأنا أجمعه لكم كله). . البداية والنهاية ٧-١٤٦ فهو يعتبر الخلافة مجرد فضل يؤتيه الله من يشاء. ثم هو هنا يحاول رشوة الناس وإيعادهم بالدعة والراحة وعدم غزو الأعداء أو التصدي لهم وذلك لكي يقبلون على علاته، ولا يتساءلوا عن جوانب سلوكه وتصرفاته المخزية المفضوحة. . وجهله الذي لم يتمكن من ستره وإخفائه.

(٢) العقد الفريد ٥-١١٦.

(٣) ابن كثير ٧-٢٣٣.

كان معاوية يمهد لتقبل هذا الانحراف، بل وتبنّيه على أنه هو القاعدة. كما كان يمهد لاقتران الخلافة بشخصه وأشخاص أبنائه من بعده. وقد كان ذلك يبدو بشكل واضح، ولم يكن الإسلام صالحاً له إلا بالقدر الذي يحقق مصالح (سلالة الخلفاء) هذه التي امتدت بعدها سلالات وسلالات، نهجت نفس المنهج واتبعت نفس الخطى.

وهكذا نشأت دولة طاغوتية فرعونية لا تمتّ للإسلام بصلة إلا كما تمتّ العديد من الدول التي تدين بالإسلام ديناً رسمياً، لكنها لا تجعل منه سوى ستار لأغراضها وبرامجها البعيدة عنه بعداً كلياً.

لقد عرف العلامة أبو جرير الطبري الطاغوت بقوله (هو كل طغيان على الله، فعبد من دونه، أما بقهر منه لمن عبده، وأما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء)[١].

الخزانة الذهبية والقفاز الفولاذي

وكانت الخزانة الأموية مفتوحة أمام أولئك الذين جعلوا من معاوية قضية تهم جماهير المسلمين في الشام، وكان السخاء يبدو هو الطابع الواضح لمن يريد أن يخوض الميدان في خدمة الدولة الأموية (المتسامحة) في أمور الدين، والتي واجهت الحزم العلوي والدقة في صرف الأموال في عهد الإمام عليه السلام، وهو أمر سهل مهمة معاوية إلى حد بعيد وأكد (واقعيته) الأرضية المحبة ونظرته الدنيوية الضيقة التي لم ترتفع يوماً إلى آفاق السماء، حتى اعتمده أساساً لما سيأتي بعده من عهود.

ومتى ما أضفنا إلى ذلك سياسة القفاز الفولاذي المبطن بالحرير، التي اتبعها معاوية مع خصومه والتي لم يبذل أي جهد لإخفائها، وبرزت بشكلها الدموي المرعب في عهد يزيد، وخصوصاً في واقعتي الطف والحرة، أدركنا أن معاوية كان يستعمل كل الأساليب المتاحة لفرض سيطرة الإسلام الأموي بدلًا عن الإسلام الإلهي المحمدي، وإتاحة الفرصة لظهور كسروية أو قيصرية أو هرقلية جديدة أمام الأمة، التي أريد لها أن تتنازل عن وجودها القائم على أساس الإسلام.

---

(١) تفسير أبو جرير الطبري -ط ٣- ١٩٦٨ - مكتبة البابي الحلبي بمصر -م٣ ص ١٩.

لقد حول معاوية شكل الحكومة الإسلامية إلى حكومة شخصية استبدادية، جعلت مصالح الأمة كالمال، يرثه الأقرب فالأقرب إلى المالك، وإن كرهت الأمة كلها. فكان هذا أصل جميع مصائب الأمة الإسلامية)[١].

تنازل الأمة عن كيانها جعلها تتقبل معاوية وأمثاله

إن عمل معاوية هذا جرى بشكل علني صريح. وبعد أن كان يعلن أن الشام حصته، أصبح يرى أن كل شيء له. وقد استدرج الأمة إلى ذلك، حين عمل على سلخها من شخصيتها الإسلامية الواضحة، وأصبح الإسلام شبحاً باهتاً في تصورها وذاكرتها، بعد أن نجحت مؤامرته الخبيثة لإرجاعها إلى الجاهلية التي لم تكن قد انزاحت بعد عن وجودها وحياتها. وتنازلت عن كيانها الإسلامي الصافي. (عملية التنازل عن الوجود، كان يمثلها معاوية بن أبي سفيان، وجذور معاوية في تاريخ الإسلام، هذا الذي عبر عنه وقتئذٍ بأنه أصبح هرقلية وكسروية. الهرقلية والكسروية كان يكنى بها عن تنازل الأمة عن وجودها. يعني تحولت التجربة الإسلامية من أمة تحمل رسالة إلى ملك وسلطان يحمل هذه الرسالة بمستوى وعيه لهذه الرسالة، وإخلاصه لهذه الرسالة سلباً وإيجاباً. هذه المؤامرة الكبيرة التي نجحت بعد هذا، والتي توجت بكل المآسي والمحن والكوارث التي كانت ولا تزال إلى يومنا هذا، هي نتيجة تنازل الأمة عن وجودها، نتيجة خداع الأمة وتحجيمها أو الضغط عليها حتى تنازلت عن وجودها في عقد لا يقبل الفسخ)[٢].

نتائج التنازل

وقد أدى تنازلها إلى تفتيتها وتشتيت شمل أبنائها من أبناء مجتمع واحد يجمعهم انتماء واحد إلى مجتمعات متفرقة شامية وحجازية وعراقية ومصرية، قرشية وغير قرشية، عربية وغير عربية، لكل منها ملامح ومقومات خاصة، وبينها حواجز عديدة من العصبيات والميول والأهواء، ولا تكاد الرابطة الإسلامية تجمع بينها وتوحدها بقدر ما تجمع بينها القوة الغاشمة المتسلطة والتي تلبس رداء الخلافة البراق، والحاكمة باسم الله حكماً مطلقاً مستبداً تبدو فيه نزوات الحاكم ورغباته فقط، مستبعدة

(١) تفسير المنار ـ الشيخ رشيد رضا ج ١٢ م ١٢ ص ٩٩٥.
(٢) السيد محمد باقر الصدر ـ أهل البيت ص ١٢.

القوة العليا التي تدعى أنها تحكم باسمها، وهي الله سبحانه وتعالى، والبرامج الحياتية المتكاملة التي أنزلها على رسوله الكريم، ممثلة بالإسلام، والتي لا ينبغي عليها أن تخرج عنها بأي حال من الأحوال وتحت أية ذريعة أو حجة. وإلا فإنها تكون بذلك قد أبطلت كل مبررات وجودها وشرعيتها، غير أن تحدي هذه الدولة الأموية للتشريعات الإسلامية الأساسية مع أداءاتها وإصرارها على أنها تحكم باسم الإسلام وأنها الممثل الشرعي والخليفة المقبول للرسول ﷺ وأنها القيادة المؤهلة لحكم هذه الأرض يشكل أكبر نقضٍ للإسلام وأكبر تحد بوجهه، لأنها في الوقت الذي تجرده فيه من عناصر القوة والبقاء والديمومة، فإنها تحرص على رفعه كقوة دعائية لا يزال لها بعض النفوذ المعنوي على النفوس. وبكلمة فإن الدولة الأموية أرادت أن تثبت أن دينها الذي أوجدته بديلًا عن الإسلام هو المؤهل لقيادة الحياة، وإن الإسلام الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ يفتقر إلى المؤهلات العملية وإلى الواقعية التي زعمت أنها قد دعمت به الدين وقوته. مع أنها دقت بذلك إسفيناً لقتله وقبره.

الدولة الأموية مهدت للدول (العلمانية)[1] وسبقتها بأكثر من ألف عام

وقد سبقت الدول الأموية الدولة العلمانية الحديثة المبهورة بالأفكار المستحدثة التي جاءت رد فعل على تقاطع الدين المسيحي مع الحياة الواقعية وعدم قدرته على إدارتها، والتي استبعدت الدين عن الحياة وجعلت دوره هامشياً. وقلدتها في ذلك دول (إسلامية) علمانية جعلت دور الإسلام هامشياً أيضاً، وجعلت من ممارساته الطقوسية والشعائرية أمراً مقبولًا ما دام لا يتعارض مع (الحياة)، الحياة الأرضية البحتة، التي لا تنتظم على أساس استخلاف الإنسان على الأرض من قبل الله تعالى، أو على أساس قيام الخلافة أو الحكم على نهج رسول الله ﷺ الذي أنزلت عليه خاتمة الديانات. وإنما على أساس مصالح القيادات الحاكمة التي لا ترى إلا ترسيخ مصالحها على المدى الذي يلوح أمامها، ولعل احتكاك معاوية بالدولة النصرانية المجاورة جعلته يرمق أسلوبها القائم على إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله، باعجاب

---

(١) لا نقصد بها الدول التي ادعت اللجوء إلى (العلم) بدل (الدين) في أوربا وغيرها وإنما الدول التي استبعدت الدين بذرائع مختلفة وادعت العلمنة لتبرير ذلك مع أنها لا تعرف العلم ولا هم يحزنون.

وانبهار أكثر مما كان يبدو عليه وهو يرمق الإسلام (الدين الذي يفترض أن يكون منتمياً إليه، بل ويحكم باسمه). فهو إذا ما طبق كما جاء به الرسول الكريم ﷺ لا يمكن أن يحقق امتيازات استثنائية له أو لأمثاله.

وطبيعي أن هذه الخطوة ـ خطوة استبعاد الدين الإسلامي بشكل فعلي عن الحياة، لا تتم بمجرد التمني من قبل أية قيادة متسترة بالإسلام، بل لا بد من اتخاذ إجراءات عملية مناسبة، في مقدمتها ترويض كل أولئك الذين يعارضونها ويرون فيها خروجاً سافراً عن الإسلام، وإذا اقتضى الأمر فاستئصالهم والقضاء عليهم.

وعملية الترويض هذه، لا بد لها من إجراءات معقدة تتم في وقت واحد وبشكل سريع أيضاً؛ إذ أن أول الحكام الأمويين (معاوية) رأى أنه لا بد أن ينجز هذه المهمة خلال حياته، وقبل أن ينتقل منها، لأنه يريد أن يوظف خبراته وخبرات أعضاء القيادة الأموية المتمثلة (بالدهاة) الذين تحدثنا عنهم والقادة العسكريين وأبناء العائلة الأموية وأحلافهم وأعوانهم وعساكرهم ومرتزقتهم وجيوش المحدثين والقصاصين والمفسرين والسبّابين والمرجفين وغيرهم وغيرهم.

رصيد الأب من (الدهاء) و (الحكمة). لا يتمتع به الابن

فقد أدرك معاوية أنه يتمتع بقدرات استثنائية لا يتمتع بها يزيد المنصرف إلى اللهو والشراب والعبث. ومهما حاول أن يستشير ابنه الخامل البطال ليتولى قسماً من مسؤوليات الدولة في حياته، فإنه أدرك في النهاية أن لا فائدة من ذلك وأن عليه أن يمهد له الأمر لتتقبله الأمة كما هو، وسيكون رداء الخلافة الذي سيلبسه والمؤسسة الاخطبوطية العريقة التي سينشئها لحمايته ودعمه هي الضمانة لبقائه على كرسي الحكم وضمان بقاء وامتداد السلالة الأموية فيما بعد وتسلطها إلى أمد غير محدود، فربما سيكون يزيد بعد تخلفه الآن أكثر إدراكاً للمسؤولية عندما يتجاوز مرحلة الشباب الحافلة بالاندفاعات والنزوات.

على طريق الاعداد للحكم تحسين الصورة دعوة يزيد للصلاة...

وقد رأينا أن طبيعة وصايا معاوية ليزيد في هذا المجال لم تكن تهدف إلا لتحسين صورته في نظر الناس باعتباره قائدهم وخليفتهم المرتقب؛ فهو لم يحاول منعه عن الشراب مثلًا إلا لأن ذلك يفتح عليه عيون الناس ويدركون أي خليفة ماجن خليع يقف على رأس مسؤولي الدولة الإسلامية الكبيرة، لا لأنه رجس من عمل

الشيطان وأنه محرم عليه كمسلم ينبغي عليه الالتزام بدينه. وقد دعاه إلى إقامة الصلاة أمام الناس والتظاهر بالمحافظة عليها، لأن ذلك يعزز من مركزه ويقربه من الأمة متى ما علمت أنه ملتزم بها، ولم يؤكد عليه لاقامتها لأنها فرض واجب من الله وأنه إذا ما أبطلها فكل عمل له باطل.

(وأحضر الصلاة. فإنك إذا فعلت ما أوصيك به، عرف الناس لك حقك وعظمت مملكتك وعظمت في أعين الناس)[١].

لقد أراد استثمار الاداءات الطقوسية الظاهرية وتوظيفها لأجل أن يتقرب ويقرب ابنه بها من الناس، ليزداد في أعينهم حباً، لا لأنها فريضة مكتوبة يعلن بها الإنسان ولاءه وخضوعه المطلق لله. وقد لجأ إليها كأسلوب دعائي مألوف يبين فيه أن الخليفة المرتقب ليس كما يصوره بعض الناس، وهو حتى وإن كان معروفاً بشذوذه ومجونه، فإن الأمل فيه يجب أن لا يفقد نهائياً لأنه لا يزال يحضر الصلاة ويؤديها مع الناس، وهذه الخطوة لا بد أن تتبعها خطوات أخرى. وإذاً فإن على الأمة أن ترى فيه أملها الوحيد المرتقب وخليفتها القادم ولا تفكر بالخروج عليه أو عصيان أوامره[٢].

---

(١) البداية والنهاية -٨- ٢٣١.

(٢) ولا نرى بأساً هنا من إيراد بعض وصايا أمير المؤمنين عليه السلام ونداءاته للحث على الصلاة والالتزام بها
(صَلِّ الصلاة لوقتها المؤَقَّتِ لها، ولا تعجّل وقتها لفراغ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال. واعلم أن كل شيء من عملك تبع لصلاتك) من وصية له لمحمد بن أبي بكر حين ولاه مصر. النهج ٣٨٤- ٣٨٥ (والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم. والله الله في بيت ربكم، لا تخلّوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا) من وصية له للحسن والحسين عليهما السلام عندما ضربه ابن ملجم ص ٤٢٢ النهج (وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك: إقامة فرائضه التي هي له خاصة. فاعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووفِّ ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملًا غير مثلوم ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ. .) ص ٤٤٠ النهج من وصيته له عليه السلام للأشتر. (الفرائض أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة. .) من خطبة له عليه السلام - ابن الأثير ٣-٨٤ (الصلاة قربان كل تقي) النهج ٤٩٤ وقد وردت نصوص كثيرة بهذا المعنى، إلا أن الذي يدلل على أهميتها حرص أمير المؤمنين بشكل فعلي وعلني على إقامة الصلاة في وقتها حتى زمن الحرب والاشتباك مع العدو، وكما فعل بعده الحسين عليه السلام في واقعة الطف كما سنبين ذلك في حينه بعون الله.

الأطراف الأربعة للاستخلاف

إن الإخلال بالصيغة الرباعية للاستخلاف ـ كما ذكرناها في الفصل الأول من هذا الكتاب، وكما أوضحها الشهيد الصدر في كتابه المدرسة (المدرسة القرآنية)، تشكل استبعاداً لكل هذه المعادلة السماوية من الأساس، بل إلغاء لوجودها، ولا بأس أن نعيد ما طرحه الشهيد بهذا الخصوص لاستكمال الفائدة وتوضيح الصورة. (الاستخلاف هو العلاقة الاجتماعية من زاوية نظر القرآن الكريم، والاستخلاف عند التحليل نجد أنه ذو أربعة أطراف، لأن الاستخلاف يفترض مستخلِفاً أيضاً. لا بد من مستخلِف ومستخلَف عليه ومستخلَف. فهناك إضافة إلى الإنسان وأخيه الإنسان والطبيعة، يوجد طرف رابع في طبيعة وتكوين علاقة الاستخلاف، وهو المستخلِف إذ لا استخلاف بدون مستخلِف. فالمستخلِف هو الله سبحانه وتعالى. والمستخلَف هو الإنسان وأخوه الإنسان، أي الإنسانية ككل. الجماعة البشرية. والمستخلَف عليه هو الأرض وما عليها ومن عليها. فالعلاقة الاجتماعية ضمن صيغة الاستخلاف تكون ذات أطراف أربعة، وهذه الصيغة ترتبط بوجهة نظر معينة نحو الحياة والكون بوجهة نظر قائلة بأنه لا سيد ولا مالك ولا إله للكون والحياة إلا الله سبحانه وتعالى، وإن دور الإنسان في ممارسة حياته إنما هو دور الاستخلاف والاستئمام، وأي علاقة تنشأ بين الإنسان والطبيعة فهي في جوهرها ليست علاقة مالك بمملوك وإنما هي علاقة أمين على أمانه استؤمن عليها. وأي علاقة تنشأ بين الإنسان وأخيه الإنسان مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو لذاك، فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الإنسان أو ذاك مؤدياً لواجبه، وليست علاقة سيادة أو ألوهية أو مالكية)[1].

محاولة إلغاء المستخلِف

ومهما قيل من تبريرات لإلغاء النظرية الإسلامية الواقعية الجدية بخصوص الاستخلاف أو إلغاء البعد الرابع، وهو (المستخلِف)، الله عز وجل، والتذرع بغلبة الظروف التي تمر (الدولة الإسلامية) وموجبات السياسة والحكم والعصبية[2]، وجمع

(١) المدرسة القرآنية ١٢٨-١٢٩.

(٢) كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته (الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة ص ١٧٤ (إن صاحب الدولة إنما يتم أمره بقومه، فهم عصابته وظهراؤه على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم يقلد أعمال مملكته=

شمل الأمة وعدم فسح المجال (للأعداء) والكفار! وغيرهم للتدخل في شؤون الدولة أو شن حرب عليها. ولاحظ كيفية تبرير ابن خلدون لوجود الدولة الأموية بالشكل المغاير لدولة رسول الله ﷺ واستئثارها بكل المكتسبات التي حققها المسلمون بدمائهم وتضحياتهم ووصفه أمر خروج معاوية على الإمام عليه السلام بأنه مجرد فتنة وأن معاوية لم يكن مخطئاً، وأنه من الأمور الطبيعية أن يكون شكل الحكومة الإسلامية بالشكل الذي كان عليه أيام معاوية كأنه سنة إلهية وأمر محتوم. (ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية، وهي مقتضى العصبية، كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل ولاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد، وإنما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه، وإن كان المصيب علياً، فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل، إنما قصد الحق وأخطأ، والكل كانوا في مقاصدهم على حق، ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به، ولم يكن لمعاوية أن يدفع عن نفسه وقومه، فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقوع في افتراق الكلمة التي كان جَمَعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة.

وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه من أن ظنهم به

=ووزارة دولته وجباية أمواله لأنهم أعوانه على الغلب وشركاؤه في الأمر.. ص ٢٠٢ واعتبر في ذلك دولة بني أمية كيف كانوا إنما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب مثل عمر بن سعد بن أبي وقاص وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان! والحجاج بن يوسف.. ٢٠٣ وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجني الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة. فحقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم ٢٠٨ (اشترط الشارع في الحاكم قلة الإفراط في الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن (أبي سفيان)! لما عزله عمر عن العراق وقال له: ... كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس. فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان! وعمرو بن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة.. ص ٢٠٩. إقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل إلا بالعصبية والشوكة والعصبية مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك وإن لم ينصب أمام ٢١٣.. فلاحظ هذا الكلام وأمثاله ولاحظ أننا نتكلم عن دولة إسلامية.

كان صالحاً ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره، فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا الله لمعاوية من ذلك. وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكاً لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلَّا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد. . .)[1].

الغاء الشرعية الإسلامية لتمرير (الشرعية) الأموية

مهما قيل من تبريرات لإلغاء النظرية الإسلامية، فإنها تبدو هزيلة أمام منطق الإسلام لفرض وجوده الحي العملي المعاش، ولا يكاد أي منتسب لهذا الدين يجد مبرراً لالغاء النظرية الإلهية واستبدالها بنظريات وآراء شخصية مهمتها تكريس الحكم لشخص واحد أو عائلة واحدة من هذه الأمة بحجة الظروف الاستثنائية والضرورة اللازمة كما رأينا قبل قليل من مفكر كبير مثل ابن خلدون تعتمد آراؤه وأفكاره لدى فئات عديدة من المسلمين وقد تؤخذ كأنها من المسلَّمات لدى البعض.

إن هذه الظروف والضرورات مهما بلغت لا يمكن أن تبرر إلغاء الشرعية الإسلامية المنزلة حيث أن من شأن ذلك نقض الأمانة التي تشكل الوجه التقبلي للخلافة، بوجه عام من قبل الإنسان، لتولي هذه المسؤولية التي عهد الله سبحانه وتعالى بها إليه وفق شروط معينة حددها بشرائع وقوانين سماوية اكتملت واتسقت وانتهت بالإسلام، لتكون خلافة الإنسان على الأرض والناس والطبيعة تقبل العمل بهذه الشريعة وتطبيقها كمسؤولية لا كمنحة أو هبة خاصة كما يحاول قطب النظام الأول معاوية أن يردده وردده من بعده آخرون حيث نسمع أقوالًا من قبيل: (هو

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٧-٢٢٨ فلاحظ ما في هذا الكلام من مغالطات. وكأن ابن خلدون يتحدث عن دولة للفرس أو الروم. ولا ندري كيف علم بنوايا معاوية التي لم يحاول هو نفسه إخفاءها وأعلنها للناس صراحة. ولا ندري أيضاً لم هذا الحماس في تبرير مواقفه وأخطائه التي ألحقت أكبر نكسة بالمسلمين لا نزال نعيش آثارها إلى اليوم. هل كان ابن خلدون يدرك أنه يتحدث عن دولة إسلامية ينبغي أن تكون مقتدية بدولة رسول الله ﷺ نفسه. ويتحدث عن خليفة يفترض منه أن يكون مقتدياً بالرسول الكريم ﷺ. ونسأله ـ لو كان يسمع ـ هل كان معاوية الداهية هو الذي يسير قومه وأهل الشام أم أنه كان مسيراً من قبلهم محكوماً بأوامرهم ونواهيهم. . ؟.

سلطان الله يؤتيه البر والفاجر وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة وكذلك غيره من الكفار)[١] جاء ذلك في كلام لعائشة جواباً على من قال أمامها: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله ﷺ في الخلافة.؟ وقد قال معاوية لأهل الكوفة بعيد صلح الحسن (ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون)[٢]. فمعاوية هنا يعتبر الأمر وكأنه عطية أو هبة خاصة من الله.

وقول يزيد بعد موت معاوية: (إن معاوية كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه)[٣].

خلافة أم عبث

كان معاوية أول من أعلن تخليه عن أي التزام إلهي بخصوص منصب الخلافة، فهي مجرد منحة أو نعمة أنعمها الله عليه دون الآخرين وبرغمهم، كما أنه قد أعلن أيضاً (أنا أول الملوك وآخر خليفة)[٤] فكأنه هنا يقول: وداعاً للخلافة ووداعاً للإسلام. بدأ بي عهد الملكية المطلقة، ولست ملزماً بأي عقد إلهي. إنه بذلك كما أوضحنا يمهد ليزيد وأولاد يزيد وأحفاده لكي يستلموا السلطة دون أن يضعوا في أذهانهم أي اعتبار لأي عقد ملزم لخليفة الله وخليفة رسوله، بل خاتم رسله ﷺ على هذه الأرض.

ولا يحسبن أحد أن معاوية يبعثر كلامه وأقواله هكذا جزافاً، فهو ليس شخصاً عادياً غبياً بل أن يتمتع بمميزات كبيرة وقدرات استثنائية. غير أنه، إذا ما أردنا أن نقلل من شأن جرائمه وانحداره (ابتلي بحب الدنيا)[٥] على حد تعبير الفضيل بن عياض.

فمعاوية هنا ينصب نفسه (خليفة)، لا وفق الشرط الإلهي والتصور الإسلامي وإنما وفق تصور شخصي ذاتي مبتدع مبتكر قائم على مصلحته ومصلحة عائلته. وكان بذلك متخذاً إلهه هواه ورغباته ونزعاته الخاصة نابذاً وتاركاً كل ما أنزل الله. كما أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة إشارة عجيبة دقيقة بأسلوب متسائل مستنكر: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

---

(١) ابن كثير ٨-١٣٤.

(٢) - (٤) ابن كثير البداية والنهاية ص ١٣٤-١٣٧-١٤٤.

(٥) في ظلال القرآن، م ٥، ص ٢٥٦٦.

(وهو تعبير عجيب يرسم نموذجاً عميقاً لحاله نفسية بارزة، حيث تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة، والموازين المضبوطة، وتخضع لهواها وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها، فلا تخضع لميزان ولا تعترف بحد ولا تقنع بمنطق، متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلهاً يعبد ويطاع)[1].

لا مكان إلا للهوى والمصالح الشخصية

ولا شك أن هذه المعايير والمقاييس والموازين قد وضعت وأنزلت بتنسيق تام دقيق لتنظيم حياة الإنسان على الأرض، وليس هناك إلا معنى واحد للخروج عليها، وهو اتباع الهوى الطاغي في كل شيء، ونسيان كل ما عداه، فهو وحده المتحكم والمسيطر والموجه. وإذا ما بلغ هذه الحالة فإنه يخرج عن نطاق الإنسانية الملتزمة المقيدة بالأنظمة والقوانين، الإنسانية المتأملة المتدبرة الواعية المدركة، ويتراجع إلى درك الأنعام التي لا تفقه شيئاً ولا تعقل ولا تفكر ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2] لأن الأنعام ربما كانت تعمل بوحي الغريزة التي تجعلها لا تخطىء أحياناً، أما الإنسان فبخطئه المتعمد ووضعه كل الموازين والقيم والمعايير الإلهية المنزلة الواضحة المبينة جانباً، فإنه يضل وينحرف ويضيع ويضيّع غيره، فكأنه كان أضل سبيلًا من هذه الأنعام التي لا تسمع ولا تعقل.

هذا هو حال الفرد عندما يحكم هواه ويجعله إلهه، وهذا هو حال المجتمع أيضاً عندما يحكم هذا الهوى، يصبح كقطيع من الأنعام لا يعرف سبيله ولا يهتدي إلى طريقه أو مصلحته الحقيقية.

لقد كان التعبير القرآني عن (الهوى البشري) حينما يسيطر ويطغى، بأنه إله، تعبيراً دقيقاً موحياً للعديد من الإشارات الدقيقة الحاسمة، فهو عندما يتخلى عن إلهه الحقيقي، فلا بد له من إله آخر يبرر له تصرفاته واندفاعاته، ولا شك أنه لا يوجد لها من مبرر سوى الهوى الذي أراده أن يقوم مقام الإله الحقيقي موجهاً وقائداً وحاكماً مطلقاً لا تنفع معه الموازين والمعايير والمقاييس التي من المفروض أن يأخذ بها ويسير على أساسها (خصوصاً إذا ما ادعى أنه ممثل خالق تلك الموازين والمعايير والمقاييس

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب م ٥ ص ٢٥٦٦.
(٢) الفرقان ٤٤.

والتشريعات وخليفته وخليفة رسوله المنزل ﷺ. وإلا فأي مبرر سيجده ـ كما قلنا ـ للخروج عليها واستبدالها بأخرى من وضعه وإنشائه؟.

الهوى لا يعرف منطقاً ولا حجة ولا ينحني أمام العقل والبرهان والتجربة والدليل.

كما أن هذا الهوى لم يكن مقرراً له أن يكون هو المسيطر على تصرفات الإنسان، ولم تكن التشريعات والقيم الدينية المتمثلة بالإسلام هنا إلا كوابح ومصدات أمام هذا الهوى الذي إذا انطلق دون رقابة أو قيود، فإنه سيصطدم بهوى الآخرين ورغباتهم ومصالحهم، وستتولد عنه حالة دائمية من الصراع وعدم الانسجام، وتضارب المصالح والتصادم سيؤدي إلى الاقتتال، وسيجعل المحيط الاجتماعي غابة تنتشر فيها (الأنعام) القوية والضعيفة دون ضوابط أو نظام، وما دام هذا الهوى قد أصبح هو الآمر المطاع الموجه، فقد أصبح هو المعبود الحقيقي من دون الله الإله الحق كما يقول السيد الشهيد، فإن القرآن (عبر حتى عن الهوى بأنه إلّه، حينما يتصاعد هذا الهوى تصاعداً مصطنعاً، فيصبح هو المثل الأعلى، وهو الغاية القصوى لهذا الفرد أو لذاك. فالمثل العليا بحسب التعبير القرآني هي إلهه في الحقيقة، لأنها معبوده حقاً، وهي الآمرة الناهية حقاً وهي المحركة حقاً، فهي آلهة في المفهوم الديني والاجتماعي)[١].

من يصنع الفراعنة والطواغيت

ثمة حقائق تاريخية عديدة، لا بد من الانتباه إليها، وهي أن الفراعنة والطواغيت لم يولدوا، ولم يولد آباؤهم المؤسسون لممالكهم فراعنة وطواغيت. ربما كان الفرعون الأول مزارعاً هماماً أو مقاتلاً شجاعاً أو قائداً في حاشية فرعون سابق، وربما كان محبوباً وزعيماً جماهيرياً يكره الظلم ويتبنى قضايا عادلة قبل استلامه السلطة، وربما كان يتبنى ديناً معيناً وأسلوباً خاصة يخضع لكهانة معينة، يلتزم بطقوسها وتعاليمها. فتاريخ الأديان أقدم من تاريخ الملوك. غير أنه عندما أخذ بزمام الأمور، ورأى أن الأغلبية تسير وراءه وتنقاد له، استأثر واستبد، وحول أنظاره وأنظار الناس إلى نفسه، ورأى أن سلالته هي التي ينبغي أن تحكم وتسود، وتناسى كل ما كان

(١) المدرسة القرآنية ١٤٧.

ينادي به ويدعو إليه. وعندما ولد أبناؤه فراعنة وطواغيت جاهزين، لم يروا أنفسهم إلا في مركز الضوء والناس تتطلع إليهم وتنقاد لمشيئتهم. اعتقدوا واعتقد هؤلاء الناس معهم، أن الأمور جرت هكذا منذ البداية، وأنها لا بد أن تستمر على هذا الحال. لقد كانت العملية بجملتها عملية تجميد حالة معينة، استساغها الحاكم المستبد وحولها أو حولها أبناؤه بعده إلى حالة صنمية مقدسة مرموقة بل ومعبودة.

أصبح الحاكم (ابن الله) تارة و (ظله على الأرض) تارة أخرى، وخليفته وربيبه ومختاره وشريكه ومبعوث عنايته.

كان تجميد الحالة يتم لكي لا تبرز حالة مضادة تعمل على إبعاد ومحو الحالة المتصنمة أو المتحجرة على نمط معين للحكم والحياة، وبالتالي عدم السماح للخروج عليها بأية حال من الأحوال.

أصبح الحاكم الفرعون أو القيصر هو القطب الأول والمحور الرئيسي الذي ينبغي أن تتجه إليه الأفكار، والمعبود الوحيد الذي ينبغي أن تتجه إليه الناس بطاعتها وخضوعها.

لم تكن الفرعونية فرعونية منذ البداية، منذ عهد فرعون الأول.

ولم تكن الكسروية كسروية ولا القيصرية قيصرية بالشكل الذي انتهت إليه.

وحتى لو نزلنا بالأمر إلى مستوى زعامة القبيلة، لرأينا أن الأمر لم يكن يتعدى ذلك، فزعيم القبيلة الأول، لا بد أنه كان في بداياته من المضحين والمدافعين عن قبيلته، غير أنه عندما تمكن. وعندما وجد بعد فترة من الزمن أن هناك من يحتمل أن ينافسه على الزعامة، استعد لضمان سلطانه على قبيلته وسلطان أبنائه وأحفاده من بعده.

لم يكن معاوية من هؤلاء في البداية. فلم يكن مقاتلًا شجاعاً ولا حاملًا لقضية عادلة، ولا زعيماً جماهيرياً محبوباً. غير أنه دبر قضية أبرزها فيما بعد على أنها عادلة، وهي قضية مقتل عثمان الذي سعى هو إليه ودبره، ثم قام للمطالبة بدمه، فأصبح في نظر العديدين من الذين نصبوا العداوة للإمام عليه السلام منذ البداية وفي نظر الجهلة والمغرر بهم والمخدوعين من أهل الشام ولياً للدم وبطلًا من أبطال الحق والعدالة. وعندما تمكن واستأثر بالسلطة كان هو محور اهتمام الأمة الوحيد، بيده الحل والعقد، بل مصير الأمة كلها وأموالها ودمائها.

مقولة فرعون الدائمية: أنا ربكم الأعلى

إن فرعون وأضرابه، يتجاوزون على المثل الأعلى السماوي بعد أن أوهموا الناس في البداية أنهم مؤمنون مثلهم بهذا المثل إذا ما حصل إن كان هذا المثل هو المثل الأعلى السائد والمسيطر على الساحة، ثم يحاولون الوثوب عليه أو تناسيه أو تسخيره وتطويعه ليكون في خدمتهم إذا ما كان كهنة هذا الدين وأحباره قابلين للشراء والمساومة.

إنهم يحاولون الحلول محل المثل الأعلى السماوي إمَّا بالتصدي لأتباعه منذ البداية ومحاربة الأنبياء والرسل بمختلف الذرائع والحجج التي ذكر لنا القرآن الكريم طرفاً منها، أو بمناذلة المؤمنين برسالاتهم وتصفيتهم واستئصالهم أو محاولة تطويعهم وكسبهم بمختلف الطرق التي يرونها مناسبة والتي يمتلكونها بحكم ما تتيحه لهم سلطاتهم المطلقة من أموال وأعوان وغير ذلك.

إن القيصرية أو الهرقلية عندما اعتنقت المسيحية رسمياً، لم تنضم بالفعل تحت لواء المسيحية، بل حاولت أن تنضم المسيحية نحو لوائها هي، وعندما أوشكت الحالة أن تسبب مواجهة حقيقية، مسحت هذه المسيحية من على خارطة العالم الأرضي، وجعلت اختصاصها (ملكوت السماء). أما (ملكوت الأرض)، فأصبح من اختصاص القيصر يتحكم به كيفما يشاء. وهكذا أعيدت كتابة الانجيل و (تصحيح) عباراته وتعديلها لتلائم رغبة القيصر المسيحي، وصرح كاتبوها بعد سنوات طويلة من ظهور السيد المسيح واختفائه أن أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وقد فصلوا بين سلطان قيصر وسلطان الله، وأرادوا الله أن يتحكم في ملكوته السماوي فقط ولا يتدخل بشؤون الأرض. وأرادوا له أن يكون قيصراً في السماء، وإذا ما تجاوز صلاحياته وحاول التدخل بشؤون قيصر الأرض فإن قيصر الأرض من حقه أن يستخدم في هذه الحالة صلاحياته على أوسع نطاق ويطهر مملكته من كل من يحاول المساس بها أو التدخل بشؤونه.

ولا يدري أحد كيف وصل الأمر إلى هذه الحالة بالضبط، غير أنها تعززت عندما ضعُفت مملكة (قيصر) في ممالك الغرب كلها، وأصبح الملوك والأباطرة الغربيون بمختلف ألقابهم ومسمياتهم التي حملوها منقادين لحماس ديني موقت لنشر (دينهم) في أرجاء الأرض في حملات صليبية عالمية، قامت وراء طموحات قيصرية بحتة وأطماع استعمارية وتعصب عرقي للجنس الأبيض، وراح الكهنة ورجال الدين،

يتصدرون زعامة الأمة المسيحية من جديد ثم امتدَّ سلطانهم بعد ذلك، وبعد فشل الحملات التي دامت فترة طويلة، ليقوموا بالتدخل المباشر في شؤون الحكم والحياة. هذه الحياة التي لا يمتلكون أبسط المقومات لقيادتها، والتي تتعارض معطياتها وحقائقها مع المفاهيم الدينية الهزيلة التي يتبنونها. بعد أن تكشفت العديد من الحقائق العلمية أمام المسيحيين وهم يجتازون عصورهم المظلمة، بفضل (أعدائهم) المسلمين ذوي الحضارة الفاعلة العريقة. عند ذاك التفت (قيصر) والتفتت وراءه الناس ثانية للخلاص من قيصر السماء وإعادة تحجيمه ضمن الكنائس والأديرة، وظل قيصر يحتكر سلطان الأرض كله. فهو (قيصر) تارة وهو (فرعون) وهو (هرقل). وسيظل هكذا مهما كانت المسميات، لكنه مع ذلك ظل يزين عرشه بالطقوس والثياب والزخارف ورجال الدين الذين ارتدوا هذه الثياب المزخرفة، ليضل هذا العرش (مقدساً) مهاباً جميلًا عظيماً في أعين الرعية. أما قيصر السماء فما عليه إلا أن يستسلم لسلطته الزمنية ولا يحاول التدخل في شؤونه ثانية.

وكذلك فعل هرقل وفعل كسرى. وقبلهم جميعاً فعل فرعون ذلك، وكان هذا دأبه على مر العصور.

(فرعون) اسمه (خليفة)

ولا يتاح هذا الخروج السافر لطواغيت المسلمين بأي حال من الأحوال، وتحت أية ذريعة من الذرائع. ولما كان لا بد منه، فإن طواغيت المسلمين وفراعنتهم هؤلاء، لا يعلنون رغبتهم السافرة في الخروج على الإسلام لكنهم يعلنون أنهم (كهنته) (وسدنته) ورجاله، وأنهم الممثلون (الحقيقيون والواقعيون) له، فهو ينبغي أن يفهم عنهم وعن (علماء الدين) المعيَّنين من قبلهم والذين تحيزوا ـ لمختلف الأسباب ـ إلى سلطانهم وعروشهم.

إنهم يمدون ظلهم على الإسلام، ويحوطونه ويحوطون أهله، ويفسرون رسالته بما يضمن دوام سلطانهم وبقائهم على العروش، (ينحنون) لله في الظاهر وأمام أنظار المسلمين، راكعين ساجدين، لكنهم يريدون لهذا الانحناء والركوع والسجود من بقية المسلمين أن يكون خلفهم هم وعن طريقهم وعلى طريقتهم الخاصة. إنهم يقدمون (رشوة) للشعب المسلم لضمان ولائه وسكوته عن أية ممارسة غريبة أخرى، فالمهم أن لا ينقطعوا عن أداء (المراسيم) العلنية المطلوبة التي (يحذرون) بها الناس

ويضمنون سكوتهم عن بقية الممارسات الأخرى. وقد رأينا وصية معاوية السابقة لولده يزيد لكي يحضر الصلاة، فإنه يضمن بذلك أن يعرف الناس حقه ـ على حد تعبيره ـ ويعلمون أنه لا يخالف أوامر الله ونواهيه، لتعظم مملكته ويعظم في أعين الناس[١].

انحرف على أن لا يعلم بأمرك أحد

فالصلاة أمر لا يمكن لأبسط مسلم عادي أن لا يؤديه، فكيف بخليفة المسلمين وقائدهم وسلطانهم المرتقب؛ فقد رأى معاوية أن الناس لا يمكن أن تتساهل مع أي إنسان حتى ولو كان (خليفة) إذا ما تجاهل الصلاة وتركها، مع أنه رأى أنهم يمكن أن يسكتوا عن بعض التجاوزات الأخرى، إنه أراد أن يزيّن يزيد في أعين الناس ليتظاهر أمامهم بالصلاة ليعظم في أعينهم وتعظم مملكته، وإذا ما أرفق ذلك بستر جوانب سلوكه الأخرى المشينة المتهتكة. فهو يوصيه أيضاً عندما شعر بافراطه في الشهوات ومجاهرته بها: (فأحبَّ أن يعظه برفق، فقال له: يا بني ما أقدرك على أن تصل إلى حاجتك من غير تهتك يذهب بمرؤتك وقدرك ويشمت بك عدوك ويسيء بك صديقك)[٢] إنه لم ينكر عليه إقباله على الملذات، ولكنه أمره أن لا يتجاهر بها طالما أنه معد لاستلام كرسي الخلافة بعد أبيه. ولنلاحظ صياغة العبارات جيداً.

وحتى الوليد بن يزيد المتهتك، الذي جاء إلى السلطة وقد وجد الأمور مستتبة له بعد عدة (خلفاء) عملوا قبله على تطويع الأمة وإخضاعها وإذلالها، والذي أعلن عن تهتكه على رؤوس الأشهاد، لم يستطع التظاهر بالاستغناء عن هذه (الزينة) التي يزين بها عرشه ويتقرب بها إلى الناس ـ وهي الصلاة ـ لأنه رأى أنها آخر خيط من الشرعية يمكن أن يربطه بالمحكومين ليكون رأساً لهم وسلطاناً عليهم باسم الإسلام. فقد حسب أنهم لا يريدون منه إلا الأداء الظاهري لهذه الفريضة. وإذ لم يستطع بعد ليلة استمتع فيها بجواريه وخمره، أن يخرج للصلاة عندما (جاء المؤذنون يؤذنونه بالصلاة ـ فأخرجها ـ إحدى جواريه ـ وهي سكرى جنبه متلثمة فصلت بالناس)[٣]. وقد حسب أنه قد أدى المهمة، وكفى الله المؤمنين القتال. ولا

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ٨-٢٣٣.

(٢) المصدر السابق ٨-٢٣١.

(٣) العقد الفريد ١٩١.

ندري كيف كان يفكر ساعتها وبأية طريقة عندما أرسل جاريته السكرى الجنبة لتصلي بالناس.

الطقوس الظاهرية. لتحسين الصورة

لقد أرادوا للإسلام أن لا تظل منه سوى طقوسه الظاهرية ـ ما دامت لا تضرهم ولا تقف أمام مصالحهم، أما ما عداها فهو من مسؤوليتهم ومهامهم الشخصية البحتة يتحكمون بها كيف شاءوا وأنى شاءوا.! وهكذا جعلوا حتى الصلاة حلقة أو قلادة يزين بها الطاغية عرشه ليبدو في أجمل صورة أمام المسلمين المؤمنين بهذه الشريعة المقدسة.

كانت مهمة الأمويين تحجيم الإسلام وتجميده، بل وتحجيره إذا جاز التعبير ـ ما دام أمراً لا بد منه ـ ليظل يؤدى كطقوس في أروقة المساجد والمعابد، وليظل الكتاب العظيم يتلى في هذه المساجد المزخرفة الفخمة الجميلة التي بنوها لتزيين ملكهم أيضاً وللتدليل أمام الأمة المسلمة على أنهم يكنون للإسلام أكبر حب وتقدير. وها هم يقومون بالانفاق على عمارة هذه المساجد بل والاكثار منها وإفساح المجال للقراء للجلوس فيها والصلاة وتلاوة الذكر والقصص والأحاديث الموضوعة والمكذوبة (وغير الضارة) كتلك التي لا تؤدي إلى تفريق المسلمين بزعمهم، بالضبط كما يفعل كثيرون من نظرائهم اليوم لنفس السبب ولنفس الدوافع.

لقد أباح الأمويون للناس تعلم المباح من الأمور ولم يسمحوا لهم بتعلم المحظورات والمحرمات ـ كما ورد بأحد أحاديث الإمام الصادق عليه السلام، لأنهم لو سمحوا لهم بذلك لاجتنبوا هذه المحظورات ولدعوا أول ما دعوا خلفاءهم لاجتنابها.

أريد للإسلام في ظلهم أن يظل مظهراً يزين به الخلفاء عروشهم وأريد للقرآن أن يرتل بصوت جميل ما داموا يستفيدون من بعض آياته لتدعيم حكمهم بعد تأويلها وتفسيرها بشكل محرف. أما تطبيق أحكامه والأخذ به فهذا هو الأمر المستبعد، وما على أحد من المسلمين أن يفكر بذلك.

الرسول صلى الله عليه وآله: أول من حذر من الوقوع في براثن الانحراف

إن الإسلام بذلك يفقد كل معنى ومحتوى له في ظل نمط من الحكام كهؤلاء، وقد عبر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أبلغ تعبير عن هذه الحالة التي لا يكون للإسلام فيها إلا

وجود اسمي، فقد روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة، مؤمن ومنافق وفاجر»).

وكذلك حذر منه أمير المؤمنين عليه السلام

ولذلك فإن الإمام عليه السلام، عندما أدرك مدى تسارع الانحراف ورأى مدى اتساع درجته، شخّص الحال التي سيصل إليها المسلمون في ظل نمط من الحكام كمعاوية ومن ربّاهم وأعدّهم ومهد لهم. ولم تكن أقواله رجماً بالغيب ـ بقدر ما كانت علماً عن ذي تعلم ـ وتعبيراً عن البصيرة الصافية التي تدرك أبعاد التخلي التدريجي عن جوهر الإسلام والتمسك الظاهري ببعض الممارسات المعلنة فقط. قال عليه السلام: (يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من القرآن إلا رسمه ومن الإسلام إلا اسمه، مساجدهم يومئذٍ عامرة من البنى، خراب من الهدى، سكانها وعمّارها شر أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة، وإليهم تأوي الخطيئة، يردون من شذ عنها فيها، ويسوقون من تأخّر عنها إليها. يقول الله تعالى: فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة أترك الحليم فيها حيران وقد فعل)[1].

سنن تاريخية ـ انحراف بسيط في البداية سيمهد لانحراف واسع في النهاية

لقد كان تشخيص الإمام عليه السلام لهذه الحال بهذه الصورة الدقيقة تعبر عن استعابه التام للسنن الإلهية التي بينها في كتابه المجيد. إنه رأى ـ وهو ابن القرآن وربيبه وشريكه وحامله ـ أن الحال متى ما وصلت إلى هذا الحد، فإن المسلمين ـ أو أغلبهم لن يعودوا مسلمين إلا بالاسم، بل إنهم سيكونون من أشد أعداء الإسلام، لأنهم حملته بالاسم والدعاة الفعليين إلى تهديمه بما يرتكبون من مخالفات وتجاوزات واضحة.

ويرى الإمام أن التمادي بالبعد عن الإسلام سيقود إلى الجهل ثم إلى الفتنة بعد ذلك، وسيكون هؤلاء كالقطعان السائبة التي لا تعرف هدفها ولا تدرك إلى أين

(١) نهج البلاغة ٧٤٤.

يقودها طريقها، وسيكونون منبعاً للفتن ومأوى للخطايا، وعندها: ما جدوى أن يقرأوا القرآن وهم لا يفقهون معانيه ومضامينه وأحكامه ويؤولونها وفقاً لأهوائهم ومصالحهم.؟.

الإسلام المحمدي العلوي

الضمانة الوحيدة للتخلص من الانحراف

إن الحصانة الوحيدة للمجتمع المسلم من الانحراف والوقوع في الخطأ هو الإسلام نفسه، ويدرك كل طواغيت العالم أن عليهم إذا ما أرادوا السيطرة على هذا المجتمع وفرض سلطانهم عليه وحكمه حكماً طاغوتياً مستبداً، أن يجردوه من هذا الإسلام الذي سيكون بلا شك أكبر عقبة في طريقهم.

وتجريد المجتمع الإسلامي من دينه العزيز الأثير الذي تعرفوا عليه قبل مدة قصيرة - ونحن نتكلم عن مطلع الحكم الأموي - ورأوا فيه خلاصهم من كل شرور المجتمعات الجاهلية، ليست مهمة سهلة التحقيق بمجرد التمني. ولا بد لها من خطة محكمة تقوم على تنفيذها مؤسسات متخصصة تتمتع بقدر كبير من المؤهلات والامكانات، كما أنها لا تتم بشكل مباشر مقصود ومعلن، بل أن شعارها الظاهري لا بد أن يكون هو الحفاظ على الإسلام نفسه ووحدة المسلمين وجماعتهم ومصلحتهم خلف من (يبايعه) المسلمون خليفة. وليس على هذا، إذا ضمن ولاء الناس له وانقيادهم وراءه أن يتحفظ في سلوكه بعد ذلك إلى الحد الذي كان عليه من جاءوا قبله. وليس عليه أن يحكم بالإسلام، حتى وإن اكتسب (شرعية) حكمه من هذا الإسلام نفسه. فقد أصبحت البيعة ملزمة لا يمكن الخروج عليها تحت أية ذريعة من الذرائع أو ظرف من الظروف وانتهى الأمر بعد أن طوّق الناس بها، وما دام الخليفة يتعهد بأنه سيحكم بحكم الله ورسوله. وإذا ما خرج على أحكام الإسلام فهذا أمر يخصه وحده وعليه جزاؤه، حتى إذا كان فاسقاً (فلا يجوز خلعه لأحد بسبب ذلك من الفتنة ووقوع الهرج كما وقع زمن الحرة)[1] واخترعوا أحاديث على لسان ابن عمر وغيره بهذا الخصوص نسبوها إلى الرسول الكريم ﷺ. فقد رووا أنه (لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشهد ثم قال: أما بعد فإنا بايعنا هذا

(١) البداية والنهاية ٨-٢٣٥.

الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان، وإن من أعظم الغدر، إلا أن يكون الاشراك بالله، أن يبايع رجل رجلًا على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته.

ورووا عن ابن عمر أنه روى عن لسان رسول الله ﷺ أنه قال: «من نزع يداً من طاعة فإنه يأتي يوم القيامة لا حجة له، ومن مات مفارق الجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية»[1].

ورووا أحاديث مشابهة على لسان آخرين عن ضرورة الحفاظ على وحدة الأمة وضرورة ضرب من يخرج على اجماعها بالسيف كائناً من كان.

منهج في التزوير لتعزيز دولة الظلم

وبغض النظر عن صحة تلك الأحاديث ورواتها وإسنادها؛ فهي أحاديث موضوعة بلا شك، صرف عليها الكثير من الأموال والجهد، فإن مناقشتها ـ لو صحت ـ بمزيد من الوعي والفهم تدين الحاكم المستخلف نفسه. فهل يعقل أن رسول الله ﷺ كان يمهد لحكم يزيد وأمثال يزيد؟ بحيث أن الأحاديث المروية عنه ﷺ بدت مصممة لجمع الأمة حول حكام أمثاله. ما معنى أن يبايع رجل رجلًا على بيع الله ورسوله ثم ينقض هذا الأخير العهد.؟ إن البيعة لو صحت مشروطة ببيع الله ورسوله، فلو نقضها من بويع له لم تصح على من بايع، ثم كيف تمت هذه البيعة وتحت أية ظروف...

هل كان ابن عمر مستطيعاً أن يكذب ما روي عنه. هذا إذا لم يكن ما روي هنا قد وضع بعد وفاته. أو لم يكن قد طوع وأسكت بمختلف الطرق والأساليب.

صحيح أن معاوية ويزيد وغيرهما لم يصرحوا بالشرك، ولم يقولوا صراحة، كما قال فرعون، نحن آلهةٌ من دون الله، ولكن ألا تدل أعمالهم وما أحدثوه من خروج فاضح عن الإسلام عندما وضعوا شرائع وسنناً وأحكاماً وتعليمات لم ينزل الله بها من سلطان، على أنهم قد أشركوا به فعلًا.؟ وهل الشرك هو مجرد عبادة أصنام أو آلهة متخيلة فقط مع الله؟.

---

(١) المصدر السابق ٢٣٦.

ما هو الانحراف!

إن الانحراف هو الابتعاد عن خط الإسلام، مهما أردنا أن نعطي مسميات أخرى لهذا الانحراف كما أن أول خطوة للابتعاد عن الإسلام، مهما بدت قصيرة وغير مهمة، تمهد لخطوات أبعد. حتى ليكون خطا التماس عند نهايتهما ـ بالتالي. إذا ما ابتعدت الشقة عن نقطة الشروع أو نقطة الالتقاء الأولى ـ قد اتخذ كل منهما مساراً مختلفاً.

ولذلك فإن هذه الخطوة الأولى تبدو خطرة إلى حد بعيد، وإن كان هذا الخطر لا يبدو واضحاً للوهلة الأولى.

إنّ الابتعاد عن أي تشريع أو مبدأ إسلامي مهما كان ضئيلّا، يعني الاعتقاد بأن هذا التشريع لا ينسجم مع حياة الإنسان أو واقعه، ووضع بديل له يعني رفضه واستبعاده نهائياً وإقحام الإنسان نفسه لإيجاد تشريع أو تصرف بديل يعني الاعتراف ضمناً بعدم قدرة الإسلام على استيعاب الحياة وتوجيهها وملئها وقيادتها.

إن الإسلام دين الله الكامل الأخير الذي أنزله على خير أمنائه على خلقه، محمد ﷺ ليبلغه إلى الناس كافة في كل زمان ومكان. وهي حقيقة لا يجادل بها أي مسلم يفهم حقيقة هذه الرسالة وتكاملها وانسجامها مع الفطرة البشرية وطبيعة الكون، ويفهم لغة القرآن ومنطقه، ويؤمن برسالة محمد ﷺ.

الله وحده هو المشرّع

ولم يأذن الله سبحانه بأي تشريع ـ حتى وإن كان باسم الدين ـ يضعه أي فرد من خلقه؟ ويتساءل القرآن الكريم مستنكراً. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾[1].

فالتشريع أمر ليس لأحد من البشر ـ مهما كان مركزه ـ أن يقوم به نيابة عن مبدع الكون وخالقه ومدبّره، وهو أمر لم يتح لأحد من البشر صلاحية التصرف فيه.

(لقد شرع الله للبشرية ما يعلم سبحانه، أنه يتناسق مع طبيعتها وفطرتها وطبيعة الكون الذي تعيش فيه وفطرته. ومن ثم يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون

(١) الشورى ٢١.

فيما بينها، والتعاون كذلك مع القوى الكونية الكبرى. شرع في هذا كله أصولًا، وترك للبشر استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجات الحياة المتجددة، في حدود المنهج الكلي والتشريعات العامة ـ فإذا ما اختلف البشر في شيء من هذا ردوه إلى الله، ورجعوا إلى تلك الأصول الكلية التي شرعها للناس، لتبقى ميزاناً يزن به البشر كل تشريع جزئي وكل تطبيق.

بذلك يتوحد مصدر التشريع، ويكون الحكم لله وحده، وهو خير الحاكمين، وما عدا هذا النهج فهو خروج على شريعة الله، وعلى دين الله)[١].

إن من يقوم بهذه المهمة ـ مهمة التشريع ـ يضع نفسه في مقامه ـ جل وعلا ـ على أن أكبر جريمة يؤاخذ عليها؛ هي نسبة ما يقوم به البشر لله ـ سبحانه ـ كذباً وافتراء. إن من يقوم بذلك يعلم ـ أنه لا قدرة له على القيام بأي تشريع نيابة عن الله ـ وخصوصاً إذا ما كان في مركز يدعى فيه خلافة رسول الله ﷺ نفسه. وليس أمامه من سبيل سوى تزوير بعض أقواله ﷺ أو وضع أقوال أخرى على لسان محدثين مأجورين أو تأويل ما أنزل الله بكتابه المجيد. وهذا هو الأمر الذي قام به معاوية علانية. إضافة لما قام به من أمور أخرى في مجالات عديدة. وهذا ما تمادى به إلى أبعد حد من جاء من (الخلفاء) الأمويين والعباسيين وغيرهم.

وإذ لم يعترف معاوية بأنه أول من قام بذلك، وألقى مسؤولية الانحراف على عاتق من سبقه من الخلفاء، إلا أن ما قام به معاوية ـ بشكل عملي وفعلي واضح ـ دلل على استهتاره واستهانته بالإسلام بصورة معلنة مكشوفة. ورغم أنه بذل بعض الجهود لإخفائها وإبرازها بشكل آخر، إلا أن من جاءوا بعده، لم يكلفوا أنفسهم هذا الجهد.

شعارات كاذبة

إن رفع الشعارات التي يبدو التكلف والافتعال فيها واضحاً مثل تلك التي تدعو إلى عدم نزع يد الطاعة والحفاظ على وحدة المسلمين وإجماعهم وغيرها ـ والتي ذكرنا قسماً منها ـ سيتيح لهؤلاء الحكام (المبايَعين) القيام بالمزيد من الممارسات القمعية لإسكات أي صوت معارض منتبه لهذا التوجه الماكر الخبيث الذي يريد العبث

---

(١) في ظلال القرآن ٤- ٣١٥٢.

بمكتسبات المسلمين والهبة الإلهية التي أعطتهم تشريعاً كاملًا ينظم حياتهم على أساسه. إن أقل مساس به يعني المساس بمصالح المسلمين لا على مدى الفترة الزمنية المعاصَرة وإنما حتى على المديات اللاحقة. فما يقوم به (خليفة) على أساس مبرَّر من قبل فقهاء الدولة ومحدثيها ومفسريها وقصاصيها سيصبح سنّة سيئة يتحمل مع مأجوريه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

ومن هنا كان تحذير الرسول ﷺ الشديد بتجنب سن هذه السنة السيئة. إذ من يمتلك صلاحية التغيير وإحداث ما يتعارض من السنن الإلهية والشرائع السماوية؟.

إن من يتربع على القمة جدير بأن يكون في مستواها. وإذا ما استن سنة، وقد جعل من نفسه مثلًا أعلى بديلًا للمثل الأعلى الأبدي، فإن كثيرين ممن تبهرهم شخصيات القمة هذه بفعل التضليل والإعلام المأجور قد يستعيضون بها عن السنة الإلهية، فيصبح ما يبيحه هو المباح وما ينهى عنه هو المحضور حتى وإن كان ما يبيحه حراماً وما يحضره واجباً.

وقد استثمرت هذه الشعارات بشكل حقق (فوائد) كبيرة تفوق تلك الخسائر التي صرفت لنشرها على شكل أحاديث مفتراة وآيات قرآنية مؤولة ومفسرة بشكل مغاير لما يراد منها.

وقد رأينا كيف (استثمرها) معاوية في البداية، واستثمرها يزيد في واقعتي الطف والحرة على وجه الخصوص للتعتيم على جريمتيه الكبيرتين في هاتين الواقعتين، وجعل (علماء المسلمين) و (بعض الصحابة) ينظّرون لمن دونهم من الناس ويروون أحاديث مكذوبة عن الرسول ﷺ ويصورون القمع الوحشي الذي قام به (الخليفة) وكأنه الأمر الوحيد الذي كان لا بد من القيام به، وكأنه أحد حقوقه المشروعة الممنوحة له من الله عز وجل، وأحد واجباته وتكاليفه الشرعية لرد (الضالين) و (المفرقين) إلى حضيرة الإسلام. وجمع الأمة المسلمة. (كما وقع زمن الحرة، فإنه بعث إليهم من يردهم إلى الطاعة، وأنظرهم ثلاثة أيام. فلما رجعوا قاتلهم وغير ذلك. وقد كان في قتال أحد الحرة كفاية! ولكن تجاوز الحد باباحة المدينة ثلاثة أيام. فوقع بسبب ذلك شر عظيم)[1].

---

(١) البداية والنهاية ٨-٢٣٥.

هل المشكلة هي لعن يزيد من عدم لعنه

أم أن المشكلة انتهاك مقدرات الأمة

(وقد استدل كثيرون بذلك على جواز لعن يزيد. ومنع ذلك آخرون وضعفوا فيه أيضاً لئلا يجعل لعنه وسيلة إلى أبيه أو أحد من الصحابة، وحملوا ما صدر عنه من سوء التصرفات على أنه تأول وخطأ، وقالوا إنّه كان مع ذلك إماماً فاسقاً والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قولي العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة ووقوع الهرج وسفك الدم الحرام ونهب الأموال وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا.

وأما ما يذكره بعض الناس من أن يزيد لما بلغه خبر أهل المدينة وما جرى عليهم عند الحرة من مسلم بن عقبة وجيشه فرح بذلك فرحاً شديداً، فإنه كان يرى أنه الإمام وقد خرجوا عن طاعته وأمّروا عليهم غيره، فله قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ولزوم الجماعة، كما أنذرهم بذلك على لسان النعمان بن بشير ومسلم بن عقبة كما تقدم، وقد جاء في الصحيح «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان»[1].

وانظر إلى هؤلاء الذين خافوا على معاوية والصحابة إذا ما لعن يزيد. ونظروا إلى جرائمه وكأنها كانت مجرد خلافات في الرأي حول أمور يومية عادية. وإن ما صدر عنه كان لمجرد أنه تأول. وقد أخطأ، ولا بد أن له لأجراً أيضاً، مع أنه فاسق، وهو أمر لم يستطيعوا كتمانه. ومع ذلك فقد أفتوا بعدم جواز عزله، وألقوا تبعة هذه الفتوى على رسول الله ﷺ وجاء بمبررات لا يقبلها العقل، كما أنهم لم يستهجنوا فرح يزيد لما بلغه خبر أهل المدينة الذين قال بشأنهم رسول الله ﷺ: (وهذا أمر لم يستطيعوا إخفاءه أيضاً): (من أخاف أهل المدينة أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وقال: من أخاف أهل هذا الحي من الأنصار فقد أخاف ما بين هذين ووضع يديه على جبينه)[2] لأنه كان (يرى) أنه الإمام وقد خرجوا عن طاعته. أما ما

---

(١) المصدر السابق ٨-٢٢٧.

(٢) نفس المصدر -٢٢٦.

يرون هم وفيهم صحابة عديدون من صحابة رسول الله ﷺ فلا تهم معرفته، فقد أنذرهم وكفى. أما ما فعل بهم فهو أمر مباح له لأنه إمام مجتهد فرأى رأياً كان فيه صلاح الأمة والحفاظ على وحدة المسلمين، وحتى هذا الحديث الذي رووه عن رسول الله ﷺ فيبدو الافتعال والوضع فيه واضحاً. يبدو أنه قد وضع لهذه المناسبة و(المناسبة) التي سبقتها وهي (واقعة الطف). ثم من قال أن الحسين عليه السلام وأهل المدينة من بعده جاءوا يريدون أن يفرقوا بين المسلمين؟ أليست هي الأجهزة الدعائية الأموية نفسها.؟.

روايات مسلّية.. يزيد يكتشف من آثار الرسول ﷺ ما لم يكتشفه جميع الصحابة

كما وضعوا على لسان الرسول العظيم ﷺ مزيداً من الروايات التي توحي بالمزيد مما أرادوا تأكيده بضرورة تعظيم من يتقلد أمر الأمة. هذا الذي بلغ تعظيم الله سبحانه، له أنه حرمه على النار. ففي رواية أخرى إن يزيد، لما قال له أبوه: سلني حاجتك. قال له يزيد: اعتقني من النار، أعتق الله رقبتك منها. قال: وكيف؟ قال: لأني وجدت في الآثار أنه من تقلد أمر الأمة ثلاثة أيام حرمه الله على النار، فاعهد إليّ بالأمر من بعدك ففعل)[1] وأنقذه من النار، كما أنقذ نفسه أيضاً حين تقلد أمر الأمة ـ ولو على رغمها. ولا ندري كيف أتيحت ليزيد فرصة معرفة ما لم يعرفه معاوية نفسه رغم علمه الواسع ورغم أنه أحد الأمناء الثلاثة.؟!. ترى ما هي الآثار النبوية التي درسها يزيد وعلمها من دون الأمة فتفقه فيها ورأى نتيجتها الواضحة أمامه. هل بلغ حرصه على الجنة أنه تنازل لقبول الخلافة ومستواه أعلى من أن يتنازل إليها؟.

لقد كانت هذه الرواية الموضوعة الأخرى معدّة لتقابل الرواية الصحيحة عن الرسول الكريم ﷺ بشأن الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام وأنهما سيدا شباب أهل الجنة.

إن ما انطلى على أهل الشام بشأن معاوية، كان لا بد أن ينطلي عليهم ببساطة بشأن يزيد.

---

(١) نفس المصدر ٢٣٠.

روايات وروايات مضادّة

إننا نلاحظ دأب معاوية على نشر روايات مقابلة أو مضادة لتلك التي وردت بشأن الإمام وآله عليه السلام، تتحدث عن فضائل مزعومة أخرى لمعاوية ويزيد وآل أمية. وإذ لم يستطع المسلمون كافة أن يهضموا هذه الروايات الموضوعة، فإننا لا نعتقد أن أهل الشام وفلسطين والأردن يرفضون قبولها، بل أنهم، وقد تلقوا الإسلام من وجهة نظر معاوية وعلى يده، وكانت (تربيته الإسلامية) الموجهة لهم خير عون له في إخضاعهم وتوجيههم وفق رغباته وطموحاته. فهم لم يمتلكوا قابلية تدقيق وتمحيص هذه الروايات الرسمية (الموثوقة) والصادرة من أعلى جهاز في الدولة. ولعلهم كانوا بحاجة إليها، بل ومتلهفين لسماع المزيد منها، لتبرير انقيادهم المطلق وراء الخليفة الأموي الذي عرّفهم على الإسلام ورسمه لهم وعرضه عليهم بالشكل الذي يريد.

(الخليفة) أولًا

كان التأكيد على شخصية (الخليفة الحاكم) وإظهاره كمثل أعلى بديل أو ممثل لمثله الأعلى الحقيقي، هو بداية الظهور المعلن (لطواغيت الإسلام) وفراعنته. إن محاولة وضع ثقة الأمة الإسلامية بحاكمها، لم يتم من خلال تصرفات هذا الحاكم وانطباقها على الإسلام وتوافقها معه بشكل حقيقي واقعي. وهذا ما ينبغي أن يكون، وإنما بإيجاد وخلق قناعات بهذا الحاكم، مستمدة من المصدر الأول للإسلام، وهو الكتاب الكريم والسنة المطهرة. وهذه المصادر متمثلة بالتأويل الخاطىء والكاذب لكتاب الله أولًا، وتلفيق أحاديث مزورة عن النبي ﷺ، كما رأينا في مجموعة الأحاديث الكثيرة الموضوعة في حق معاوية.

إننا لو كنا نملك العقلية التي امتلكها أهل الشام ومجاوروهم وأحلافهم، وسمعنا الأحاديث الموضوعة بحق معاوية، ثم تلك التي ترى ضرورة إطاعة حكام كيزيد وأشباهه، لرأينا أن لا مجال لهم إلا السير وراء هذين الخليفتين المسلمين، بل المؤمنين مطمئنين مستريحي البال والخاطر.

إن محاولة إفراغ الإسلام من محتواه، ليس عملية اعتباطية تمت عن طريق الصدفة وما كان الهدف منها هو مقتضيات (الضرورة) وحسب، كما حاول بعض المؤرخين أن يفهموا ذلك ويفهموه للآخرين، بل كانت عملية مقصودة منظمة مدبرة، تصاعدت خطواتها وإيقاعاتها، بمجرد تنفيذ الخطوات الأولى منها. ويروح أولئك

الكتاب يهونون الأمر علينا، كما هونه من قبلهم على أسلافنا، بأن الإسلام لم ينته كقوة فاعلة مسيطرة في عهد بني أمية ولم تتقلص مسيرته. لكننا نتساءل: ألم يكن ما جرى عليه في ذلك العهد، يستهدف وضعه في طريق النهاية والاضمحلال، من خلال إذابته بقيم وممارسات ومثل جاهلية مبتكرة ومستمد أكثرها من القيم السائدة في الحجاز وحواليه قبل الإسلام، وكذلك من ممالك وأقطار لم يدخلها الإسلام بعد. ويشيرون إلى أن تقادم عهد الرسول ﷺ وعدم وجود شخصية بديلة.! عمل على الوصول إلى هذه الحال، وهي شهادة أريد منها القول، إن ما جاءوا إلى الخلافة بعد رسول الله ﷺ لم يكونوا ليصلوا إلى ما وصل إليه الرسول ﷺ. وهذه حقيقة أكيدة. ولكن ألم يكن منهم من كان مؤهلًا لقيادة الأمة بالقدر الذي يتيح لها أن تسير على نفس النهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ؟. وقد استبعد في أكثر المراحل التي كانت الأمة بحاجة إلى قيادته، واستلم المسؤولية في الوقت الذي طمحت إليها أنظار عديدة لم يكن أصحابها ليصلوا إلى مستواه أبداً، ووضعت في طريقه عقبات عديدة واتحدت قوى عديدة لمناوأته وإعلان الحرب عليه.؟.

كما أن الجيل الأول الذي عاصر الرسول ﷺ وارتفع بفعل علاقته الوثيقة به ومعايشته التامة والفعلية له، أما كان يتسنى له أن ينشىء أجيالًا على نفس القدر من القوة والحماس والحب والاخلاص لله ولرسوله ﷺ ودينه؟.

إيحاء غريب. عمل الصحابة الأوائل كان تطوعياً

ألم يكن بإمكاننا كمجتمع ـ فيما بعد ـ أن نستشعر العوامل التي عملت على (تطوع) الكثيرين من أبناء الإسلام في عهد الرسول ﷺ من الصحابة الأوئل ونقوم بما قاموا به، لا على مستوى حالات فردية محدودة منقطعة، وإنما على مستوى اجتماعي شامل.؟.

لماذا ينبغي أن نعتقد أن أمور الإسلام ومبادئه وانسجامه مع الحياة، لا بد أن يسجل عداً تنازلياً بمرور الزمن؟ ترى لو كان هذا العد التنازلي يسير بالسرعة التي سار عليها في المدة الواقعة بين عهد رسول الله ﷺ وعهد يزيد، أين كنا سنصير الآن؟ لا بد أننا الآن في الحضيض، ولا بد أن الإسلام قد نسي الآن نهائياً ولم يعد يذكر إلا كأثر من آثار الماضي. وهذا ما أريد له فعلًا، غير أن القوة الكامنة فيه تجعله أقوى من مؤامرات أعدائه وكيدهم ودهائهم.

هل خطط الله ورسوله ﷺ للإسلام والمسلمين أن يكونوا في نهاية الأمر في الحضيض؟ في انحدار وانحطاط مستمر؟ وإن علينا أن لا نذكر تلك القمم الأولى إلا كمثل عليا انتهت ولم يعد من سبيل للتفكير بتحقيقها أو الوصول إلى مستواها؟ وإن علينا أن نكون واقعيين! فلا نطمح إلى ما لم يطمح إليه المسلمون في عهد معاوية ويزيد. وعهدهم أقرب إلى عهد الرسول ﷺ من عهدنا! وهم أقرب إليه منا. !!؟ وهل نحن أفضل منهما؟! وهل الإسلام الآن كما كان قبلًا؟!.

أحقاً أنك لا تعرف الحقائق أيها الكاتب الإسلامي الكبير؟

ولنرجع إلى كاتبنا الإسلامي الكبير محمد قطب الذي لم ينزعج مما عمله بنو أمية، ولا يرى أنه أمر كان يقصد به ـ بفعل مدبر ومتعمد ـ القضاء على الإسلام، وإن ما فعلوه لم يعمل سوى أن أخَّره قليلًا. ! يقول الكاتب الإسلامي الكبير: (إن هناك ـ كما أشرنا مراراً من قبل ـ وهما يجسّم عن قصد وغير قصد مفاده أن الانحراف الذي وقع في عهد بني أمية ـ فضلًا عما بعده ـ قد قضى على هذا الدين! وهو وهم يكذبه الواقع! وأبسط ما يقوله الواقع إن هذا الدين ما زال باقياً إلى هذه اللحظة بدليل الصحوة الإسلامية، بعد وقوع انحرافات لبني أمية بأربعة عشر قرناً على وجه التقريب. وشهادة الواقع تكفي).

ولكن الذي نريده هنا هو محاولة تحديد حجم ذلك الانحراف بالقياس إلى ما بقي سليماً من الصورة. لقد حدث دون شك هبوط عن الذروة التي كانت على عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، وهذا الهبوط عن تلك الذروة هو ذاته أحد أسباب ذلك الوهم الذي يتجسد في أذهان بعض الناس من أن الإسلام قد انتهى منذ ذلك الحين، فنحب أن نقرر بادىء ذي بدء ـ إن تلك الذروة بكل روعتها لم يكن يفترض أن تقوم في الأرض كثيراً بعد رسول الله ﷺ لأن وجوده بشخصه عليه الصلاة والسلام كان عاملًا مهما فيها. كما أن أثر النشأة الجديدة كان عاملًا مهما فيها كذلك، وهما عاملان بطبيعتهما لا يتكرران ولا يدومان. ونحب أن نقرر كذلك أن الجيل الذي ارتفع إلى تلك الذروة قد ارتفع إليها تطوعاً لا تكليفاً وإن الله لم يفرض على البشر أنْ يرتفعوا إلى تلك القمم الشاهقة فرضاً، وإن كان قد حبب إليهم ذلك. وكلنا لا نحاسب أحداً بمقتضى ذلك التطوع النبيل، ولا نحاسب بني أمية ولا بني العباس ولا آل عثمان ولا غيرهم بتلك القمم الشاهقة التي وصل إليها أفراد المجتمع المسلم

في عهد الذروة، وكان على رأسهم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم وإنما نحاسبهم بما فرض الله عليهم فرضاً وجعل النكول عنه ذنباً يساءلون عنه أمام الله يوم القيامة، فيغفر سبحانه لمن يشاء ويؤاخذ من يشاء)[1] ـ انتهى كلام الكاتب الكبير.

ونعيد ما سبق أن قلناه أيضاً: ألم يكن الانحراف الأموي يمهد لانحراف أوسع؟ كما سبق أن مهد له الانحراف الذي كان قبله مع أنه لم يكن واضحاً في البداية..؟.

دولة الإسلام أصبحت حلماً!

لماذا أصبحت الذروة مجرد حلم في خيال المسلمين ولم تعد حالة ممكنة؟ وأي دين هذا الذي بقي الآن بعد محاولة استئصال ما بقي من رجال الذروة هؤلاء بشتى الطرق والأساليب؟ كيف يبدو للمسلمين في أقطارهم؟ هل يبدو لهم في صورة واحدة وزي واحد؟ أم أنه له صورة مختلفة في كل قطر وفي كل مصر يرسمها له الخلفاء الجدد وأمراء المؤمنين العصريين؟.

هل (الهيكل) المتبقي لهذا الدين هو ما ينبغي أن نقنع به، بل ونفرح، ما دمنا مسجلين في دوائر الأحوال المدنية، نحمل شهادات بذلك مصدقة من الدول الإسلامية التي ننتمي إليها ويحكمها قادتنا؟.

لقد مهد الانحراف الأموي الخطير والواسع، الطريق أمام انحرافات هائلة لم ندرك مداها وخطورتها، لأننا نشأنا وعشنا فيها.

هل أنزل الله ـ جل وعلا ـ خاتم الديانات وأكملها ـ بعد انقطاع سلسلة الأنبياء والرسل، وهو يريد له أن يضمحل ويتلاشى، ولا يبقى منه سوى الاسم بعد وفاة الرسول ﷺ بسنوات قليلة؟ هل لهذا أنزله وفرض أحكامه، لتتذوق البشرية حلاوته لفترة قصيرة، ثم لتتذوق المرارة بعد ذلك إلى الأبد.؟ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؟.

إننا لا نريد محاسبة بني أمية وبني العباس وأضرابهم لأنهم لم يؤدوا الأعمال التطوعية التي أداها من قبلهم. ولكننا إذا ما حاسبناهم، ووصفنا أعمالهم وعرضناها

---

(١) كيف نكتب التاريخ ـ محمد قطب ص ١١٦-١١٧.

على بقية المسلمين هل سيكون حسابنا لهم حساب الناس العاديين الذين لم يتحملوا سوى مسؤولية أنفسهم ولم يكن لهم أي تأثير في مسيرة المجتمع الإسلامي برمته؟ أم حساب أناس تسنموا الذروة التي لم يكونوا مؤهلين لاحتلالها في يوم من الأيام، وتحملوا مسؤولية قيادة وحكم الأمة الإسلامية رغم أنوف أبنائها؟ أي مسؤوليات قائدها الأول نفسه، رسول الله ﷺ؟.

لا بد من استعراض الأخطاء

لا بد لنا من تحديد المسؤوليات والأخطاء. ولسنا نحاسب هنا، بل المحاسب هو الله سبحانه، كما نقر ذلك مع مؤرخنا الكبير، غير أننا نتساءل: لماذا لا ينبغي استعراض ما مرّ بأمتنا من أحداث ووقائع؟ ولماذا لا ينبغي تشخيص المسؤولين عن أسباب الانحراف الذي وقعت فيه؟ ولماذا الصحوة الإسلامية إذا ما كنا نقر الانحراف الأول ونتقبله باعتبار أن شره قد زال وأن علينا أن لا نذكر موتانا إلا بالخير؟ ولماذا الفرح بهذه الصحوة التي كان يمكن أن تتم منذ زمن بعيد؟ وما معنى هذه الصحوة؟ أليس لإعادة الأمور إلى نصابها وإعادة الإسلام إلى أصله وصورته الحقيقية؟ أليس كاتبنا من أنصار الصحوة الإسلامية ودعاتها؟.

هل كان يقر معاوية أو يزيد وأفعالهما لو كان يعيشان الآن، ويقفان على رأس السلطة القائمة ممثلين للإسلام؟ أما كان سيتصدى لهما ويقف في مقدمة الرافضين لهما لخروجهما الواضح عن الإسلام.

لماذا لا نحاسب بني أمية وغيرهم بعدل الرسول ﷺ وعلي عليه السلام ولماذا لا تعرض تصرفاتهم على القرآن الكريم والسنة المطهرة لنرى مدى تطابقها معهما، ما داموا قد أخذوا على عاتقهم استلام مركز القيادة نيابة عن الرسول ﷺ، (خلفاء) له؟ ترى من يحاسب على الانحراف إن لم يحاسب قادته؟ أم أننا نتغاضى عن محاسبتهم لأنهم قادة وخلفاء وأولو أمر قد بايعناهم وأصبحت بيعتنا لهم أمانة في أعناقنا وقضي الأمر. وكأنه قدر محتوم؟.

ولماذا يظن ظان أن نظرة الرسول ﷺ ومن بعده الإمام عليه السلام نظرات غير واقعية وخيالية و (مثالية - غير قابلة للتطبيق، على نمط المدينة الفاضلة)، مع أن الإسلام أنزل كدين عملي واقعي ليطبق ويحكم ويسود، لا لينبذ ويهمل ويوضع على الرفوف بعد نصف قرن فقط من رحيل الرسول الكريم ﷺ؟.

هل كانت معركة بين فئتين من المسلمين

كان كل ذلك لأن المتصدين للإمام عليه السلام ـ الذي تبنى الإسلام والتزم خطاه بشكل تام، رأوا أن معركتهم معه لا يمكن أن (تفوز) ما لم يحاربوا العدوين معاً، الإمام عليه السلام والإسلام. ولأن هؤلاء المتصدين للإمام كانوا كثيرين وكانوا عقبة في سبيل تطبيق المبادىء الإسلامية. جعلوا الأُمة تعتقد أن الإسلام لا يمكن أن يطبق وفق نظرة علي بن أبي طالب، لأنه ـ وهذه حجتهم ـ قد جوبه وحورب بشدة عندما حاول إقامة دولته الإسلامية على نفس النمط الذي أقامها به الرسول صلى الله عليه وآله. ناسين أو متناسين أنهم هم من أعلن عليه العداوة والحرب للأسباب التي ذكرناها في غضون هذا الكتاب. وهم نفسهم الذين انهزموا أمام رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لم يجرؤ على الاختلاف فيه اثنان بعد إكمال الدين واتمام النعمة. فأعادوا الكرة على خليفته بعد أن فشلوا معه.

وإذ حاول معاوية إخفاء هذه الحقيقة، فإن يزيد الأقل حذراً والأكثر استرسالاً في الجرائم المعلنة لم يستطع أن يخفي مشاعره عندما عبر عنها بعد واقعة الحرة المشؤومة التي ألحقت أكبر الأذى بالمسلمين. فهو لم ينس هزيمة المشركين وفي مقدمتهم آل أبي سفيان في بدر أمام الرسول صلى الله عليه وآله. ولم ينسَ الحقد المتأجج في نفسه ونفوس الآخرين من آل أمية على الرسول وآل الرسول وأصحاب الرسول وأنصار الرسول. فكانت أبياته التي رددها فرحاً تعبر عن هذا الحقد المرير على الإسلام ورسوله ونعبر عن الرفض التام والواضح للإسلام والإنكار المعلن للوحي[1].

---

(١) فقد روي أن يزيد أنشد بعد سماعه أخبار واقعة الحرة واباحة المدينة ثلاثة أيام من قبل مسرف بن عقبة ودعوة الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد بن معاوية ويحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء.

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسَلْ
حين حلت بفناهم بركها	واستجر القتل في عبد الأشل
قد قتلنا الضعف من أشرافهم	وعدلنا ميلَ بدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا	ملك جاء ولا وحي نزل.

وقد علق ابن كثير في (البداية والنهاية ٨-٢٢٧) على هذه الأبيات قائلًا (فهذا إن قال يزيد بن معاوية فلعنه الله وعليه لعنة اللاعنين وإن لم يكن قاله، فلعنة الله على من وضعه عليه ليشنع به عليه). أترى أن ما فعله يزيد فعلًا ـ ويذكره ابن كثير نفسه لا يعتبر جريمة حقاً. وإن الجريمة لفظه هذه الأبيات فقط؟.

تربع معاوية على دست الزعامة الإسلامية بعد ثلاثين عاماً من وفاة رسول الله ﷺ وتربع يزيد على هذا الدست بعد عشرين عاماً من ذلك، أي بعد نصف قرن فقط من وفاة الرسول الكريم ﷺ. فإذا كان هذا النصف قرن من الزمن، قد وصل بالإسلام إلى الحال المتردية التي وصل إليها، فكيف سيكون الحال بعد أربعة عشر قرناً من الزمن؟ لو كان العد تنازلياً لكنا قد رجعنا الآن إلى عهد نوح، ولشهدنا لا جاهلية واحدة، بل جاهليات متعددة، يتستر بعضها بثوب الإسلام، وتلبس رداءه وتدعي تمثيله.؟ وهذا ما نشهده فعلًا. جاهليات عصرية تمتلك كفاءات لم تكن تملكها تلك الجاهليات القديمة ذات الأسلوب المباشر في الشرك. فهل علينا أن نقول الآن أنه ليس من حق الأمة الإسلامية أن تراقب سلوك حاكميها وترصده وتقومه وتعرضه على الإسلام لترى مدى مطابقته له؟ أم أننا ينبغي أن نعلن استسلامنا وسكوتنا وخضوعنا المطلق ما دمنا قد بايعنا و (انتخبنا) الآن، ونترك الأمر لله بعد ذلك يحاسب في الآخرة، فيغفر سبحانه لمن يشاء ويؤاخذ من يشاء على حد تعبير كاتبنا الكبير، وتستمر الأمة في الوقوع فريسة بيد حاكمها المحضوض الذي اختص لوحده بهذه المنحة الإلهية. ولتذهب الأمة كلها إلى الجحيم.؟.

بدائل مزوّرة لمسخ الإسلام

إن العمليات المنظمة الدؤوبة لإفراغ الأمة الإسلامية من مقومات وجودها الأساسية وهي الإسلام، بايجاد بدائل سلوكية وعقائدية ممسوخة، تختلف عن تلك التي جاء بها الإسلام، اعتمدها الأمويون في حملتهم المكرسة لتزعم المسلمين على حساب مصالحهم الحقيقية وعلى حساب الإسلام نفسه. ولو أنهم جاءوا وحاولوا الوصول وفق المقاييس الإسلامية التي ينبغي العمل بها، لما طمع أحدهم حتى بتولي أمر الخراج في بلدة صغيرة، وما كان يتسنى لهم البقاء والحكم لو لم يعملوا على إيجاد مقاييس ومثل جديدة تتعايش معها الأمة الإسلامية المغلوبة والمخدوعة، و (تنسجم) معها على رغمها.

وكانت الخطة الأموية الحاذقة المحكمة التي تمت على يد مؤسس الدولة الأموية (الداهية)، أداة بيد كل من جاء لحرب الإسلام وتخريبه بعد ذلك. حتى أن من حاولوا أن يشنوا عليه الحرب مؤخراً بادعاء الوصاية على المسلمين، لم يعمدوا إلى الأسلوب المباشر في الحرب الذي يعمد إليه الأعداء المكشوفون عادة، بل اعتمدوا

الأسلوب الأموي الماكر الذي لجأ إلى حرب الإسلام من الداخل بعد التسلسل إلى صفوف المسلمين وإضعافه واضعاف الوازع الديني في النفوس بجملته وتشجيع الممارسات التي تتقاطع مع الإسلام وأحكامه والتي رفضها الإسلام وحث على الابتعاد عنها.

كيف تستطيع الأمة أن تهضم استيلاء (الخليفة) على أموالها ومقدراتها، وتلاعبه بها على هواه، وكيف تسيغ إقباله على الفساد والشراب واللهو، وتركه أمورها بيد حاشيته وقواده ونسائه ومقربيه، إن لم تكن قد ابتعدت عن مقوم وجودها كأمة إسلامية، وهو دينها الذي بدأت تتخلى عنه بفعل الضغوط الأموية المستمرة. وقد أريد لسلوك هذا الحاكم أن ينسحب على الحاشية أولًا والطبقة الحاكمة وذيولها وحواشيها ثم على جماهير الأمة الإسلامية في مركز الخلافة وبعد ذلك إلى أقطار العالم الإسلامي، لتنتشر فيها كل ألوان الرذيلة والفساد.

وهكذا روت لنا كتب التاريخ أنه قد (غلب على أصحاب يزيد وعماله، ما كان يفعله من الفسوق. وفي أيامه ظهرالغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب)[١].

إن مركز الخلافة هذا كان ينبغي أن يكون مركزاً للإشعاع الإسلامي لا بؤرة لضخ الممارسات الفاسدة من قبل (الخليفة) وأعوانه، ثم أهل حاضرته ومركز (خلافته) إلى بقية أقطار العالم الإسلامي.

إذا كان رب الدار بالدف ضارباً

فإذا كان الخليفة القائد على هذا المستوى من الانحدار والانحطاط، فكيف سيكون حال رجل الشارع البسيط الذي أريد له أن يتخذ من هذا الخليفة مثلًا أعلى؟.

لقد أظهر الناس شرب الشراب، وظهر الغناء واستعملت الملاهي. أي أن الفساد كان معلناً متفاخراً به ليس في الشام وحدها، وإنما في أقدس بقعتين من العالم الإسلامي، كعبة الله وعاصمة رسول الله ﷺ ـ مع أنه ظهر بشكل أخف في عهد عثمان

(١) مروج الذهب ص ٨٢.

ومعاوية. كان ذلك أذناً للجميع بالانحراف وشهادة موقعة من قبل (الخليفة) يتيح بموجبها للجميع أن يرفضوا الإسلام بكل بساطة جملة وتفصيلًا. وقد أصبح عملهم هذا سنة لكل الناس لا في زمنهم وحسب وإنما في الأزمنة التي تلتهم، حيث لم يتحرج ولم يخجل أي (خليفة) أموي أو غيره من إعلان ما لم يعلنه يزيد، و (أبدعوا) في اظهار المزيد من مهاراتهم في مجال الانحراف والانحدار.

ولنأخذ مثلًا بسيطاً لما وصل إليه حال المجتمع المسلم. سليل مجتمع الرسول ﷺ في ظل (الخليفة المسلم) ـ الفاسق الذي لا يجوز خلعه والخروج عليه بموجب فتاوى فقهاء الدولة المأجورين. (كان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه، وجالس الملهين وأظهر الشراب والملاهي والعزف وفي أيامه كان ابن سريح المغني ومعبد والغريض وابن عائشة وابن محرز وطويس ودحمان، وغلبت عليه شهوة الغناء وعلى الخاص والعام.

وكان يزيد بن عبد الملك أبوه قد قال لمغنيه ابن عائشة أو لساقيه: اسقنا بالسماء الرابعة وقصة رمي الوليد المصحف بالنشاب معروفة جيداً. ومسألة الحاده المعلن معروفة أيضاً)[1].

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ٢٥٩-٢٦٣ وقد (قرأ الوليد بن يزيد بن عبد الملك ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [إبراهيم] فدعا بالمصحف فنصبه غرضاً للنشاب وأقبل يرميه وهو يقول:

أتوعد كل جبار عنيد　　فها أنذاك جبارٌ عنيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشر　　فقل يا رب مزقني الوليدُ

وذكر محمد بن يزيد المبرد النحوي أن الوليد الحد في شعر له ذكر فيه النبي ﷺ وأن الوحي لم يأته عن ربه كذلك. أخزاه الله من ذلك الشعر:

تلعب بالخلافة هاشمي　　بلا وحي أتاه ولا كتاب
فقل لله يمنعني طعامي　　وقل الله يمنعني شرابي

فلم يمهل بعد قوله هذا إلا أياماً حتى قتل). ربما لم يفهم يزيد كيف صار الأمر إليه وأصبح هو خليفة الوحي وحامل الكتاب، فحسب أن الأمر برمته لعبة وأن لا وحي هناك ولا كتاب، وإلا لما صار هو ممثل الوحي وخليفة رسول الله ﷺ. ولم يستطع إلا أن يعرب عن مشاعره التي كتمتها بعض من جاء قبله.

انتهاكات مفضوحة. ومزاعم مكشوفة

ولا بد أن يزيد وفق نظرية معاوية التي ذكرناها هنا والتي يشير فيها إشارات موحية مضللة إلى أن الخلف لا يمكن أن يصل إلى مستوى السلف، وأن من جاءوا قبلًا هم أفضل ممن سيجيئون بعدهم. (إني وليتكم ولن يليكم أحد بعدي خير مني، وإنما يليكم من هو شر مني كما كان من وليكم خيراً مني)[1].

إن يزيد وفق هذه (النظرية) التي تبناها هو فيما بعد ـ كما ذكرنا أيضاً ـ لا بد أن يكون أفضل ممن جاء بعده. ! ولو نظرنا بمقياس معاوية هذا لرأينا أن عبد الملك والوليد وهشام ويزيد والوليد ابنه وغيرهم وغيرهم، إنما كانوا يتصرفون وفق (سنة) طبيعية (وقانون) مقر معترف به، وضعه (الخليفة) الأموي الأول وقبلت به الأمة، وأن هؤلاء (الخلفاء) لم يفعلوا شيئاً، وأنهم إنما تصرفوا وفق النظرية والقيم الأموية المتبناة التي تبيح الخروج عن الإسلام، وتجعل من ذلك أمراً مشروعاً. وأن هذا الخروج المتعمد أو السلوك التنازلي قد أصبح تقليداً متبعاً وسنة أموية، حتى أن كل (خليفة) منهم لم يكلف نفسه حتى بأن يكون مثل من سبقه. لقد وجد هؤلاء من (يبيح) لهم تصرفاتهم المحظورة وانحرافاتهم الخاطئة. وبما أنهم كانوا يرون أن آباءهم الذين وضعوا لهم هذا (المنهج) وهذا (المذهب) في الانحراف أفضل منهم، فإنهم كانوا ـ بلا شك ـ يتصرفون وفق قناعات بمنهج ومذهب الآباء ولا يرون أنهم انحرفوا أو أخطأوا ولعلهم سيقولون كما قال المعاندون المنحرفون الأولون: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾[2].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[3].

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾[4].

---

(١) البداية والنهاية ٨-١٤٢.

(٢) الزخرف: ٢٢.

(٣) البقرة: ١٧٠.

(٤) يونس: ٧٨.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(١).

وإذ رأى هؤلاء الأبناء أنفسهم متمتعين بامتيازات استثنائية هائلة أتاحها لهم أولئك الآباء الذين لم يورثوهم أسباب الترف والنعيم وحسب، وإنما الملك والزعامة والوجاهة والتسلط على أموال الناس ورقابهم ومقدراتهم. أصبحوا مقتنعين بأولئك الآباء على أنهم (المثل الأعلى) العالي لا المنخفض الحسي السيّىء الذي تتحكم به الرغبات والشهوات البهيمية المتدنية. ولن يتاح لأحد اقناعهم بالتنازل ـ بسهولة ـ عن هذا (المثل الأعلى) المنخفض الذي وجدوه قائماً قبلهم ومهد لهم كل شيء وأتاح لهم كل هذه الامتيازات.

التسلط الفرعوني سبب كل الرذائل

في الآيات السابقة وغيرها (يستعرض القرآن الكريم السبب الأول لتبني المجتمع هذا المثل الأعلى المنخفض، هؤلاء بحكم الالفة والعادة، وبحكم التميع والفراغ وجدوا سنة قائمة، وجدوا وضعاً قائماً، فلم يسمحوا لأنفسهم بأن يتجاوزوه، جسدوه كمثل أعلى وعارضوا به دعوات الأنبياء على مر التاريخ؛ هذا هو السبب الأول لتبني هذا المثل الأعلى المنخفض، والسبب الثاني لتبني هذا المثل الأعلى المنخض هو التسلط الفرعوني على مر التاريخ. الفراعنة على مر التاريخ حينما يحتلون مراكزهم يجدون في أي تطلع إلى المستقبل وفي أي تجاوز للواقع الذي سيطروا عليه، يجدون في ذلك زعزعة لوجودهم وهزاً لمراكزهم.

من هنا، من مصلحة فرعون على مر التاريخ أن يغمض عيون الناس على هذا الواقع، أن يحول هذا الواقع الذي يعيشه الناس إلى مطلق، إلى إله، إلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه؛ يحاول أن يحبس وأن يضع كل الأمة في إطار نظرته هو، في إطار وجوده هو، لكي لا يمكن لهذه الأمة أن تفتش عن مثل أعلى ينقلها من الحاضر إلى المستقبل، من واقعه إلى طموح آخر أكبر من هذا الواقع؛ هنا السبب اجتماعي لا نفسي. السبب خارجي لا داخلي. وهذا أيضاً ما عرضه القرآن الكريم:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾(٢).

---

(١) المائدة ١٠٤.　(٢) القصص ٣٨.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[١].

هنا فرعون يقول ما أريكم إلا ما أرى ويريد أن يضع الناس الذين يعبدونه في إطار رؤيته، في إطار نظرته، يحول هذه النظرة وهذا الواقع إلى مطلق لا يمكن تجاوزه، هنا الذي يجعل المجتمع يتبنى مثلًا أعلى مستمداً من الواقع، هو التسلط الفرعوني، الذي يرى في تجاوز هذا المثل الأعلى خطراً عليه وعلى وجوده)[٢].

لقد حاول معاوية مجدداً تثبيت الواقع الذي سيطر عليه، وحاول منع الناس من تجاوزه أو تخطيه. فحينما ساهم إلى حد بعيد في وضع الأمة في مأزق الفتن والحروب، والتصدي لإمام الأمة عليه السلام وجد أن مما يساعده على ذلك تشجيع حالة التسرب من الإسلام والالتزام الحقيقي به، وإيجاد حالة من الفوضى العقائدية والتباس المفاهيم وتشابكها وتعددها، ليبرر كل تصرف له بأنه تأويل وأنه قد يصيب مرة ويخطىء أخرى - كما يفعل غيره أيضاً، وربما حاول إبراز سلوك الإمام عليه السلام وخصوصاً أمام المغرر بهم من أهل الشام بأنه خطأ دائمي بحق المسلمين وراح يزرع الحقد الأعمى عليه في نفوسهم إلى حد قيامهم بسببه استجابة لتوجيهات معاوية ورغباته.

أراد معاوية أن يجد مبرراً لكل تصرف منحرف من قبل (الحاكم). وعزز ذلك نظرته وتسامحه بشأن يزيد وهو (مثل أعلى) مرتقب، وكذلك بشأن حاشية يزيد، وما أحاط به نفسه هو من الأبهة والفخفخة والحاشية المتنعمة والأمراء ورؤساء الجنود والقبائل الذين خطوا بامتيازات ورواتب وعطاءات أكثر من الآخرين. وقد رويت لنا أقاصيص غريبة عن حياتهم وبذخهم وترفهم.

إنه بمحاولة توطيد الحكم وتمهيده ليزيد بحالته التي هو عليها دون تحسين سلوكه ودون بذل سوى محاولات ضئيلة بهذا الاتجاه لتحسين صورته، أراد إعداد حالة جامدة ومتكررة ومألوفة لدى المجتمع الإسلامي، يدعمها بكل امكانات الدولة الإسلامية التي يرأسها بمختلف الأساليب التي تتيحها له (عبقريته) الفريدة و (دهاؤه) المعروف. لتظل الحالة المتكررة هي حالة الثبات المطلوب ايجاده لدى الأمة الإسلامية.

---

(١) غافر ٢٩.
(٢) المدرسة القرآنية ١٥١-١٥٢.

ولم يلزم معاوية نفسه و (خلفاءه) وقواده وأمراءه بأية التزامات أخلاقية معينة، بل أعد الأمة المسلمة لتقبلهم ـ كما هم ـ وبما هم عليه من انحراف وفساد وحتى بمستوياتهم المتدنية، لأنه أدرك أن من سيأتون بعده لا بد أن ينهاروا ويسقطوا إذا ما انتبهت الأمة إلى النماذج الفريدة المتمثلة بالرسول الكريم عليه السلام وآله. وإذا ما أثاروا تقززها ونفورها من سلوكهم الطائش الأرعن غير المتحفظ.

نموذج فرعوني جاهز، (صالح) لكل زمان ومكان

إن النموذج الأموي المستبد للحكم، أصبح نموذجاً جاهزاً للعباسيين، فحكموا على غراره ووفق أسسه ومعاييره، مدعين الحق الإلٰهي والعائلي، حكماً استبدادياً لا يقل سوءاً عن النموذج الأموي الأول، دون اعتراض من الأمة المسلمة، بعد أن مهدوا لذلك بحملات وتصفيات دموية شرسة ذبحوا في بدايتها (خصومهم) الأمويين، ثم التفتوا إلى كل جهة (يشمون) منها رائحة العداوة والمعارضة لحكمهم، فحاولوا استئصالها. وكان في مقدمة هؤلاء (الأعداء) أو الذين يفترض أن يكونوا من أعدائهم أئمة آل البيت عليهم السلام. رأى بنو العباس في النموذج الأموي نموذجاً مقبولاً وصالحاً وقابلاً للتطبيق. رغم أنه كان عدواً بحكم التنافس على الحكم، وهي مسألة لا تقلل من شأن الناحية الغنية التي عليهم الإفادة منها إلى أقصى حد ممكن وقد رأينا (إن المنصور كان في أكثر أموره وتدبيره وسياسته متبعاً لهشام بن عبد الملك لكثرة ما كشفه من أخبار هشام وسيرته)[1].

وقد رفضوا بدورهم النموذج الحقيقي للحكومة الإسلامية كما شهدها عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام. فكانوا معولاً آخر من المعاول العديدة التي حاولت تحطيم النموذج الصحيح، وجعله يبدو صعب المنال أمام الأمة وأن لا أمل بارتقابه أو التطلع إليه. وحاولوا إخفاءه خلف العدد (المتراكم) من (الخلفاء) العمليين الذين يصلحون وحدهم لقيادة الأمة. ان توجهاتهم كانت ـ أيضاً ـ تسير نحو الاستحواذ على الملك وحصره في أبنائهم كما فعل الأمويون من قبلهم.

---

(١) مروج الذهب ـ ص ٢٥٠.

تالله ما فعلت علوج أمية

إنهم يدركون أنهم إذا ما تناقشوا مع (المعارضة) ـ التي كانوا يعتقدون أيضاً أنها ستنبع من أبناء عمومتهم العلويين بقيادة آل البيت ـ على أساس مبدئي عقائدي، فإنهم لن يستطيعوا أن يصمدوا ولن يستطيعوا أن يثبتوا لهم حقاً، ومن هنا كانت الذرائع والأساليب الأموية خير معين لهم، إلا أنهم استعملوها بأسلوبهم الخاص استعمالاً مغايراً من حيث الشكل متشابهاً من حيث المضمون.

فهم أقرب إلى الرسول ﷺ من آل أمية الذين ادعوا قرابته الوثيقة وارتباطهم الشديد به، وربما ادعوا أنهم أقرب إليهم من الإمام عليه السلام نفسه، كما حاول معاوية أن يوحي بذلك لأهل الشام خاصة، وقد تذرعوا بقربهم منه ومن آل علي عليه السلام ـ العلويين ـ وطالبوا بالخلافة باسمهم أول الأمر وحاولوا انتزاعها من الأمويين بهذه الذريعة. وقد روي لنا أن محمد بن عبد الله بن الحسن كتب إلى المنصور بهذا المعنى قائلًا: (وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم إليه بشيعتنا وخطيتم بفضلنا وإن أبانا علياً عليه السلام كان الإمام، فكيف تتم ولاية ولده، وقد علمتم أنه لم يطلب هذا الأمر أحد بمثل نسبنا ولا شرفنا، وأنا لسنا من أبناء الظئار ولا من أبناء الطلقاء)[1].

وكان مما تذرعوا به لنيل الحكم قتل يزيد للحسين عليه السلام. (استغل بنو العباس مقتل الحسين عليه السلام فدعوا لبني هاشم ثم لأنفسهم خاصة)[2] وقد (احتج العباسيون على الأمويين بقتل الحسين ومسلم وإبراهيم بن محمد وزيد بن علي ويحيى بن زيد. . الخ)[3].

وهكذا أعادوا ما فعله معاوية حينما طالب بدم عثمان ـ باعتباره ابن عمه وولي دمه ـ مع أنه سعى وجهد لقتله ـ كما رأينا. وقد احتج هؤلاء بثارات الحسين عليه السلام وآل أبي طالب، ثم عندما استلموا السلطة تنكروا لأولئك الذين جعلوهم ذريعة للوصول إلى هذه السلطة.

لقد سعى الجميع لتثبيت الوضع وتجميده على الأسس التي وضعوها، ملكية

---

(١) العقد الفريد/ ٣٠٨-٢٢٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مروج الذهب ٢٩٩-٣٠٠.

وراثية مستبدة، مطلقة وغير مقيدة. قول (الخليفة) هو القانون وعمله هو (السنة) وأحكامه هي الضرورة.!.

تأويل أحاديث.. قريش للخلافة.. ولا يهم أن يكون الخليفة من أي البطون

لقد استغل معاوية ما فعله من جاء قبله وسعيهم لحصر الخلافة في قريش وقول الخليفة الأول للأنصار: (لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش)[١]. وعندما استخلف الشيخان أرادت قريش وممثلها عبد الرحمن بن عوف أن تجعل من سيرتهما بعد وفاتهما سنة لمن يأتي بعدهما وشرطاً أساسياً لقبوله كخليفة على المسلمين. ولا نظن ذلك ينطلق من نظرة الحرص على الإسلام. فإن سيرتهما كإنسانين عاديين ـ وهو ما اعترف به بأكثر من مناسبة ـ غير ملزمة بأي حال من الأحوال إلا إذا كانت مطابقة تماماً لسيرة الرسول ﷺ وإلا إذا امتلكا درجة من الوعي تتيح لهما فهم كل أحكام الإسلام وتشريعاته وأسسه بحيث تغنيهما عن الاستعانة بالآخرين في هذا المجال، وهو أمر لم يدعياه لنفسيهما، بل على النقيض من ذلك: اعترفا بقصورهما في العديد من المجالات.

فعل الشيخين ليس سنة

«أعمل بمبلغ علمي وطاقتي»

وقد رفض الإمام عليه السلام طلب عبد الرحمن بن عوف رفضاً باتاً عندما عرض عليه الخلافة مشروطة بهذا الشرط وقال له: «اعمل بمبلغ علمي وطاقتي»[٢] بينما استجاب عثمان لطلبه. وقد روى لنا الطبري[٣] إن عبد الرحمن بن عوف قال له: (هل أنت يا علي مبايعي على كتاب الله وسنة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، فالتفت إلى عثمان، فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم).

---

(١) العقد الفريد ٥-١١.
(٢) المصدر السابق ٥-٣٠.
(٣) الطبري ٢-٥٨٦ وابن الأثير ٢-٤٦٤.

وقد أعاد عليهما الكرة ثانية في المسجد الكبير أمام المسلمين فأعادا عليه نفس الجواب. إن علياً عليه السلام أدرك أنه إذا ما قبل بشرط عبد الرحمن، فإنه يعترف للشيخين بحق التشريع مع أن ذلك أمر لا يمكن أن يكون متاحاً إلا لمن أرسل الرسالة وهو الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وآله المسدد بوحيه وعزائم أمره وعصمته. ولم تكن إتاحة هذه الفرصة للرسول صلى الله عليه وآله وخلفائه من آله عليهم السلام اعتباطاً وبشكل كيفي، وإنما على أساس كتاب الله وأحكامه ووحيه. إن فعل الرسول وأقواله وتقريراته وكذلك خلفاؤه هي ما ينبغي العمل به من قبل المسلمين، لا استثناء لأحد منهم، فما دام الشيخان لم يستطيعا تجسيد كل معطيات الرسالة في كافة المجالات وقد اعترفا بقصورهما واحتمال وقوعهما في الأخطاء كغيرهما، وما داما لم يبلغا الحد الذي يوصلهما إلى العصمة التي يمكن تفسيرها بالمقاييس الإسلامية بأنها (الانفعال الكامل بالرسالة والتجسيد الكامل لكل معطيات تلك الرسالة في النطاقات الروحية والفكرية والعملية)[1]. فإنه ـ وقد تمتع بتلك العصمة لا يستطيع أن يسير خلف من يحتمل خطؤه ويجعل من عمله سنة وشرعة.

ندم متأخر

«فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء».

وقد ندما هما شخصياً على الكثير من المواقف التي وقفاها في حياتهما وعلى الأخطاء التي صدرت عنهما.

فقد ورد عن أبي بكر قوله: «فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء، وإن كانوا أغلقوه على الحرب»[2].

وورد عن عمر أنه لما ثقل وضع خده على الأرض وقال: «ويل لعمر ولأم عمر إن لم يعف الله عنه»[3].

وقوله: (ولوددت أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لا لي ولا عليّ)[4].

---

(١) أهل البيت (ص -٧٤).
(٢) العقد الفريد ٥-١٩-٢٥-٣١.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.

وكان يعلم قدرة الإمام عليه السلام على تجسيد الرسالة في كل المجالات الروحية والعملية. وقد أعطى السبب في اقصائه عن مركز القيادة بعد وفاة رسول الله، وقال لابن عباس: (ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة؟. إنكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا: إن فضلوا بالخلافة مع النبوة لم يبقوا لنا شيئاً، وإن أفضل النصيبين بأيديكم، بل ما أخالها إلا مجتمعة لكم، وإن نزلت على رغم قريش)[1].

وربما أراد أن يستدرك الأمر عند وفاته، وقد صرح قبيل ذلك قائلًا: (قد كنت أجمعت بعد مقالتي بكم أن أولي رجلاً أمركم أرجو أن يحملكم على الحق، وأشار إلى علي)[2].

وإذاً فإن هذين الرجلين مهما بلغ مَرْكزهما وهما يعترفان للإمام بالفضل والسبق والكفاءة ـ مع أن هذا أمر مشهود به ومعترف من قبل الجميع حتى أعداء الإمام أنفسهم ـ ويشيدان بانفعاله الكامل بالرسالة واندماجه بها، لا يمكن أن يطالبانه بالعمل بعملهما. وهما لم يفعلا ذلك قطعاً، لأنهما يدركان أنهما لا يمكن أن يكونا نموذجين كاملين مثله.

إن من دعا إلى الحكم بعمل الشيخين، لم يكن يريد مصلحة الإسلام بلا شك ـ بل أراد ترسيخ نمط من الحكم لا يلتزم بدقة بالنمط الأول الذي أوجده رسول الله صلى الله عليه وآله، ويسمح لنوع من (الاجتهاد) الكيفي المبني على القياس في أغلب الأحيان ويتيح مجالًا لخروج أكثر عن أكثر التعليمات والتشريعات الإسلامية صرامة وجدية.

ويا ليت من قبل العمل بسنتهما وعملهما قد عمل بذلك فعلًا والتزمه لكان ذلك الحد مقبولًا إلا أن من قبل ذلك، يبدو أنه تعمد أن يخرج حتى عن الحدود الدنيا المطلوبة.

وقد استفاد معاوية من كل ذلك ووظفه لخدمته. فما دام الأمر لا بد أن يكون في قريش (أما في أيّها فهذا لا يهم في نظره)، فإنه أصبح بذلك يمتلك المؤهل الأول والشهادة المعترف بها من قبل الجميع وهو انحدار النسب من بني عبد مناف، وأصبح يلوح للناس دائماً بقرابته من النبي صلى الله عليه وآله ثم بمصاهرته صلى الله عليه وآله، إذ أنه زوج أم حبيبة.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

وقد رأينا في بعض رسائله التي أرسلها للإمام عليه السلام وأراد لها أن تنتشر بين الناس، تلويحه بالقرابة والنسب إلى غير ذلك ونشره الحديث الموضوع عن الرسول ﷺ: «دعوا لي أصهاري..!! وأغلب الظن أنه أراد بذلك أن تقرأ هذه الرسائل على أهل الشام، ليبين لهم علاقته (الحميمة) بالإمام وأنه لا يفرق عنه إلا من حيث سابقة الإمام عليه السلام في الإسلام. وهو أمر جعله معاوية في نظر الشاميين غير ذي أهمية، ما دام أنه معاوية في نظرهم لا يقل عن عثمان نفسه وما دام يمتلك المؤهلات الكافية الأخرى مثل النسب والدهاء والقدرة على السياسة والحكم وإدارة الدولة.

العالم الرباني.. وريث علم الرسول ﷺ

«يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً».

لقد رفض الإمام عليه السلام أن يلتزم نهج الخليفتين السابقين وقال: (اعمل بمبلغ علمي وطاقتي) لأنه كان أعرف بنفسه من الجميع وكان يدرك عمق صلته بالإسلام وقوة انفعاله بمعطياته المختلفة، فهو أول الأئمة الذين (عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية)[1] كما عبر هو عن نفسه (يرفع لي ـ يقصد الرسول ﷺ ـ في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به. أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة)[2] وقد قال له رسول الله ﷺ (إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي ولكنك وزير وإنك لعلى خير)[3].

إن تلك البصيرة المتفتحة، رفضت أسلوب توزيع المناصب الذي جرى بعد رسول الله ﷺ بالشكل الذي تمت فيه، ليحجز منصب الخلافة لقريش لمجرد أنها قريش. فقد صرح: (إن ولي محمد ﷺ مَن أطاع الله وأن بعدت لحمته، وإن عدو محمد من عصى الله وإن قربت قرابته)[4] وقد سخر عليه السلام عندما انتهت إليه أخبار

(١) نهج البلاغة ٥٠٩-٤٣٧-٦٧٧.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.

السقيفة وقول قريش للأنصار بأنها شجرة الرسول ﷺ، فقال عليه السلام (احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة)[١].

لقد حاول معاوية ـ كما قلنا ـ استثمار هذا الأمر وهو أنه من قريش شجرة الرسول ﷺ التي ينبغي أن تختص وحدها بخلافته، أما من يكون هذا الخليفة، فهو لا يهم ما دام قد خرج منذ البداية عمن كان ينبغي له أن يكون خليفة. وقد عمل على ترسيخ أمر آخر واستثماره وهو اختصاص الخلافة بسلالته والعمل على أن لا تخرج منها بأي حال من الأحوال بعد أن أصبح هو (خليفة) وعض على هذا المنصب بالنواجذ. وقد أوجد حالة جديدة لم يكن أحد قبله يجرؤ عليها وهو تمهيد الأمر لأولاده من بعده. وقد اعتذر عمر عندما أشير عليه أن يولي ابنه قائلًا: (حسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد من أمة محمد ﷺ) [٢].

ما دامت قد وصلت إلى معاوية.. فما المانع أن تصل إلى يزيد؟

إن المعلومات المتوفرة لدى معاوية تجعله يدرك بلا شك الدور الذي أعد له الإمام عليه السلام من قبل رسول الله ﷺ لاحتلال المركز القيادي الأول في الدولة في الإسلامية بعد غيابه ﷺ، وقد اطلعنا على الرسالة التي بعث بها إلى محمد بن أبي بكر والتي يعترف بها بأحقية الإمام بهذا المركز، كما كان يدرك أيضاً الدور الذي أعد له أئمة آل البيت عليهم السلام كقادة للأمة وذلك لما تواتر إلى سمعه من أقوال وأحاديث صحيحة بهذا الخصوص لم تكن لتخفى عليه وهو المراقب اليقظ. وكان بعمله على منافسة الإمام ﷺ على هذا الدور، إنما كان يعمل على انتزاع هذه القيادة من الأئمة عليهم السلام إلى الأبد، ويلغي بذلك قيادة رسول الله ﷺ نفسها، أي قيادة الإسلام ويجعلها في سلالة بديلة هي سلالته هو، ما دام قد نجح في بث مفاهيمه الجديدة بمختلف الأساليب ونجح ـ نفسه ـ في الوصول إلى المركز الأول في الدولة بديلًا عن الرسول ﷺ. لقد وجد أن ما طمح إليه غيره ليس مستحيلًا عليه، وإن ما وصل إليه ليس مستحيلًا على أولاده من بعده. وهكذا صرح أن يزيد أحق بالأمر من غيره. من أبناء (المنافسين) الآخرين، وقال: (إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، فابني أحب إلي من

---

(١) المصدر السابق ص ٩٨.
(٢) العقد الفريد ٥-٢٥.

أبنائهم»[1]. فلم يكن يرى أن أحداً يمكن أن يفضل ابنه بشيء حتى وإن كان من آل بيت النبي ﷺ أنفسهم، فما دام هو قد نافس علياً، وانتزع الخلافة من الحسن، وأخضع الأمة كلها لحكمه وسلطانه، فما الذي يمنع يزيد من أن يكون خليفة بعده.

وقد أراد تصوير أمر تسلسل الخلافة لدى الأئمة وكأنه استئثار للسلطة من قبلهم، وأنهم خُصّوا بذلك لأسباب القرابة وحسب، فحاول بدوره أن يقطع هذه السلسلة، ويستأثر بالسلطة له ولسلسلة مزيفة أخرى من السلالة الأموية البعيدة عن الإسلام.

وكان موقف الأئمة الأوائل، أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام واحداً من مسألة الخلافة والصراع عليها مع معاوية ويزيد، رغم أنه اتخذ أشكالًا مختلفة في الظاهر، وسنتكلم عنها بعد توضيح وكشف الجوانب التاريخية المتعلقة بصلح الحسن عليه السلام وثورة الحسين عليه السلام. وقد رأينا كيف عالج أمير المؤمنين عليه السلام هذه المسألة قبل معاوية ومنذ البداية.

لقد كان معاوية يمهد لخلافة يزيد قبل وفاته بمدة طويلة، وكان يلجأ إلى شتى الأساليب المتاحة لديه والتي كان يراها هو مناسبة بما فيها أسلوب الارهاب والقمع والعطاء الكيفي وبذل المناصب وغيرها ـ كما سنبين ذلك بعون الله تعالى.

ولم تكن المسألة أمراً هيناً وسهلًا حتى يتماهل معاوية أو يتكاسل في بذل أقصى جهوده وإمكاناته، فقد كان الأمر أمر ملك واسع عريض يستأثر به هو وعائلته إلى الأبد، وما كان معاوية الذي عرف كل مباهج الدنيا ولذائذها ليترك هذه الدنيا تسلب من أبنائه وهو الذي نظر إليها نظرة أرضية متدنية واطئة طيلة حياته الحافلة.

الخليفة أفضل من الرسول بدعة أموية جديدة

«خليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله عليهم».

وبعد ذلك حاول بنو أمية ادعاء العصمة لأنفسهم، وحاول بعض أعوانهم أن يدعيها لهم، مفضلًا إياهم على الملائكة والرسل، وفي هذا محاولة واضحة لإسكات كل صوت قد يرتفع بالاعتراض على بعض تصرفاتهم واستهجانها. معتقدين أن ذلك

(١) المصدر السابق ٥-١١١.

سيجعلهم مساوين لآل الرسول عليهم السلام، وحسبوا أن مجرد ادعاء ذلك سيجعل الناس مقتنعين بذلك.

فقد كان الحجاج يخاطب عبد الملك بن مروان الذي ولي الحكم بعد يزيد بفترة قصيرة جداً بمثل هذا الأسلوب. (بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين المؤيد بالولاية المعصوم من خطل القول وزلل العقل بكفالة الله الواجبة لذوي أمره)[١].

(ما قامت السماوات والأرض إلا بها (الخلافة)، وأن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين، وذلك أن الله خلق آدم بيده وأسجد له الملائكة وأسكنه جنته ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفته وجعل الملائكة رسلاً إليه)[٢].

(إن خليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله إليهم)[٣].

لقد كان الحجاج، هذا العبد الذليل للدولة الأموية والعامل المخلص لها، والذي كان يتمتع ببعض القدرات والامكانات الأدبية والخطابية، يتملق رئيسه، بهذا الشكل المنحدر، رغم أنه يشغل منصباً رفيعاً، فكيف كان سيفعل من كانوا دونه وكانوا محتاجين حقاً إلى ما يقدم إليهم على الموائد السخية لهذه الدولة...

الحجاج يرسل الرسل لتهنئة عبد الملك على عطاسه

إنه يتنازل الى أبعد درك هابط من الذلة، حينما يكتب إليه: (... بلغني ما كان عطاس أمير المؤمنين ومن تشميت أصحابه له ورده عليهم. فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً)[٤].

إن نعت الخليفة من قبل أعوانه ومريديه ووصفه بالمعصوم وأمير المؤمنين وخليفة رب العالمين والمؤيد بالولاية والمفضل على الأنبياء والرسل والملائكة والذي هو أكرم عند الله حتى من الرسول نفسه. ! وقبول الخليفة لهذه الصفات وكأنها

---

(١) العقد الفريد ٢٦٤-٢٨٤-٢٨٥.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) المصدر السابق ٥/٢٨٦.

أمر مقرر واقعي وصحيح، يدل على منتهى الاستهانة والازدراء بالرسالة العظيمة التي جاء بها الرسول الكريم ﷺ. فكأن الخليفة هنا قد تلقى أمر استخلافه من الله مباشرة، وأنه كان خليفة الله بعهد مباشر، لا خليفة رسول الله كما ينبغي أن يكون فعلًا. ومع ذلك فإن هذا التمادي الذي ولده الأمر الواقع المعاش وهو وجود عبد الملك وأضرابه على رأس السلطة حاكماً مستبداً عاملًا بأمره وهواه، قد سوغ له أن يعتقد أو يجعل الناس يعتقدون بأنه يتمتع بموقع ممتاز قريب من الله لا يتمتع به رسول الله نفسه.

فلا عجب أن أعلن الوليد بعد ذلك كما أعلن يزيد قبلًا انكاره للخالق والرسالة على السواء.

نزاع غير متكافىء

لم يكن (النزاع) بين علي عليه السلام ومعاوية الذي برر خروجه وانحرافه الواسع بالانحرافات السابقة التي غيرت مفهوم الخلافة وأساسها وشكلها الحقيقي وتماديها في العطاء الكيفي، وعملت على إنشاء مراكز قوة ثرية ومتسلطة ومقربة من السلطة. لم يكن نزاعاً عادياً بين شخصين متكافئين وفق كل المقاييس والمعايير السماوية والإنسانية. وكانت (الارستقراطية) القرشية المنتعشة بفعل الامتيازات العديدة الممنوحة لها قد وضعته أمامها ممثلًا لكل المصالح التي أوشكت أن تتسرب من بين يديها وتذهب في غمرة ارتفاع المد الإسلامي في عهد الرسول ﷺ، وكذلك في عهد أمير المؤمنين عليه السلام.

وإذ أنها استعادت بعض أملها بعد وفاة الرسول ﷺ بإبعاد القيادة الحقيقية المؤهلة لإكمال المسيرة، فإن هذه الآمال اتسعت في عهد عثمان إلى أبعد حد عندما وجدت أنها تحقق الآن مكاسب أكثر مما حققته قبلًا. وقد رأينا الأموال الهائلة التي (حصل) عليها بعض المسلمين أمثال طلحة والزبير وعمرو بن العاص ومروان ومعاوية وغيرهم والمواقع المهمة التي احتلوها في الدولة الإسلامية التي قادها عثمان. وأنها استطاعت الإفادة من (الدين) واستثماره بشكل قد تكون قد ندمت معه على أنها حاربته قبلًا.

وعندما أوشكت هذه المطامع أن تتلاشى معها كل المكاسب التي حصلوا عليها لاحتمال عودة القيادة المؤهلة لأداء دورها التاريخي لتصحيح المسار والأخذ بيد الأمة

نحو طريقها وأهدافها الصحيحة، كان هذا الاحتمال أكبر عامل لاستفزاز هذه القوى، ودفعها للقيام بحملة شرسة مضادة للإمام، مستثمرة كل إمكاناتها ومكانتها وسمعتها للوقوف بوجهه وإعلان الحرب عليه منذ اللحظة الأولى لاستلامه مهام القيادة، كما فعلت معه قبل ذلك وبذلك كل جهودها لصرف الخلافة عنه خلال حكم الخلفاء الذين سبقوه.

كرهوا علياً عليه السلام فمالوا إلى معاوية

وكان معاوية باندفاعه المتطرف ضد الإمام وبعد اختفاء منافسين محتملين مثل طلحة والزبير وشراء شخصيات (مرموقة) ومعروفة مثل عمرو بن العاص وزياد والمغيرة وغيرهم، يمثل الشخصية (الشعبية) المحبوبة إلى أهل الشام وقريش وغيرهم ممن رأوا في الإمام خصماً حقيقياً لهم وعاملاً للقضاء على مصالحهم ومكاسبهم. بفعل التأثيرات التي ذكرناها في غضون هذا الكتاب، والزعيم الأول للحملة المضادة للإمام والتي حشدت لها كل القوى التي لم تستطع احتمال الإسلام وسياساته و (قيوده الصارمة) ودعوته الواضحة للمساواة والعدالة بين كل الناس في العطاء والجاه والمكانة وكل شيء.

«لو كان لي المال لسوّيت بينهم» أمير المؤمنين عليه السلام

لقد قال الإمام عليه السلام عندما عوتب على التسوية في العطاء بين الناس: (أتأمروني أن أطلب النصر بالجود فيمن وليت عليه.؟! لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله، إلا وأن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله. ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيرهم ودهم)[1].

«فما آخذ من مال الله فهو لي «معاوية»

وإذا كان معاوية يعرف حزم الإمام في هذه المسألة المهمة، وهي مسألة المساواة في العطاء حتى أنه ساوى نفسه مع الآخرين، فإنه رد عليها باعلان رسمي

(١) نهج البلاغة ٢٩٤.

واضح (وعنده وجوه الناس قائلاً: الأرض لله وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي)(١).

إن نظرة معاوية هذه وإعطائه لنفسه الحق المطلق في العطاء، ما دام هو (خليفة الله) نظرة هرقلية أو قيصرية بحتة تلبس ثوباً جديداً، وقد جعلت من معاوية سلطان الأرض الذي يحكم كيفما يشاء وبأي أسلوب، وكأنه مُخَوَّل من الله ليعمل ما يشاء وفق رغباته وهواه.

إن تصريحه هذا يشكل استهانة تامة بالخالق وإنكاراً لدوره وشريعته ودينه واستهتاراً أعماه ولم يجعله يرى أي شيء أمامه، لا الخالق، ولا الأمة التي حكمها بالعسف والارهاب.

ولو قيل: إننا نشك بصحة صدور هذا القول عن معاوية وهو الداهية الأريب.

لقلنا: إن واقع حال معاوية وتصرفاته الفعلية، تدل على أنه لا يتحرَّج من التصريح بأمثال هذه الأقوال علناً وعلى رؤوس الأشهاد وأَمام الأمة كلها؛ فهو قد جسده عملًا حقيقياً وفعلًا، فلِمَ يستحي من قول ما يقوم بفعله؟.

إن دخوله (رسمياً) في الإسلام، أتاح له أن يرفع الشعارات الإسلامية نفسها واستخدامها في حربهم الشرسة ضد الإسلام والمسلمين ممثلين بقائدهم الحقيقي الإمام عليه السلام. فهي كانت حرباً سببها احتمال انهيار مصالح الطبقة الجديدة التي قضى عليها الإسلام وأوشكت أن تعود أقوى مما كانت. والتي أصبح القضاء عليها ثانية من قبل الإمام عليه السلام أمراً وارداً، بعد أن أعلن عن عزمه على محو كل عوامل الانحراف.

ماذا جنت الأمة من غلبة معاوية؟

وإلا فأي عذر أو توجه إسلامي صحيح أو حتى منحرف بنسبة قليلة يتيح لهم إيجاد الأعذار لشن الحرب على الإمام والخروج عليه.؟ ثم أي شيء حققه هؤلاء لصالح الأمة الإسلامية سوى توظيف نتائج حربهم واستثمارها لصالحهم ولإقامة نظام حكم استبدادي وراثي بعد مقتل الإمام عليه السلام؟ هل تكفينا بعض المظاهر والشعارات المرفوعة من قبلهم لنفرح ونقول إن الإسلام كان بخير وأنه لم يتصدع وأن الأمة لم

(١) مروج الذهب ص ٥٣.

تنكمش وتبتعد عن دينها الذي أخذ يتسع وينتشر بدليل أن الفتوحات لا زالت قائمة. ؟.

إننا نعيد ما سبق أن قلناه، ونتساءل: هل كان الحال سيكون كما هو، لو أن المسيرة قد أتيح لها أن تستمر تحت ظل القيادة الأصلية المعدة المؤهلة؟ وهل كانت الأمور ستبدو بشكلها الذي بدت عليه، لو أن الإمام عليه السلام كان يمسك بزمام المبادرة ولم يتصد له أولئك المعادون الحاقدون على الإسلام؟.

أسف على الجهاد الضائع

ما ذنب المسلمين حتى تثار الزوبعة

ونعود إلى كاتبنا الإسلامي الكبير محمد قطب، وأؤكد عليه هنا، ولعل مرد ذلك إعجابي السابق به وبمواقفه وكونه أخاً للشهيد سيد قطب الذي لم يتنازل عن مواقفه لإرضاء الحاكم المتستر بالإسلام والشعارات الإسلامية أيضاً. لقد كنت آمل أن يكون موقف الكاتب الكبير أكثر وضوحاً ودقة وواقعية وابتعاداً عن التفاؤل المضلل الذي لن يؤدي إلا إلى المزيد من الأخطاء والانتكاسات وهو يتناول تاريخ حقبة دقيقة من تاريخنا الإسلامي كان لها أكبر الأثر في النتائج السلبية التي شهدها ويشهدها المسلمون على مر العصور واختلاف الأمكنة.

يقول الأستاذ محمد قطب: (إن قوماً من المسلمين تهولهم الزوبعة التي غشيت المجتمع المسلم بالنزاع بين علي ومعاوية وبمقتل عثمان من قبل، فيحسبون أن الإسلام قد توقف أو انتهى عند هذه النقطة. ولكن الواقع أوقع من الظن.

الزوبعة حقيقية لا شك فيها والمد الإسلامي بعدها حقيقة لا شك فيها كذلك! فما بالنا نقف عند الزوبعة ولا نلتفت إلى المد؟! إنها معجزة هذا الدين أن يستوعب الصدمة المدمرة، ثم يقوم معافى يستأنف نشاطه كأنه لم يصبه شيء)[1].

ألم تعرقل هذه الزوبعة المد الإسلامي

ونتساءل: ألم تعمل هذه الزوبعة على عرقلة المد الإسلامي بشكله الصحيح؟ لا المد الأفقي الفارغ من كل محتوى والذي قد لا يعني عند الكثيرين إلا ما عناه بعض

---

(١) كيف نكتب التاريخ ص ٩٨.

الغزاة المعروفين على مر التاريخ. أما كانت مسيرة الإسلام لولا تلك الزوبعة قد انطلقت بشكل صحي لتحتوي كل أمم العالم وشعوبه، خصوصاً وإن هذا الدين يمتلك معجزته الذاتية القوية، وحجته الباهرة الغالبة التي تمكنه من تخطي كل الحواجز والنفاذ إلى كل بقاع الأرض؟ إذا ما أتيحت له (الأدوات) المخلصة الكفوءة الحريصة المتماسكة المستمرة في جهادها غير المتكاسلة والتي لا تريد (الفتوحات) حباً بالغنائم وحب التوسع وحسب؟.

ما كان سيحدث لو أن الولاية العادلة لم تنقطع بوفاة أمير المؤمنين عليه السلام

أما كان أولئك الذين وصلوا أطراف الأرض وفتحوها، قد أضافوا إليها أطرافاً أخرى وجعلوها ضمن أقطارهم الإسلامية وشعوبها ضمن شعبهم الإسلامي ولم تكن عدوة للإسلام كما هو حالها إلى اليوم؟ أما كانوا سينهلون من النبع الصافي العذب للإسلام بدلًا من أوشاب وأكدار وأقذار الأطماع والانحراف والتزوير والتلفيق الذي قام به أولئك الذين تسلطوا على رقاب المسلمين ووضعوا (فلسفات وقيماً جديدة) لتبرير وجودهم وأنظمة حكمهم الاستبدادية الفردية؟ ثم هل كانت أمور حكم البلاد الإسلامية ستظل بيد السلالات الفاسدة الكسولة التي حكمت باسم الإسلام، لتصل أمور المسلمين إلى الحال السيِّىء الذي وصلته طيلة مئات عديدة من السنين وإلى الآن؟.

فلماذا السكوت والسماح لهذا الخطأ القاتل بالمرور دون أن تتناول أبعاده وجوانبه باعتبار أن الزوبعة مرت وأن الله سلّم وأنه حفظ دينه من الضياع والانهيار ونشره في كل بقاع الأرض. والدليل على ذلك وجود المسلمين في كل مكان، ولا داعي بعد هذه (المكاسب الكبيرة) التي حققها حكام الإسلام لإثارة المواجع والخلافات وتقليبها كما يقول المعاصرون. رغم أنهم يعترفون بعد كل ذلك بالخسائر الكبيرة والويلات والحروب التي جرتها أطماع أولئك الحكام وحربهم وخلافاتهم مع بعضهم؛ مما انعكس آثاراً سلبية لا تزال آثارها المدمرة تغلف العديد من جوانب حياتنا وواقعنا.

هل كان كل ذلك الدمار مجرد فتنة؟.

إننا ينبغي أن نشخص الطرف المخطىء المنحرف، ثم نكف عن تسمية الأحداث الهائلة التي شهدتها الأمة الإسلامية المظلومة وعانت منها والتي أحدثها

بشكل أساسي خروج معاوية وجمعه على الإمام عليه السلام بـ (الفتنة) التي وقعت بين (فئتين من المسلمين)، (اجتهدا) وكان (كل منهما مصيباً)، وهذا الدمار الهائل لم يكن من فعل أحد. فقد وقى الله المسلمين الشر فيما بعد، واستقامت الأمور والحمد لله على هذه الحال السعيدة التي نجد أنفسنا عليها الآن بعد انكشاف الغمة في ظل أنظمة إسلامية صحيحة مائة في المائة وكل حكامها مصيبون يعملون (باجتهادهم)!!.

انقلاب على الإسلام

لقد حدث انقلاب هائل على الإسلام، نتيجة هذا الخروج السافر المتعمد من قبل معاوية وخلفائه ـ كما رأينا ـ في منهاج الحكم وشؤونه وفي كل شيء، وهذا أول تشويه متعمد معلن حصل في التاريخ الإسلامي، ولم يكن تشويهاً بسيطاً يمكن علاجه أو إصلاحه أو اخفاؤه بعملية تجميلية بسيطة، بل أن اتسع وامتد ليشمل كل رقعة في بقاع المسلمين وكل جانب من جوانب حياتهم التي أريد لها أن تتعايش وتنسجم وتخضع لأسلوب الحاكم وفلسفته. (فالخليفة) ليس موظفاً بسيطاً لا أثر له في حياة الناس، وقد جاء إلى الحكم نتيجة كفاءته العالية ومميزاته النادرة ووفق رغبة الأمة وإرادتها، بل أنه الزعيم الذي يفترض أن يكون القائد والإمام والقدوة والرمز. وبكلمة: المؤهل لحمل رسالة النبي الكريم صلى الله عليه وآله خليفة له وتجسيدها سلوكياً وعملياً في كل الأوقات والمناسبات والمجالات.

أطروحة أموية

لا داعي للمواصفات الصارمة.. فليكن الخليفة فاسقاً وجاهلًا

وإذ أن مواصفات خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله كما أرادها هو صلى الله عليه وآله لا تتاح لجميع (الخلفاء) وأن قسماً منهم لم يكلف نفسه حتى بالالتزام المظهري بالجوانب الأخلاقية والسلوكية التي جاء بها الإسلام، فقد راح كثير من (العلماء) المسلمين، وربما كان ذلك بوحي وإيعاز من (الخلفاء) أنفسهم، يحددون الصفات، أو الحد الأدنى من الصفات التي ينبغي أن تتجلى ويتخلق بها هؤلاء (الخلفاء)، وهل أنهم ينبغي أن يكونوا أعلم أهل زمانهم أو أتقاهم أو أعدلهم. وأفتى هؤلاء بأنه لا يشترط أن يكونوا كذلك، وأنه لا يجوز عزلهم حتى وإن كانوا فاسقين، وأن للعلم والعدالة والفقه والزهد رجالها المتخصصين يزينون دولهم، وما عليهم إلا أن يكونوا قيّمين عليهم وعلى الجميع، ولا بأس بأن يستعينوا بآرائهم وفتاواهم ولكنهم غير ملزمين بالأخذ

بها. وهذه الأخيرة ـ وإن لم يقولها بعضهم صراحة إلا أن واقع حالهم وسكوتهم عن كل انحراف عبر عنها أبلغ تعبير.

وقد بينا (الأحاديث) والقصص التي رويت عن الرسول ﷺ عن طريق ابن عمر وغيره بخصوص عدم جواز الخروج عن الخليفة الفاسق أو عزله (لأجل ما يثور بسبب ذلك من الفتنة ووقوع الهرج..)(١).

أطروحة أموية أخرى

الخليفة غير محاسب حتى أمام الله

فأي دين هذا الذي لا يجيز محاسبة الخليفة الفاسق المتجاهر بالمعاصي، ويجيز كل خروج معلن أو غير معلن ـ من قبله ـ عنه وعن أحكامه وحدوده وقيمه الحياتية والأخلاقية؟ هل هو الإسلام الذي جعل الأمر كيفياً بيد الخليفة يتصرف كيف يشاء ما دامت الأرض لله وهو (خليفة الله) كما عبر عن ذلك معاوية صراحة؟ هل لم تكن للإسلام تشريعات محددة وخاصة تشمل كل أمور الحياة مهما كانت صغيرة أو قليلة الأهمية بنظر البعض؟ أليس حلال محمد ﷺ حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة؟ وما المبرر وراء تغيير التشريعات الإسلامية والعبث بها وحفظها بعيداً عن الاستعمال وعن حياة الناس؟.

وهل وجدت تشريعات خاصة بالحكام والخلفاء والملوك وتشريعات خاصة لعموم الناس؟ وهل أبيح لهؤلاء (الخلفاء) ما لم يبح لجماهير المسلمين؟.

وعلى أي أساس (تأول) معاوية، فغير وبدل بهذا الشكل المنكر الخطير، وقيام من جاء بعده بنفس هذه المهمة المدمرة بشكل أكثر خطراً؟ كيف أتيحت لمعاوية هذه العقلية النافذة ليضع أحكاماً من عنده بديلة عن الأحكام الإلهية وتغييرها ونسخها إلى الأبد، وتبديل سنة الرسول ﷺ بل واستبعادها إلى الأبد؟ أليس هذا هو ما فعله بالضبط عندما استبعد الإسلام واحتفظ ببعض مظاهره وشكلياته لتبرير شرعية بقائه ووجوده (خليفة) وحاكماً؟.

صحيح أنه لم يصرح أحد ـ إلا من ذكرنا ـ أنه لا يريد الإسلام وأنه لا ينسجم مع خططه ولا يحقق طموحاته، ولكن ألا تدل أفعالهم أنهم رفضوا الإسلام فعلًا وأنهم

---

(١) ابن كثير ٨-٢٣٥.

جردوه من محتواه ومن قيمه الأساسية ليظل سلعة يتاجرون بها في أسواق الحكم والسياسة والتسلط؟.

إنَّ عمل معاوية كان باتجاه ترسيخ وجود مؤسسة حاكمة، يدرك أنها ما دامت غير مؤهلة أمام المسلمين، لاستلام السلطة وفق أحكام الشريعة المعروفة، فإن عليه أن يبدل هذه الأحكام أو تفسير بعضها لصالح هذا الوجود المفتعل الطارىء لجعله مقبولًا وشرعياً وأنه الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الدول ويحكم بموجبه الحاكمون، (خلفاء) وغير خلفاء، من خلال تركيز الأضواء على شخصية الحاكم كسلطان مطلق مخول بسلطات استثنائية، ويتمتع بحقوق لا حدود لها ـ وكما عبر معاوية عن ذلك صراحة كما ذكرنا، عندما قال بأن الأرض لله وهو خليفة الله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء. وأنه لم يقاتل الناس ليصوموا أو ليصلوا أو ليحجوا أو ليزكوا وإنما ليتأمر عليهم وينشر عليهم سلطانه، وكما عبر قائد يزيد مسلم بن عقبة لأهل المدينة عندما أراد بيعتهم على أنهم خول ليزيد يتحكم في أرواحهم وأموالهم وأعراضهم كما يشاء.

إن معاوية بذلك يعلن أنه غير مقيد بقانون أو تشريع معين، وبصريح العبارة ليس مقيداً بالتشريعات التي جاء بها محمد ﷺ، وأنه غير ملزم بالسير وفقها وتنفيذها. وأنه غير معني إلا بتثبيت ملكه على الأساس الذي يراه هو. وقد وجد لكل حالة ما يبررها قانونياً أمام المجتمع المسلم، كالحفاظ على وحدة المسلمين ومنع وقوع الفتنة والهرج، وعدم جواز نزع البيعة حتى من (الإمام الفاسق) الخ!!.

لا بد من تشخيص الداء

إن تثبيت الوضع وتجميده على الأسس التي أقامها معاوية، كانت كفيلة بإبعاد الإسلام نهائياً عن الساحة وطرده من الحياة وتهميشه أو تحييده على الأقل، وجعل الوضع الجديد الذي تكرس له الفئة الحاكمة الجديدة، هو المقبول، بل والمطلوب. ومن خلال جعل الحكم وراثياً، أريد لهذه الحالة التكرارية التي تعمل بنفس الأسلوب أن تكون هي الحالة المقبولة أيضاً.

ونعيد ما قلناه في موضع سابق، إذ لو تساءل سائل: ما الضرر في تكريس الحكم في عائلة واحدة؟ أليس الأمر يحدث في أنحاء متعددة الآن؟.

ونؤكد: أننا نتحدث عن قضية إسلامية بحتة، وليس عن صراع بين مملكتين أو جمهوريتين في عهد جاهلي حديث القيم والمفاهيم.

إن التبرير الذي حاول معاوية إقامة كيان دولته عليه هو تبرير (إسلامي، أو هكذا أراده أن يبدو أمام الجميع.. كما أن ترشيحه يزيد للحكم أراده أن يبدو وكأنه الأمر الوحيد الذي فيه مصلحة الأمة الإسلامية والذي يحقق وحدة المسلمين. فلم يخرج المسألة إخراجاً مكشوفاً بل جعلها تبدو مسألة إسلامية بحتة. وإذ أن الإسلام قد غدر واستغل هذا الاستغلال الشنيع، وإذ أنه دين المسلمين والأمر الوحيد الكفيل بتحقيق مصالحهم، فمن حق المسلمين أن يناقشوا أمر كل من تعرض له وحاول تزويره وحرفه واستغلاله والعبث به، وطبيعة الأحداث التي تم فيها كل ذلك، ليحاولوا تقويم وتعديل وتصحيح ما زور وحرف..

إن تشخيص الداء لا بد أن يضعنا أمام حقائق ينبغي أن لا نخجل من عرضها أمام أنظار أبناء الإسلام وأمام الآخرين على السواء. فنحن الآن على أي حال لسنا طرفاً مباشراً لأي انحراف سابق لسبب بسيط، وهي أننا لم نكن موجودين في ذلك الوقت. غير أن تبنينا لمواقف الأشخاص أو القوى (المتصارعة) في ذلك الوقت يجعلنا شركاء متعاطفين، بل فعليين من أولئك نتخذ نفس مواقفهم ونتبنى آراءهم بوعي أو بدون وعي أحياناً.

إننا قد نتبنى مواقف مسبقة جاهزة مطروحة، ونتلقاها بحكم نشأتنا، وبحكم البيئة التي وجدنا أنفسنا نعيش فيها، وسلسلة الآباء الذين ربّى بعضهم بعضاً.

ولا بد لنا، لكي نخرج أنفسنا من قيود التصورات المسبقة المتبناة والقائمة على أسس عاطفية متحيزة، أن نقيم تصوراتنا ومواقفنا وآراءنا على الحقائق والوقائع والمصالح الحقيقية لعموم الأمة الإسلامية الآن. بعد أن انحسرت تلك الأحداث. وبعد أن بقينا لفترة طويلة، ونحن لا نجد ما يدعونا إلى الجلوس سوية لمناقشة همومنا ومشاكلنا وحياتنا. لكي لا ندع لأعدائنا الذين تركوا أسلحتهم التقليدية وتسلحوا بأسلحة حديثة ـ فرصة ضخ المزيد من سمومهم ونظرياتهم وأفكارهم البراقة الخادعة في صميم حياتنا الداخلية حينما يبدون في نهاية المطاف حريصين علينا أكثر من حرصنا على بعضنا. بل أكثر من حرص خالقنا الرحيم ـ جل وعلا ـ علينا.!!.

بعد الزمن لا يمنعنا من دراسة الأحداث

إن المسافة الزمنية البعيدة التي تفصل بيننا وبين الأحداث السالفة الذكر، لا بد وأن تجعلنا ننظر إليها بهدوء أكثر ونناقشها بمزيد من الوضوح والحرية، بعد أن كشفت لنا نتائجها أيضاً، ولا بد أن هذه النتائج لم تتح مشاهدتها لأولئك الذين كانوا طرفاً في صنعها. ولو أن بعضهم كان يعلم أن الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه بعد ذلك، فربما لم يشترك فيها على الإطلاق، ولما كان قد اتخذ الموقف الذي اتخذه منذ البداية، وربما اتخذ المواقف المغايرة التي كان يحاربها.

إن صحة الموقف وسلامته لا تتحكم فيها التفكيرات المجردة أو تصورات المرء المشارك فيها وقت الحدث، وإنما قد تؤكدها نتائج هذا الحدث فيما بعد. ولكن آنى للإنسان أن يعلم ذلك وهو غيب من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

ولو تساءلنا، على ضوء النتائج التي اتضحت لنا بعد كل هذه المدة الطويلة: لمصلحة من كان ذلك الخروج المتعمد من قبل معاوية على الإمام علي عليه السلام وعلى الإسلام؟.

هل كان لمصلحة عموم المسلمين، أم أنه كرس لمصلحة البيت الأموي بشكل خاص؟ وماذا جنى المسلمون من ذلك؟ وما هي المكتسبات الكبيرة التي حصلوا عليها؟ وعلى أقل الاحتمالات: ماذا كنا سنخسر لو لم يكن معاوية زعيماً للأمة الإسلامية ولم يكن يزيد من بعده ومروان وعبد الملك والوليد ويزيد وهشام وأضرابهم.؟ هل قام دين محمد لأجل هذه الحفنة من الفراعنة، لكي يتمتعوا بكل اللذائذ الحسية وألوان الترف والمباهج غير المتاحة، بشكل فاق حتى ذلك الأسلوب الساخر الذي كان سائداً في الجاهليات الغارقة في أوحال الرذائل والدنس؟.

هل قضى الإسلام على الجاهلية القديمة التقليدية البسيطة المكشوفة، ليكون وسيلة لخلق وإيجاد جاهليات مركبة تتخذ منه ستاراً لممارساتها وغطاءً شرعياً تظهر به أمام الناس مع أنها أبعد ما تكون عنه وعن قيمه وشرعته؟.

الفتوحات الإسلامية.. مكاسب للمسلمين أم لحكامهم

وهناك مسألة مهمة ينبغي التعرض لها هنا، ونحن نتكلم عن بعض ملامح المجتمع الإسلامي في بداية العصر الأموي، وهي مسألة الفتوحات الإسلامية التي ضمت شعوباً كثيرة إلى حضيرة الإسلام وعادت على الدولة الإسلامية بواردات وكنوز

هائلة من البلدان المفتوحة. وهي مسألة احتج بها العديدون ممن يؤيدون النهج الأموي في الحكم والحياة.

ونتساءل: لمن كان ينبغي أن توزع غنائم الفتوح وكنوز البلدان؟ وهل كان ينبغي أن تستأثر بها قلة محظوظة مقربة إلى الحكم لتتكدس في جيوبهم وخزائنهم..؟ وهل أن كل ما أخذ كان يتم بطريقة صحيحة.؟ وهل حققت الفتوحات أهداف الإسلام أم أهداف الحاكمين؟ هل أضافت بقعاً إلى خارطة المسلمين أم أضافت بقعاً إلى الرقعة التي يحكمها (الخليفة) ويستثمر مواردها وكنوزها لنفسه وأعوانه، ثم يتفضل على جماهير المسلمين بفضلات ما أخذ وسرق؟.

لقد أقر (الخليفة) الأموي الأول سياسة التصرف الكيفي بالأموال من قبله هو (كخليفة) مخوَّل من قِبل الله عز وجل تخويلًا مباشراً، وليس كخليفة لرسول الله ﷺ وهذا ما ادعاه ـ يتقيد بما جاء به وأقره من تشريعات في مجال المال وفي غيره من المجالات الأخرى. وقد دل واقع الحال الذي تصرف به معاوية أنه لم يكن يعير أية أهمية لما جاءت به تشريعات الإسلام. ولم يجد أن تصرفه هذا كان خاطئاً إلا بعد فوات الأوان، أي عند موته بالضبط، مع أن ما قام به لم يكن حلًا لتبرئة ذمته وتبرير انتهاكاته وإنهاء حساباته إلى الأبد، فإن (معاوية لما احتضر أوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال)[1].

أموال أسطورية

ولم يقل لنا أحد كم كان النصف الثاني المتبقي. وعلى أي أساس أو مبرر رد النصف الأول. وهل كان هذا النصف الذي رد إلى بيت المال يحسم المسألة ويسدد الحساب نهائياً؟ وهل حل بذلك ما أوجده من ارتباك في نظام الاقتصاد الإسلامي؟ وهل جعل حاشيته وأعوانه وقواده ومريديه يردون نصف أموالهم كما فعل هو. أم أنهم لا يزالون بحاجة إليها لأنهم لا يزالون أحياء؟.

لقد رأينا كيف أنه منح مصر طعمة لعمرو بن العاص يتصرف بها كيف يشاء، عندما ساومه بشكل علني وعرض عليه أن يقف بجانبه بهذا الثمن المغري. ولا تعوزنا

---

(١) ابن كثير -١٤٤.

الأمثلة على تصرف معاوية الكيفي بأموال المسلمين، وقد تكلمت عنها كتب التاريخ بإسهاب وتفصيل.

أينَ قارونَ منهمُ..!

ورغم هذا التمادي في التصرف الكيفي بأموال المسلمين، فإن معاوية قد يبدو متحفظاً ومتقشفاً إذا ما قيس بمن جاء بعده من (الخلفاء) أمثال هشام والوليد وأضرابهم. فقد روي أن هشام خرج حاجاً فحمل ثياب طهره على ستمائة جمل)[١].

وروي أنه كان (يستجيد الخيل، وأقام الحلبة، فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس)[٢].

لم يكن معاوية نفسه ليتظاهر بهذا الترف، ولعل الحوادث التي عاشها لم تتح له ذلك، ولم يكن هشام يبلغ هذا المبلغ من الترف المفرط لو لم يكن قد استأثر بأموال المسلمين. وقد يكون الذهب الذي ملكه أكثر من وزن الثياب التي حملها على الجمال الستمائة وقد يكون أكثر من وزن الجمال أنفسها. فهل هذا وأمثاله من كان ينبغي أن يكون (خليفة) شرعياً لرسول الله ﷺ يستأمنه الله على خلافة أمته وأرضه.؟ وأية مقاييس أو شريعة إسلامية واضحة سار عليها هؤلاء (الخلفاء)، لكي نقول أنهم أدوا واجباتهم؟ وأي اجتهاد أباح لهم التصرف بأموال الأمة ومقدراتها بهذا الشكل العبثي الكيفي؟.

شدّتهم الأرض فلم ينظروا للسماء

لقد تجاهلت (القيادة الإسلامية) السماء في هذه الحالة، ولم تعد تتطلع إليها، وعملت على إيقاف طاقة المجتمع المسلم لتحويلها من طاقة مبدعة، محركة، منتجة إلى حالة سلبية متأخرة لا تمتلك أي قابلية على الإبداع والحركة والتأثير، وتحولت الدولة إلى مستغل كبير يستأثر بأموال وجهود الآخرين ويوظفها لمصلحته ويضعها في جيوب القلة المناصرة له والتي يستند كرسي الحكم بحماس الشريك المستفيد. وتحول (الخليفة) إلى متصرف كيفي ومتحكم أعلى بكل شيء وانقلب إلى لص وقاطع طريق مسلح لا يملك أحد الوقوف بوجهه أو محاسبته ناهيك بقطع يده.

---

(١) العقد الفريد ٥-١٨٠.

(٢) مروج الذهب ٢٤٩.

لا تلاعب بالتشريعات الإلهية

إن المسلمين ـ من وجهة نظر الإسلام ـ لا ينظرون إلى الأرض باعتبارها جزءاً منفصلًا عن السماء، بل إنهم يستمدون صلاحيتهم كخلفاء على الأرض من السماء نفسها، ويعملون على التطور والابداع انطلاقاً من شعورهم بمسؤولية هذه الخلافة المقيدة بتعاليم السماء وشروطها وقوانينها وقيمها. اخوة تحت مظلتها، لا يتجاوز بعضهم على بعض ولا على تلك القوانين التي استظلوا بها تحت أي ظرف ولأي سبب. سواسية لا طواغيت ولا أرباباً من دون الله.

ولا كما صور معاوية الأمر، حكماً كيفياً غير مقيد. (فخلافته) لرسول الله ﷺ نفسه ـ كما نادى بذلك العديد من أتباعه ومريديه والمخدوعين به ـ تفرض عليه العمل بما جاء به الرسول ﷺ وعمل به، وأي خروج متعمد ـ بأية دعوى أو ذريعة ـ يعني الخروج السافر على مقومات هذه الخلافة نفسها. وما كان لرسول الله ﷺ نفسه ـ وحاشاه ذلك ـ أن يأتي بشريعة أو قوانين من عنده، أو يخفي بعض ما أمره الله سبحانه أن يظهره للناس.

ونلمس من الخطاب الإلهي والتحذير الشديد من الخروج ولو بشكل جزئي عن الأقوال والتعاليم والتشريعات الإلهية، مغبة قيام الناس بإيكال مهمة التصرف بالتشريعات الإلهية لأنفسهم. لأن المجتمعات البشرية ستكون مليئة بالنقائص ومزدحمة بالتشريعات المتضاربة التي ستجعل منها عدوة لبعضها، منقادة للمشرعين (الحكام) الذين ينطلقون حتماً من تصورات ونزعات خاصة لا يقيدها قانون أو نظام أو مبدأ مقر من قبل الجميع. وسيكون ذلك مدعاة لفوضى متزايدة على مر السنين وصراعات بين (المشرعين) الذين سيدعون العصمة والكمال والفهم، وبين الشعوب والأمم التي يتسلط عليها أولئك المشرعون الموهوبون..!! وهذا ما حصل فعلًا ويحصل الآن. وقد يكون علة دمار وخراب هذه الشعوب المضطهدة المستضعفة.

إن الجريمة تتضاعف عندما يمنح بعضهم لنفسه صلاحية التشريع باسم الإسلام. هذه الرسالة السماوية المتكاملة التي ما كانت لتغفل عن تنظيم هذه الحياة بشكل متوازن دقيق لا يتيح بروز أية زوائد ضارة في جسم المجتمع أو أية قوى طاغوتية متسلطة مستغلة. بل تمهد لظهور حياة منسجمة، يعمل فيها الجميع وفق نسق واحد وتصور واحد واتجاه واحد كأخوة حقيقيين تجمعهم وحدة المشاعر والمصالح لا متنافسين متعادين (فالمسلمون الذين يمارسون إعمار الأرض بوصفها جزءاً من

السماء التي يتطلعون إليها ويساهمون في تنمية الثروة باعتبارهم خلفاء عليها، أبعد ما يكونون عن الزهد السلبي الذي يقعد الإنسان عن دوره في الخلافة، وأقرب ما يكونون إلى الزهد الإيجابي الذي يجعل منهم سادة للدنيا لا عبيداً لها، ويحضهم ضد التحول إلى طواغيت لاستغلال الآخرين) ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[1])[2].

سلب الخلافة، سطو غير عادل على مكاسب المسلمين

إن مجرد تصدي معاوية لحكم المسلمين، يعني السطو المتعمد على مكاسب كل أولئك الذين شيدوا صروح الإسلام بدمائهم وتضحياتهم وأموالهم وعرقهم. فما كان أولئك، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ نفسه، ليستجيبوا لهذه الرسالة استجابة تامة، ويقيموا حكم الله في الأرض، ويقدموا على كل ما أقدموا عليه، لتكون محصلة المكاسب التي انتزعوها من أنياب الشرك والطاغوت لقمة سائغة بفم معاوية ويزيد من بعده وبيد أضرابهما وأشباههما من آل أمية وغيرهم.

هل كان الذين استشهدوا في بدر وأحد وغيرها من معارك الإسلام الخالدة، وكذلك الذين هاجروا والذين نصروا وكل المجاهدين، وقد بذلوا ما بذلوه في سبيل تكريس حكومة الله على الأرض ليجعلوا ذلك مكسباً شخصياً لمعاوية ويزيد وغيرهما يتصرفون به كيف يشاءون، وعلى هواهم دون وازع أو مانع أو كابح؟.

وهل كان هؤلاء الذين نصروا الله في أفعالهم وأقوالهم حتى يتم لهم النصر الحاسم بذلك الشكل الذي تم ليتولوا خلافة الأرض وعمادتها وسياسة الناس وتصريف شؤونهم على أساس الشريعة الإلهية وحدها. هل أنهم أدوا ما كان واجباً عليهم أن يؤدوه بعد أن تم لهم النصر.

هل أقاموا الصلاة وأتموها وأعطوها حقها، وأدوا الزكاة ولم يتلاعبوا بها. وتوجهوا إلى الله وحده يستقبلون كعبته المشرفة بوجوههم وقلوبهم. وأمروا بالمعروف وعملوا به، بعد أن امتلكوا القدرة على العمل به، ونهوا عن المنكر ولم يرتكبوه. هل أدوا كل ذلك لتكون المحصلة في النهاية دولة من دول الطواغيت التي تكررت وشاهدها العالم بأشكال مختلفة..؟.

---

(١) الحج -٤١.

(٢) منابع القدرة في الدولة الإسلامية ص ٢٠٧.

معاوية وريث رسول الله؟!

هل كانت الدولة الأموية الوليد الطبيعي لدولة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام؟

لقد كان لهذا النصر الذي أحرزه المسلمون أسبابه وشروطه وتكاليفه، ولو كانوا قد أخلوا بشرط من هذه الشروط، لكان نصرهم قد انقلب إلى هزيمة واضمحلال. فلم يكن الله ليمنح أعداءه نصره، وإنما لأوليائه الذين يسعون لنصره وانتهاج طريقه (هؤلاء هم الذين ينصرون الله إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة، معتزين بالله وحده دون سواه. وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين. فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته. المشروط بتكاليفه وأعبائه، والأمر بعد ذلك لله، يصرف كيف يشاء، فيبدل الهزيمة نصراً، والنصر هزيمة عندما تختل القوائم، أو تهمل التكاليف «ولله عاقبة الأمور» إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة، من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح. المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الأشخاص والذوات والمطامح والشهوات. وهو نصر له سببه، وله ثمنه وله تكاليفه وله شروطه، فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه)[1]. . . وهذا النصر مشروط كما أوضح القرآن الكريم بآيات بينات لا لبس فيها ولا مجال لتأويل أو تحريف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . .﴾[2].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . .﴾[3].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[4].

هل نصروا الله فنصرهم؟

فهل كان النصر الذي تحقق للمسلمين على يد رسول الله ﷺ وصحبه، مكرساً ليسطو عليه معاوية ويزيد ويجنيان ثماره. .؟ وهل حقق هؤلاء مقوماته وعملوا على

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ص ٢٤٢٨.
(٢) محمد ٤٧.
(٣) غافر -٤.
(٤) الحج ٢٢.

ادامتها واستمراريتها؟ وهل لم يكونوا في مقدمة الذين حاربوا الإسلام وقاوموه، هم وآباؤهم من قبل؟.

وهل استطاعوا المحافظة على الأمانة الكبيرة التي انتزعوا أمر الوصاية عليها بالقوة؟.

إن الأمة، وقد استكانت لهم، واستجابت استجابة خانعة ذليلة لنزواتهم ورغباتهم وقوانينهم الجائرة دون أن تقف منهم موقفاً حاسماً باتجاه التغيير والإصلاح ودون أن تتفوه بكلمة أو ترفع اصبعاً في وجوههم. فإن النصر الذي حققته بدمها وعرقها وتضحياتها طيلة عشرات السنين، قد ذهب هباء، وما كان ليستمر بعد أن تراجعت هذا التراجع المهين عن موقفها المتحفز لتحقيق قيم السماء وأسباب القيمومة والخلافة الصحيحة على الأرض والناس والتي أوضحت الشريعة الإسلامية كل جوانبها ومقوماتها وأوضحت كل تفصيلات العمل الحياتي المرتبط بها مما يؤدي إلى تحقيق السعادة والخير على هذه الأرض.

ولم يحافظ الأمويون الذين كانوا في طليعة القوى المعادية للإسلام بعد ظهوره ـ كما أعلمتنا وقائع التاريخ ـ والذين ظلوا على عدائهم له حتى بعد (انضمامهم) إلى صفوف أبنائه وتسلطهم عليهم والاستئثار بمركز الخلافة الذي اغتصبوه بالقوة، على هذا المركز، وعلى الخيرات التي سرقوها.

لماذا زال الملك عنهم

وكانوا بخروجهم عن الإسلام يمهدون لخروجهم من (الخلافة) والسلطة التي ادعوها لأنفسهم وظلوا متشبثين بها طوال ألف شهر. لقد كانت تلك سنة إلهية، لم يدركوا أبعادها ولم يفهموها طيلة حكمهم. ولم يكونوا يدرون أنهم في الوقت الذي كانوا يعملون فيه على حسر الإسلام وإبعاده عن الحياة، فإنهم كانوا يعملون أيضاً على إزالة البراقع وأغطية الشرعية التي تستروا بها أمام الأمة.

وقد (سئل بعض شيوخ بني أمية عقيب زوال الملك عنهم إلى بني العباس عن سبب ذلك، فقال: إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا..)[1].

(١) مروج الذهب ص ٢٧٥.

وقد كان أحد ملوك النوبة قد قال لهم بعد أن استنكر أعمالهم واستمع إلى وصفهم لحالهم: (..أنتم قوم قد استحللتم ما حرم الله، وركبتم ما نهاكم عنه، وظلمتم من ملكتم، فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها)(١).

إنها سنة إلهية، مدونة في أسفار الرسالات وفي أسفار الحياة، ولا بد للجميع أن يفهموها وأن لا ينقادوا وراء ما انقاد إليه بنو أمية وغيرهم، فأصبحوا عبرة لغيرهم، بعد أن يفهموا هذه السنة المبينة، والذين بدوا وكأن مهمتهم الأساسية التي عملوا لها طيلة حياتهم، هي محاربة الإسلام وتهديمه ومخالفته.

عطاء كيفي وتلاعب بأموال المسلمين

لقد هون كثيرون من شأن مسألة (العطاء الكيفي) والتلاعب بأموال المسلمين، التي تمادى بها معاوية وأخرجها عن كل الحدود المعمول بها من قبل، وقالوا إنها لم تكن سوى جانب واحد وحسب من الجوانب التي ربما قد يكون قد أخطأ فيها، وربما يكون قد اجتهد وتأول كما اجتهد وتأول قبله الخلفاء السابقون. حيث منح أبو بكر أقارب الرسول ﷺ وأزواجه أعطيات إضافية ومنح عمر بعض الصحابة وأغلبهم من قريش أعطيات إضافية، ومنح عثمان أقاربه وولاته أعطيات فاقت تلك التي منحها الشيخان بشكل لا يقاس وتجاوزت كل حد. وإذاً فإن من فتح الباب لمعاوية هو من جاء قبله. فلماذا نلقي اللوم عليه وحده ولا نلوم أولئك السابقين.؟ ولا نقول إنه تأول فأخطأ كما تأول أولئك فأخطأوا.؟.

ومع أن قداسة الشيخين بلغت من بعض النفوس حداً أصبحت معه لا تجرؤ على مناقشة تصرفاتهما، إلا أن ما قاما به ـ في هذا المجال وهو ضئيل إذا ما قيس بما فعله ـ عثمان ثم معاوية بعد ذلك، لا يبرر تمادي الأخيرين المفرط وخصوصاً معاوية الذي بدا وكأنه لا يضع أمامه أي اعتبار، وبدا كأنه قد خرج عن عمد ومع سبق الاصرار عن كل ما وضعه الإسلام من تعاليم وتشريعات.

---

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٠٣-٢٠٤ وقد رويت في مروج الذهب (أن ملك النوبة قال لعبدالله بن مروان (الحمار): أنتم قوم استحللتم ما حُرِّم وركبتم ما عنه نهيتم، فظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم. ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم) ص ٣٤٨.

انفراج زاوية الانحراف

إن الخروج البسيط الذي أقدم عليه المتقدمون على معاوية بشأن العطاء، والذي لم يكد يلاحظ أول الأمر، جعلت معاوية أكثر جرأة على التمادي بغيٍّ منقطع النظير. كما جعل ذلك العديدين من أمثاله فيما بعد يستسهلون الاقدام عليها باعتبارها سابقة معمولًا بها. ولم يجعل معاوية بنظرهم مخطئاً لأنه مهد الطريق أمامهم، وربما أضافوا هم من الشرعية ما لم يكلف نفسه به. وربما لم يروا بما قام فيه ما يمكن أن يقلل قيمته في نظرهم كصحابي! وصهر لرسول الله ﷺ وكاتب للوحي وأمين الله ومهديه. الخ. !! وحاول بعض فقهاء الدولة المأجورين ـ فيما بعد ـ وتحت ظل (قادة) من أمثال معاوية التقليل إلى أقصى حد مما قام به (عن الفضيل بن عياش أنه كان يقول: معاوية من الصحابة من العلماء الكبار، ولكن ابتلي بحب الدنيا)[1]. فهي مسألة بسيطة، مجرد ابتلاء بحب الدينا، لم يجر المآسي على الأمة كلها، وهذا لا يغض من قيمته كعالم كبير (ولم يعمل بعلمه بالطبع، وهذا لا يهم أيضاً) ولا يقلل من آثار أفعاله الشنيعة في الإسلام والمسلمين وقد تسلط عليهم جميعاً وأصبح المتصرف الوحيد بأمورهم وحياتهم ومقدراتهم.

وقد غضب آخرون لمجرد أن قام أحد الناس بالمقارنة بينه وبين عمر بن عبد العزيز؛ الذي لم يكن بقية بني أمية يقاسون به بأي حال من الأحوال، فقد (سئل المعاض بن عمران أيهما أفضل؟ معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فغضب، وقال للسائل: أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين؟ معاوية صاحبه وصهره وكاتبه، وأمين على وحي الله وقد قال ﷺ: «دعوا لي أصحابي وأصهاري، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»)[2]. هذا لمجرد أن أحدهم تجرأ وسأل أيهما أفضل.. ولم يسب ولم يتعرض وكانت تلك الغضبة المضرية من المعاض بن عمران بوجه السائل عن (أمين الله على وحيه) معاوية. فهل لم يكن علي عليه السلام من أصحاب الرسول؟ وهل لم يكن زوج البتول؟.

وهل لم يكن أولهم إسلاماً، وأقدمهم إيماناً؟.

ترى ما هو موقف المعاض ممن أقدم على سبّه ألف شهر من على منابر

---

(١) البداية والنهاية ٨-١٤٢.

(٢) نفس المصدر.

المسلمين. .؟ وهل كان سيقدم على إشهار حديث الرسول ﷺ ـ الموضوع بلا شك ـ بوجه من يقدم على سب أخ الرسول ﷺ نفسه.؟ أم أنه حديث خاص بمعاوية؟.

إن كره أولئك الذين وقفوا موقف معاوية المعادي نفسه من الإمام عليه السلام لم يكن دون مبرر من قبلهم. فلا بد لتمريره من تبريره. ولا بد من تحسين وتضخيم الطرف المعادي الذي تحزبوا له أولًا، وهو معاوية. ثم يبرروا سلوكه ومواقفه. ولما كان هؤلاء من المحسوبين على العلماء فإن كثيراً من الناس ينخدعون بهم ويتبنون مواقفهم بعفوية وتلقائية المتلقي عن العلماء الثقاة. وكما قلنا في هذا الفصل، لعل للمواقف المسبقة المتبناة من قبل الآباء أثراً كبيراً في ذلك.

هل من المعقول أنه لا يزال أناس لحد الآن يقفون حائرين بين علي ومعاوية، رغم الحوادث التي تكشفت لهم والوقائع التي ليس بصحتها شك؟ ورغم الدمار الذي ألحقه معاوية بالإسلام. ورحم الله سليمان بن عُيينة الذي قال: (ما كانت في علي خصلة تقصر به عن الخلافة ولم يكن في معاوية خصلة ينازع بها علياً)[1].

محاولات لتدمير الإسلام

لقد كان معاوية، بانتهاكه المعلن لأسلوب التعامل المالي وتوزيع الثروة في الإسلام وأسلوب العطاء وأسسه وجعل المسألة أمراً كيفياً، يحاول أن يغير الإسلام برمته. ولو قد تمعنا بالأمر لرأينا أن الإسلام لم يكن بالنظام الأخلاقي المجرد الذي يهتم ببعض المظاهر السلوكية المظهرية رغم أنه يوليها اهتماماً ملحوظاً، وإنما هو نظام كامل أنزل لينظم حياة البشر وكل فعالياته على أساس واحد ونظرة واحدة. فالمسألة الأخلاقية في الإسلام لم تكن لتقام إلا على أساس الأداء الكامل للتعاليم الإسلامية وعدم إهمال بعضها بأية ذريعة أو حجة. وما نحسب أن أحداً من المسلمين يحسب الإسلام يدعوه إلى (الزهد) والرهبنة كحالة سلبية ممقوتة، بل أن الزهد في الإسلام يعني ترك ما في أيدي الناس وإعطاء كل ذي حق حقه وعدم التجاوز على الآخرين والاستئثار وجمع الأموال بكافة الطرق المتاحة المشروعة وغير المشروعة. إن الإسلام علم أن للناس مطالب حياتية ملحة وحاجات أساسية لا بد لهم منها. غير أنه أراد تنظيم كل ذلك.

(١) المصدر السابق ص ١٣٢.

الخليفة. وكيل أم مالك

إن النظام المالي في الإسلام ليس بالأمر الهامشي الذي لا علاقة له بالجميع، بل هو من صميم التوجه الأخلاقي للمسلمين. كما أن إعداد الناس لتقبل الإسلام لا يعني دعوتهم لجانب واحد من جوانبه وتجاوز الجوانب الأخرى. إنه يعني تنظيم حياتهم على كل أسسه، وضمان عدم تجاوزهم على بعضهم في كل الأمور، بل على كل شيء قد استخلف عليه البشر على هذه الأرض بما فيها الأرض نفسها وما حملت في بطنها وعلى ظهرها. إن الإسلام يضمن أن يستفيد الجميع دون أن يجاوز بعضهم على بعض في كل الأمور ومنها أمور المال والثروة، ويضمن عدم ظهور طبقات تتحكم بمصائر الناس وحياتهم وجهدهم وعرقهم. (فالخلافة تضفي طابع الوكالة على الملكية الخاصة، وتجعل من المالك أميناً على الثروة، ووكيلاً عليها من قبل الله تعالى الذي يملك الكون وجميع ما يضم من ثروات. وهذا التصور الإسلامي الخاص لجوهر الملكية متى تركز وسيطر على ذهنية المالك المسلم، أصبح قوة موجهة في مجال السلوك، وقيداً صارماً يفرض على المالك التزام التعليمات والحدود المرسومة من قبل الله عز وجل، كما يلتزم الوكيل والخليفة دائماً بإرادة الموكل والمستخلف. وطبيعة الخلافة تفرض على الإنسان أن يتلقى تعليماته بشأن الثروة المستخلف عليها ممن منحه تلك الخلافة. قال الله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[١] كما أن من نتائج هذه الخلافة أن يكون الإنسان مسؤولاً بين يدي من استخلفه خاضعاً لرقابته في كل تصرفاته وأعماله، قال الله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٢])[٣].

الإسلام.. دين متكامل

لقد أراد الإسلام لدولته أن تحقق كل ما يضمن التوازن الاجتماعي بين أبناء الإسلام والمنضمين تحت لوائه على أسس مستديمة ومستقرة. وأراد للجانب السلوكي للفرد المسلم أن يظهر لا بأشكال أخلاقية مظهرية وإنما من خلال استجابة تامة لكل ما جاء به من قيم وتشريعات. ولو أن الإسلام لم يمتلك ما يؤهله لقيادة

---

(١) الحديد ٧.

(٢) يونس ١٤.

(٣) اقتصادنا ـ محمد باقر الصدر ج ٢ ص ١٨٨-١٨٩ مؤسسة الكتاب الإسلامي ـ باريس ١٩٨٣.

المجتمع، وأكد على جانب واحد أو جوانب محددة لكان حاله حال الديانات المحرفة الأخرى التي انحسرت عن الحياة. ولما استمر بروزه على هذه الساحة إلى الآن، ولما رأينا استجابته لكل متغيرات الحياة. وطرحه الحلول المناسبة لكل مشاكلها ومستجداتها. ولما وجدنا ذلك النظام المتكامل والتصور الشامل الذي طرح علينا من خلال القرآن الكريم والسيرة المطهرة ولما رأينا ذلك الأسقاع الذي لاح عند قيام حكومة الرسول ﷺ التي أثبتت جدارتها وقوتها لإقامة وتحقيق كل ما دعت إليه بكفاءة منقطعة النظير. وأمدت أجيالًا عديدة بعدها ـ بفعل ذلك الزخم الأول ـ بقوة جعلتها تملك استجابة واعية لكل ما جاء به الإسلام، رغم الانحراف الذي ظهرت بوادره قبل معاوية والعبث الهائل به من قبل الدولة الأموية ومن جاء بعدها من (الدول الإسلامية).

لا يحق لأحد أن يخترق أي جانب من جوانب النظام الإسلامي

إن الجانب المالي لم يكن بالجانب الهامشي والمنقطع عن الجوانب الأخرى التي أرادها الإسلام أن تتكامل وتتحد لتظهر صورة واضحة للإسلام، ولم يكن جانباً يمكن فصله عن غيره. وإن الحياة يمكن أن تسير بشكل طبيعي، رغم العبث به والتلاعب بأحكامه، ولا يمكن تحقيق الالتزام بهذه الأحكام ما لم تضمن الالتزام والاستجابة التامة لأحكام الإسلام كلها، بل لعل الاستجابة لأحكام الإسلام في مجال التنظيم الاقتصادي والاستعداد للالتزام بها وتطبيقها، قد تحققت بعد الاستجابة لكل أحكامه الأخرى في مجال الأخلاق والسلوك والعبادات. وحتى العبادة اقترن مفهومها في الإسلام بتطبيق كل ما أمر الله بتطبيقه والانتهاء عما نهى عنه. فليست في الإسلام مجرد أداء طقوسي منقطع عن الأداء الحياتي اليومي.

وإذا جاء أحد بعد ذلك ليقول إن معاوية لم يخترق الإسلام ولم ينحرف إلا في جانب واحد هو الجانب الاقتصادي أو في جانبين فقط هما الاقتصادي والمالي. وأن لا بأس عليه في ذلك ما دام ملتزماً بالفرائض الأخرى مثل الصلاة والصوم وحج البيت وسعى ببناء المساجد وتوسيعها وزخرفتها، فكأنه بذلك يريد أن يوقع شهادة تبرئة أو شهادة اجتياز لاختبار في مجال معين من مجالات الدراسة أو الحياة. وكأن ذلك (المختَبر) قد نجح أمام أساتذة في مدرسة من المدارس وأنه نجح في معظم المواد ولم يفشل إلا في مادة واحدة أو مادتين، ولربما لم يعد فاشلًا تماماً في هذه الحالة.

وقد غاب عنهم فهم الأداء المتكامل للإسلام ـ وربما فهموه وأنكروه ـ ذلك الأداء الحياتي المتكامل لا الأداء المظهري السلوكي العادي أو الأداء الطقوسي المجرد لبعض العبادات كالصلاة والصيام والحج وغيرها. ولا نعتقد أن معاوية كان من الغباء بحيث لم يكن يدرك ذلك، وأنه لم يسمع أو (يضع) من الأحاديث إلا تلك التي أراد استغلالها للترويج لشرعية وجوده في السلطة وحسب.

ولا نعتقد أن هؤلاء المدافعين لا يعتقدون أن النظام المالي في الإسلام ليس من البساطة بحيث يتصوره البعض أنه مجرد توجه أخلاقي بحت للحث على بعض ممارسات الخير والإحسان والظهور بمظهر ودي تجاه الآخرين وأنه مجرد عمل تطوعي، وأن معظم أحكامه ليست إلزامية وإنما نابعة من شعور الشخص نفسه ومدى استجابته العاطفية والأخلاقية لعوامل الخير والبر، وحتى الاستجابة العاطفية لم يرد لها الإسلام أن تكون مبنية على تصورات خاصة وإنما مبنية على شعور الفرد بالانتماء التام للإسلام والمجتمع القائم على الإسلام والمنتمي إليه أيضاً، وعلى الاستجابة التامة لكل حاجات هذا المجتمع وضمان سلامته وانتظام علاقات أبنائه على أساس قيم الإسلام وأخلاق الإسلام وتصورات الإسلام التي لا تفرط بأي جانب من جوانب النشاط الإنساني، ولا تترك أياً منها دون توظيف ايجابي لها، ولا تترك مسألة أو مشكلة قد يواجهها المسلم دون حلول مناسبة معقولة منسجمة مع الواقع ومع متغيرات الحياة. ولم تكن هذه القيم اعتباطية، خاضعة لرغبات أو نزوات أو مطامح شخص معين، أو قابلة للتحريف أو التبديل. ويمكن تلمسها ورؤيتها، رغم محاولات العبث الواضحة بها منذ وقت مبكر بعد وفاة الرسول ﷺ.

إحتكار الثروة. تمهيد لدولة المستكبرين والطغاة

إن تحريف النظام الاقتصادي المالي القائم على أساس الإسلام، لا يعني مجرد محاولة غير مؤذية للعبث، وإن عواقبها يمكن تداركها باصلاحات أو تعديلات فيما بعد، وإنما التمهيد لخلق نظام طبقي طاغوتي لا يتحكم فيه مجرد فرد طاغية وإنما طبقة طاغية، يمهد الثراء والمال المتكدس لبروزها وصعودها وتؤليها شؤون الطبقة الأخرى التي لا بد أن تكون مستضعفة مستغلة، ولا بد أن تكون تبعيتها للأولى بحكم فقرها وحاجتها، وبروز حالات سلبية عديدة فيها كالجهل والمرض وما يجرانه وراءهما من ويلات ومآسٍ.

(وردت في القرآن الكريم مفاهيم اجتماعية كثيرة. وقد نقلنا في مباحث المجتمع ٥٠ كلمة من مفردات القرآن حول المجتمع. ومع ملاحظة الآيات الاجتماعية في القرآن التي تشتمل على هذه المفردات يستشعر نوع انقسام في المجتمع إلى قطبين. فقد ورد فيه نوع من هذا الانقسام على أساس الاقتصاد، أي على أساس التنعم والحرمان الاقتصادي، حيث عبر عن أحد القطبين بالملأ (أي امتلاء العين بالفخفخة والكبكبة) والمستكبرين والمسرفين والمترفين، وعن القطب الآخر بالمستضعفين (الذين أصيبوا بالذلة والاستضعاف) والناس (الشعوب) والذرية (الصغار الذين يحتقرون ولا يملأون عيناً في قبال الملأ) والأراذل والأرذلون (الأوباش) [وهذا التعبير لم يقله القرآن عن نفسه، بل نقله عن لسان المخالفين]. وجعل هذين القطبين متقابلين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أقر بنوع من الانقسام على أساس المفاهيم المعنوية، فجعل أحدهما الكفار والمشركين والمنافقين والفاسقين والمفسدين، والآخر المؤمنين والموحدين والمتقين والصالحين والمصلحين والمجاهدين والشهداء.

وإذا دققنا النظر في محتوى الآيات القرآنية التي تعرضت لهذين التقسيمين وجدنا نوعاً من التطابق بين القطبين الأولين، المادي والمعنوي، وكذا بين القطبين الثانيين. أي أن الكافرين والمشركين والمنافقين والفاسقين هم الملأ والمستكبرون والمسرفون والمترفون والطواغيت، لا غيرهم ولا المتشكل منهم ومن غيرهم. وأن المؤمنين والموحدين والصالحين والمجاهدين هم المستضعفون والفقراء والمساكين والعبيد والمظلومون والمحرومون، لا غيرهم ولا المتشكل منهم ومن غيرهم. إذن فالمجتمع ينقسم إلى قطبين فقط: القطب الثري الظالم المستعمر، ويشكله الكافرون، والقطب المستضعف ويشكله المؤمنون. وبذلك يتبيّن أن انقسام المجتمع إلى مستضعَف ومستضعِف هو الذي أوجد الكافر والمؤمن. فاستضعاف الآخرين منشأ الشرك والكفر والنفاق والفسق والفساد، والاستضعاف بالآخرين منشأ الإيمان والتوحيد والصلاح والإصلاح والتقوى.

ولكي يتضح هذا التطابق تكفي مراجعة الآيات من آية ٥٩ الأعراف التي تبدأ بآية ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ إلى آية ١٣٧ التي تنتهي بآية ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ ومجموعها أربعون آية [وقد ذكر المترجم في الهامش أنها ٧٩] وقد ورد في هذه الآيات قصص الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط

وشعيب وموسى عليهم السلام باختصار، وفي جميعها (ما عدا قصة لوط) يشاهد أن الطبقة التي آمنت بالأنبياء هم المستضعفون، والطبقة التي خالفت وكفرت هم الملأ والمستكبرون. وهذا التطابق لا يمكن تفسيره وتوجيهه إلا على أساس الوجدان الطبقي الذي هو لازم للمادية التاريخية ومستلزم لها. إذن فالواقع أن مواجهة الكفر والإيمان من وجهة نظر القرآن انعكاس من مواجهة المستضعَفين والمستضعِفين.

وقد صرح القرآن الكريم بأن الثراء والملكية، وبتعبير القرآن (الغنى) أساس الطغيان والتمرد. أي أنه يناقض التواضع والسلم، وقد دعا الأنبياء إليهما. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[1] ونجد القرآن أيضاً يذكر قصة قارون تأكيداً على الأثر السيء الذي تتركه الملكية في الإنسان. فقارون كان من الأسباط ولم يكن قبطياً، بمعنى أنه كان من قوم موسى عليه السلام ومن تلك الطبقة المستضعفة على يد فرعون، ومع ذلك فهذا الفرد المستضعف حينما أصبح مالكاً عظيماً لأسباب خاصة تمرد وطغى على قومه المستضعفين قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[2]. ألا يظهر من هذا أن نضال الأنبياء ضد الطغيان إنما كان في الواقع ضد الملكية والمالكين؟ وقد صرح القرآن في بعض الآيات بأن زعماء مخالفي الأنبياء كانوا من المترفين أي الغارقين في النعيم. وقد ورد هذا الأمر في سورة سبأ ٣٤ كأصل وقانون عام. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3]. كل هذا يدل على أن مواجهة الأنبياء ومخالفيهم ومواجهة الإيمان والكفر كان انعكاساً لمواجهة الطبقتين الاجتماعيتين: المستضعَفين والمستعِضفين)[4].

إلى الفرعونية من جديد

كان الحكم الأموي في محاولة منه لتثبيت وجوده ككيان مسيطر على الأمة الإسلامية، يعمل على استقطاب أعداد كبيرة ممن يرى أن لهم نفوذاً ومركزاً ومكانة

---

(١) العلق ٦-٧.

(٢) القصص ٧٦.

(٣) سبأ ٣٤.

(٤) المجتمع والتاريخ: الشهيد مرتضى المطهري ط ١- ١٣٠٢/ ١٩٧٩ طهران ص ١٢٨-١٣١.

في المجتمع من رؤساء القبائل والقادة العسكريين و (الصحابة) والمحدثين والفقهاء والقصاصين والشعراء وغيرهم بمنحهم ثروات أسطورية والتغاضي عما في أيديهم من كسب غير مشروع. وكان بذلك يمهد لظهور طبقة متنفذة متسلطة حاكمة أو مقربة من الحكم لا تطالها سلطة (القانون) وتتمتع بامتيازات استثنائية. وكان بذلك يستدرج الأمة كلها للوقوع في مأزق الطبقية الذي وقعت فيه أمم عديدة وكان سبباً لدمارها وانحطاطها وبؤس الأكثرية من أبنائها، والذي حاول الإسلام تخليص الأمة المسلمة منه بوضع قانونه العادل في العطاء والتعامل وفي كل مجال حياتي آخر، وكانت جناية كبيرة على الأمة الإسلامية، وضعت أساساً لحكم طبقي فرعوني تستعبد فيه الأقلية الأكثرية، وقد تكررت صوره وأشكاله حتى بعد زوال الحكم الأموي، حيث رأى الحاكمون أنه الطريق الأفضل لتثبيت سلطتهم وبقائهم وبقاء أبنائهم من بعدهم في سلسلة متصلة من الحكم الوراثي لم يختلف عن أي حكم طاغوتي آخر إلا بتبنيه بعض شعارات الإسلام وطقوسه بعيداً عن روحه ومبادئه وقيمه.

جناية على كل الأجيال

ولم تكن الجناية بذلك على الجيل الذي حكمه معاوية ومن جاء بعده من الحكام الأمويين وحسب وإنما على كل الأجيال وإلى يومنا هذا، بل وعلى البشرية كلها. إذ لو استمرت مسيرة الإسلام بشكل صحيح دون معاوية ومن هم على شاكلته من الحكام الآخرين، لكان للإسلام شأن آخر، ولكانت مسيرته قد امتدت لتستقطب البشرية كلها على أساسه، غير أن الذي حصل أن تلك المسيرة قد لقيت عقبات عديدة كان السبب فيها عدم انتظامها وتصدي أناس غير جديرين لقيادتها والأخذ بيد أبنائها. وهو موضوع جدير بالدراسة بعيداً عن النظرات المسبقة المتبناة وبعيداً عن السطحية والاعجاب المنفعل بمن أرادوا أن تنتشر فوق رؤوسهم هالات من النور ويظهروا أمام أبناء الأمة بمظهر المصلحين والمنقذين والعظماء. مع أنهم لم يفعلوا إلا أن خربوا ما حاول الإسلام أن يبنيه. إن أي فعل منهم ينبغي أن لا يمر دون النظر بالأسباب الكامنة وراءه وينبغي أن تكون دراساتنا التاريخية مبنية على ما أوضحه القرآن الكريم من السنن والقوانين، كما التفت إلى ذلك جماعة من علماء الإسلام كالشهيدين الصدر والمطهري وغيرهما.

أراد الله.. وأرادوا

أوقفوا مسيرة الإسلام

لقد أراد الإسلام للحياة أن تنتظم على أساسه، ولم يرد للإنسان أن يهمل أياً من احتياجاته ومطالبه. لكن على أساس موزون لا يفرط بنفسه هو ولا يمس بالآخرين ولا يلحق بهم حيفاً أو غبناً أو أذى، ووضع لذلك قواعد عملية تنظم كل الفعاليات، غير أنه أراد للإنسان أن يتبناها عن قناعة بها ورضى، ومن هنا كان تغلب الجانب الأخلاقي الظاهري الذي أراد أن يؤهلنا لتقبل كل تعاليم الإسلام، لا كأوامر ملقاة إلينا من قوى لا ندرك كنهها، ولا بد من تنفيذها، بل كأمور تحيزنا إليها عن وعي وأحببناها وتبنّينا العمل بها وفضلناها على ما سواها. وقد أراد الإسلام أن يجعل الضوابط التي تمنعنا من الانحراف ذاتية نابعة عن قناعاتنا التامة به وشعورنا بالانتماء الحقيقي إليه والقرب القوي منه ومن الرسول ﷺ أيضاً ومن الله سبحانه وتعالى كذلك بل وحبنا للرسالة والرسول والمرسِل. لا تهددنا سلطة أرضية أو يلاحقنا جهاز للشرطة والقضاء. وقد أرادنا أن نواجه (القاضي) الحقيقي دائماً. القاضي العادل الرحيم العليم ونجعله نصب أعيننا وأمامنا دائماً. وهذي هي عظمة الإسلام وقوة الإسلام فهو واقعي وعملي، ولم يطرح قوانينه وتعاليمه بشكل لا ينسجم مع فعاليات الإنسان الطبيعية بل بشكل ينظمها ويقترب بها من المثل الأعلى الحي الوحيد، وهو الخالق الأحد. كما أنه قريب من النفوس، وما يطلبه ممكن الأداء والتنفيذ، بل أنه محبب إليها متى ما أدركته وأدركت جدواه وفائدته وفهمته جيداً. وكانت هذه مهمة كل أبنائه من العلماء الربانيين والمتعلمين، على مر الزمن، أن يجعلوه قريباً من النفوس وبعيداً عن الانحراف، وألا يسمحوا لأية طبقة طفيلية بالنمو على حساب الأمة لتكون هي المتسلطة بالتالي والمالكة الآمرة الطاغية.

لقد كانت الأمة مدعوة في كل زمن للانتباه إلى كل من يحاول تجريدها من إسلامها واستبداله بإسلام مسخ لا يحمل من الإسلام إلا اسمه. وكان الصراع قوياً بين الطبقات التي بدأت تتسلط وتقوى وتنمو وتدافع عن (مكاسبها) بكل شراسة، وبين الطبقة المستضعفة التي لم تعدم من بين بنينها من يقوم بمهمة التصدي لتلك الطبقة الأولى التي بدأت تبسط نفوذها بشكل فعلي في زمن معاوية، وإن كانت قد وجدت لها محط قدم قبيل ذلك وبشكل ملحوظ في زمن عثمان.

دولة الإسلام قامت على الاستجابة لحاجات الناس ومطالبهم

إن دولة الإسلام ليست طوباوية ولا مدينة فاضلة تخيلها فيلسوف وتمنى أن يعيش فيها الناس، وإنما هي دولة قائمة على الاستجابة الحقيقية لحاجات الناس ومطالبهم دون تفريط أو إخلال بين حقوقهم وواجباتهم وتقيم موازنة عادلة بين هذه الحقوق والواجبات على أساس عملي قائم من صميم الحياة، لأن الذي أوجدها وأرادها هو خالق الحياة نفسها وواهبها.

لذلك فإن ما يمكن أن يغفل عنه من يتصدى لمهمة التشريع للآخرين. لا يمكن أن يغفل عنه خالقهم ومربيهم. وقد أعد لكل صغيرة وكبيرة حسابها، ولم تكن قوانينه وأحكامه مجرد توجه أخلاقي بحت، وإنما ربط هذا التوجه الأخلاقي بمجمل الالتزام بكل القوانين والأحكام، الاقتصادية والاجتماعية وغيرها وجعل هذا الالتزام ودرجته مقياساً لاستجابة الفرد لله سبحانه وخضوعه وإسلامه وعبادته. فالعبادة في الإسلام لا تعني مجرد أداء الفرائض، وإنما الالتزام بكل ما جاء به الإسلام وعدم إهمال أي جانب منه أو تغليب جانب على آخر.

تكامل بين الجوانب.. لا يمكن فصل بعضها عن بعض

وكان النظام الاقتصادي الإسلامي أحد تلك الجوانب المهمة التي لا يمكن فصلها عن الفعاليات العبادية الأخرى. وقد جعل من مسؤوليات الدولة والفرد كليهما تطبيق أحكام هذا النظام وعدم الاخلال بها أو إهمالها أو استبدالها، وربما كان جانب كبير من مسؤولية استخلاف الإنسان ـ التي نظمها الإسلام وأوضح بنودها ـ معنية بهذا النظام وأحكامه وتفاصيله.

ولا يحسبن أحد أن النظام الاقتصادي الإسلامي مجرد تعليمات تحثُّ على البر والاحسان والصدقة بل إنه نظام تكفل بتحقيق أعلى قدر من المساواة بين الناس قائم على مجمل الدين الإسلامي ذي المبادىء والأحكام والقيم المنسجمة المتحدة والقادرة على التحكم في الحياة وجعلها تسير في اطارها وفي حدودها. وهكذا (نعرف أن الاقتصاد الإسلامي بوصفه جزءاً من تنظيم اجتماعي شامل للحياة، يجب أن يندرج ضمن الإطار العام لذلك التنظيم، وهو الدين، فالدين هو الإطار العام لاقتصادنا المذهبي..

ووظيفة الدين ـ بوصفه إطاراً للتنظيم الاجتماعي والاقتصادي في الإسلام ـ أن يوفق بين الدوافع الذاتية والمصالح الخاصة من ناحية، والمصالح الحقيقية العامة للمجتمع الإنساني ـ من وجهة نظر الإسلام ـ من ناحية أخرى.

[والاقتصاد الإسلامي] إقتصاد واقعي في غايته لأنه يستهدف في أنظمته وقوانينه الغايات التي تنسجم مع واقع الإنسانية، بطبيعتها ونوازعها وخصائصها العامة. ويحاول دائماً أن لا يرهق الإنسانية في حسابه التشريعي ولا يحلق بها في أجواء خيالية عالية فوق طاقاتها وإمكاناتها. وإنما يقيم مخططه الاقتصادي دائماً على أساس النظرة الواقعية للإنسان، ويتوخى الغايات الواقعية التي تتفق مع تلك النظرة.

وهو واقعي في طريقته أيضاً فكما يستهدف غايات واقعية ممكنة التحقيق، كذلك يضمن تحقيق هذه الغايات ضماناً واقعياً مادياً، ولا يكتفي بضمانات النصح والتوجيه التي يقدمها الوعاظ والمرشدون، لأنه يريد أن يخرج تلك الأهداف إلى حيز التنفيذ، فلا يقنع بإيكالها إلى رحمة الصدف والتقادير، فحين يستهدف مثلًا إيجاد التكامل العام في المجتمع، لا يتوسل إليه بأساليب لتوجيه واستثارة العواطف فحسب، وإنما يسنده بضمان تشريعي، يجعله ضروري التحقيق على كل حال.

والصفة الثانية للاقتصاد الإسلامي، وهي الصفة الأخلاقية، تعني ـ من ناحية الغاية ـ إن الإسلام لا يستمد غاياته التي يسعى إلى تحقيقها في حياة المجتمع الاقتصادية من ظروف مادية وشروط طبيعية مستقلة عن الإنسان نفسه. وإنما ينظر إلى تلك الغايات بوصفها معبرة عن قيم عملية ضرورية التحقيق من ناحة خلقية.

وتعني الصفة الخلقية ـ من ناحية الطريقة ـ: إن الإسلام يهتم بالعامل النفسي خلال الطريقة التي يصفها لتحقيق أهدافه وغاياته)[1].

إن محاولة إلغاء هذا النظام أو استبداله تعني إلغاء الإسلام نفسه أو استبداله بدين جديد لا يحمل إلا اسمه، لأنه يعني تجريده من مقوم هام من مقومات وجوده، يضمن تحقيق أهدافه العامة المترابطة والمنسجمة والهادفة على وضع جميع الناس على طريقه.

---

(١) اقتصادنا ج١ ٢٧٦-٢٧٧-٢٩٩-٣٠٠.

عطاء كيفي غير منضبط بتشريعات الإسلام

وهذا هو بالضبط ما سعى إليه النظام الأموي بقيادة معاوية منذ البداية، فقد حاول استبدال النظام المالي الإسلامي والمرتبط بكل توجهات الإسلام وأخلاقياته بنظام للضريبة والعطاء الكيفي، مستهدفاً تحقيق أكبر قدر من (الكسب) للدولة، وموزعاً هذا القدر توزيعاً يضمن تكدس الأموال في جيوب نسبة ضئيلة من أبناء الأمة، لتبرز بعد ذلك كطبقة مختلفة في معيشتها وسلوكها وتصرفاتها عن مجموع أبناء الأمة. طبقة تجد لها على الدوام (حقوقاً) مكتسبة بحكم خدمتها للدولة وقربها منها. وقد بدأت تترهل وتتضخم وتتخذ شكلًا خاصاً وآداباً خاصة في السلوك والتعامل والحياة يتقاطع مع أسلوب الشعب المسلم الذي بدأ يشكل طبقة مستضعفة مسحوقة. كما بدأت تبتعد بشكل عملي عن الإسلام وأخلاقه وقيمه ولم تعد تمتلك سوى الانتماء العلني إليه، والذي حققت بواسطته وعن طريق الدولة (مكاسب) عديدة على حساب الأغلبية المسحوقة.

نعطي من يخدمنا

إن النظام الأموي بوصفه القوة والثروة في أيدي (صفوة مختارة) جعلها صفوة حاكمة - يكون قد كرس لإيجاد طبقة طاغية أرستقراطية - حسب التعابير الأجنبية - تستأثر بالحكم وما يحققه من مكاسب وامتيازات، وبذلك يسحب البساط من تحت الأمة ويجردها من سيادتها وقوتها ويجعلها فريسة لهذه الطبقة الطفيلية الطارئية المقربة من الحكم والساندة له بحكم ارتباط وتشابك المصالح وبحكم المصير الواحد، ليضمن عدم وقوفه وحده (أو العائلة الأموية) وحدها بمواجهة الأمة باعتباره عنصراً طارئاً غريباً عن الإسلام، وقد سيطر على كل مقدراتها وثرواتها وحدّ من حقوقها وحريتها، فوضع إلى جانب العائلة الأموية طوائف كبيرة من الحاشية والقادة العسكريين و (الصحابة) و (العلماء) والمفسرين وقادة القبائل والقصاصين و (الفقهاء) المأجورين وغيرهم لتعزيز مواقفه أمام الأمة وإبرازها على أنها المواقف الصحيحة ليكون في موضع السيطرة الدائمية ولتكريس نظام يقترب من الأنظمة الطاغوتية المألوفة، مستغلًا المال الذي جباه وحصله بمختلف الطرق والأساليب لتعزيز نفوذه وقوته واجبار الأمة على معايشة وتقبل هذا النمط الجديد البديل للنمط الأصلي الذي أرست دعائمه ووضعت أسسه قيادة الرسول ﷺ والذي يعتمد الأمة كلها ويشركها في

كل فعاليات ومسؤوليات الدولة ونشاطاتها كصاحبة شأن وصاحبة مصلحة حقيقية وذات علاقة ومسؤولية مباشرة في كل أمر من أمور الدولة الإسلامية، لا كرعية خاضعة لشخص حاكم معين أو جماهير مسحوقة مركونة في زوايا مهملة وبعيدة عن اهتمامات الدولة.

وقد كان إغراق هذه الطبقة المحسوبة على النظام والمقربة منه بالأموال ومظاهر القوة والنفوذ بشكل كيفي وحسب مزاج (الخليفة) وعلى هواه، أول مظاهر الانتقال بالدولة الإسلامية من دولة إسلامية حقيقية لها شكلها الخاص إلى دولة طاغوتية هرقلية أو فرعونية أو كسروية، لها نفس مظاهر وشكل تلك الدول، وإن بقيت تحمل اسم الدولة الإسلامية وتتبنى بعض شعاراتها المعلنة، لأن الإسلام لا يزال هو الغطاء (الشرعي) الذي تتستر به والمبرر الذي أعلنته ـ بزعمها ـ لوجودها واستمرارها.

وقد بدأت الفروق الطبقية تبرز بشكل حاد وواضح في هذه الدولة (الإسلامية) البديلة عن دولة رسول الله ﷺ والخليفة لها. !!.

هيا إلى خدمة الدولة ما دامت تدفع لنا

وقد حاول فقهاء الدولة وبعض المحسوبين على الصحابة والعلماء والمفسرين وواضعي الأحاديث وغيرهم تطويع الدين وإبرازه كأداة بيدها ووضعوا أحاديث ملفقة نسبوها إلى الرسول ﷺ، وتشبثوا ببعض التصرفات السابقة للخلفاء السابقين وخصوصاً في مجال العطاء وتوسعوا فيها وجعلوها سنة وأمراً ملزماً باعتبار أن أولئك الخلفاء قد اجتهدوا (وهم مقبولون عند فئات كبيرة من المسلمين) وأنهم الآن يجتهدون مثلهم. ولا بأس إذا تمادوا، فوقتهم غير وقت أولئك وظروفهم غير تلك الظروف. وبرروا كل خروج عن الإسلام وعن التعاليم الأساسية له بأنه اجتهاد. وأن (الخليفة) إذا ما اجتهد فأخطأ، ربما لم يكن غرضه تعمد هذا الخطأ، ليظل هذا الخطأ بالتالي يمهد الطريق لمن يأتي بعده للتمادي في الأخطاء وارتكاب المزيد منها دون حرج ودون (فقهاء وعلماء) يبررون أخطاءه ويجدون لها أسباباً مشروعة. !.

لتكن الدولة في أيدينا إلى الأبد

والنقطة الثانية التي حول بها معاوية مجرى الدولة الإسلامية ومسارها الصحيح، هو تكريسه لوراثة العرش من قبل أبنائه، فلا شك أنه لم يكن يسعى لكي يتولى يزيد الحكم وليحدث بعدها الطوفان وليواجه ما يواجه من مشاكل وصعوبات.

وإنما أراد أن يمهد الأمر ليزيد وأبنائه من بعده ليتولوا أمر الأمة وقيادتها بيسر وسهوله دون صعوبات أو مقاومة.

أما النقطة الثالثة، فهي تحويل الأمة بأجمعها إلى أداة بيد هذا الحكم، ولا بدّ أن يبدأ ذلك من مكان بعينه يكون نواة لذلك أو بؤرة لتحقيق ذلك، ولا بد أن تكون هذه النواة من أكثر البيوت صلاحية لتقبل الأفكار الغريبة عن الإسلام، كشعب أو مجتمع بعينه ثم ينسحب الأمر على باقي شعوب الأمة الإسلامية. وهكذا عمل معاوية لجعل شعب الشام نواة للأمة التي أراد التسلط عليها وقيادتها، وعمل على تربيته تربية أموية (معاويّة)[1] خالصة تدين بالولاء له شخصياً ولعائلته وتتحيز إليه تحيزاً تاماً وبدون تحفظ أو رويّة.

لماذا استهدف معاوية الكوفة

ولا بد أن معاوية كان يعلم أن الإمام عليه السلام بانتقاله من المدينة، وقد أصبحت بؤرة للفتن والخلافات، وجعله الكوفة مقراً للخلافة، أراد أن ينشىء طليعة إسلامية جديدة لمجتمع إسلامي سليم مبرء من العيوب والمساوىء التي علقت به في ظل مسيرة متعثرة وغير منتظمة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، يربيها هو عليه السلام ويعدها على غرار الطليعة التي رباها وأعدها رسول الله صلى الله عليه وآله في مكة والمدينة رغم معرفته للصعوبات التي قد يلاقيها في هذا المجال. ولم يكن معاوية بالذي تفوته مقاصد الإمام عليه السلام التي لم يكن يخفيها بأي حال من الأحوال، والتي لم تكن مما يراد إخفاؤه على أي حال، وقد كان يعلم أن قيادة الإمام عليه السلام وتوجيهاته، تمثل امتداداً واقعياً لقيادة وتوجيهات رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، وكان يدرك مدى الخطر الذي يمكن أن يلحقه إذا ما استطاع الإمام إنجاز مهمته وتربية جيل رسالي جديد، يكمل مسيرة الجيل الأول من الصحابة الذي رباه وأعده رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم ترك بعد وفاة صلى الله عليه وآله نهباً للتيارات والأطماع والعصبيات والنزاعات، وقد ترك معظم أبناء ذلك الجيل الساحة بوفاتهم، وعادت بعض النزعات والتطلعات الجاهلية للبروز على السطح، عمق منها وزادها ظهور طبقة ثرية مترفة برزت على حساب المسلمين أنفسهم ومنهم من الجيل المحسوب على الصحابة أنفسهم.

---

(١) نسبة إلى معاوية نفسه.

وطبيعي أن يسعى معاوية لعرقلة مهمة الإمام عليه السلام وإيقافها وبذل كل ما في جعبته لهذا الغرض وهكذا عمل في بداية انشقاقه وخروجه على الإمام عليه السلام بعد إجماع المسلمين على مبايعته، على إقامة كيان مناوىء للدولة الإسلامية التي أراد الإمام أن يعيدها إلى الخط الذي كانت عليه زمن الرسول صلى الله عليه وآله.

وكانت الإدارة الأموية (المتساهلة) بأمور المال وإنفاقه وبذله، وغير المدققة بالأمور الأخلاقية والسلوكية، والتي تعايشت مع أهل الشام وجعلت لها محط قدم بينهم حتى قبل ظهور الإسلام، جعلتهم ينظرون إلى الإسلام بمنظارها وقد حققت نجاحاً كبيراً معهم، وكان ذلك عاملاً على جعلها تحقق (نجاحات) كبيرة في نزاعها مع الإمام خصوصاً بعد تبنِّيها قضية رائجة جديدة هي مقتل عثمان، بعد أن مهدت لذلك مع بعض القوى الحليفة الأخرى، ومطالبة الإمام بتسليم الثوار، ثم توجيه الاتهام له عليه السلام نفسه بأنه ساعد وشجع أولئك الثوار على قتل عثمان.

وكان استقلال معاوية بالشام، واحتفاظه بها لنفسه، وتحيز أهلها المطلق إلى جانبه وتبنيهم أفكاره ونظراته، إضافة إلى الرسالة التي أحاط بها نفسه كما ذكرنا في هذا الفصل جعله في مركز يتمكن معه من اعلان نواياه ضد الإمام وخروجه خروجاً سافراً مدعماً بقوة عسكرية كبيرة عن القيادة الإسلامية العليا المتمثلة بالإمام عليه السلام.

ومما أتاح له كسب المزيد من المواقف (الرابحة) بقاؤه في الشام معلناً من هناك مناوأته للإمام، وإرساله فرقاً صغيرة تشن حرب عصابات خاطفة على كل من يشم منهم رائحة الولاء للدولة الإسلامية بقيادة الإمام تقوم بعمليات مدمرة لا تفرق فيها بين طفل أو شجرة أو حيوان. لا تلزمها ضوابط أو قوانين، بينما كان الإمام بحكم شعوره بالمسؤولية تجاه الأمة كلها وحرصه على كل فرد من أبنائها، يرى ضرورة إعادة هذا الجزء الخارج عليه، وهو الشام إلى حضيرة المجتمع المسلم، ويحشد الجيش من بين الذين اختارهم طليعة جديدة، وكان على هؤلاء أن يتركوا موطنهم وحياتهم العادية المألوفة ليذهبوا عدة أشهر إلى الشام محاربين شاكي السلاح بوجه عدوهم وقد لا يعود بعضهم إلى أهله ويقتل في ساحة المعركة.

أوجه الصراع ومفارقاته

وقد أوضح الشهيد الصدر في إحدى محاضراته القيمة المنشورة في كتاب (أهل البيت) الصعوبات التي واجهها الإمام عليه السلام من معاوية والتي عملت على شق

المجتمع الإسلامي إلى جزئين وجد في كل منهما جهاز سياسي وإداري لا يعترف بالآخر. وكانت الظروف التاريخية التي تمر بها الأمة الإسلامية تجعل موقف معاوية قوياً أو على حد تعبير الشهيد تجعل (معاوية أحسن موقفاً وأثبت قدماً وأقدر على الاستمرار في خطه من إمام الإسلام عليه السلام)[1] ونوجز هذه الأسباب مما ذكره الشهيد: (فأولًا كان معاوية يستقل بإقليم من أقاليم الدولة الإسلامية، ولم يكن لعلي أي رصيد أو قاعدة شعبية في ذلك الإقليم، لأن هذا الإقليم قد دخل في الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وانعزال علي عن خط العمل. وكان هذا الاقليم قد دخل ودشن حياته الإسلامية بولاية يزيد أخي معاوية ثم بعد بولاية معاوية وعاش الإسلام من منظار أبي سفيان. [أما] معاوية فكان يملك رصيداً قوياً وقواعده قوية في المجتمع الذي تزعمه الإمام عليه السلام لأن معاوية كان يحمل شعار الخليفة المقتول والمطالبة بدمه.

وثانياً: . . . أمير المؤمنين عليه السلام بوصفه الحاكم الشرعي والمسؤول عن الأمة الإسلامية كان يريد أن يقضي على الانشقاق بشخصية هؤلاء المنحرفين واجبارهم بالقوة على انضمامهم إلى الخط الشرعي. وكان هذا يستدعي الدخول في الحرب التي تفرض على علي عليه السلام الطلب من العراقي أن يخرج من العراق، تاركاً أمته ووحدته واستقراره ومعيشته ورخاءه ليحارب أناساً شاميين لم يلتق معهم بعداوة سابقة، وإنما فقط بفكرة أن هؤلاء انحرفوا، فكان موقف علي عليه السلام يتطلب ويفترض ويطرح قضية الهجوم على أناس لا يملكون في غالبيتهم ـ الوعي في حين أن معاوية بن أبي سفيان يكتفي بأن يحافظ على وجوده في الشام، ولم يفكر (بوجود أمير المؤمنين) أن يهاجم أمير المؤمنين وأن يحارب العراق ويضم العراق. وإنما كان يفكر فقط في أن يحتفظ بهذا الثغر حتى تتهيأ له الفرص والمناسبات والظروف الموضوعية، بعد ذلك يتآمر على الزعامة المطلقة.

وثالثاً: كان معاوية يعيش في بلد لم يكن قد نشأت فيه، زعامات سياسية طامحة إلى الحكم والسلطان ولم يكن فيه أناس ذوي سابقة في الإسلام، ممن يرى لنفسه الحق أن يساهم في التخطيط وفي التقدير وفي حساب الحاكم وفي رسم الخطط. أما علي عليه السلام فكان يعيش في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله. وكان يواجه كثيراً ممن

(١) أهل البيت ـ مطبوع بالرونيو ـ السيد محمد باقر الصدر.

يرون أن من حقهم أن يساهموا في التخطيط وأن يشتركوا في رسم الخط. يواجه أشخاصاً كان يرونه نداً لهم، غاية الأمر أنه ند أفضل، لكنهم صحابة كما أنه هو صحابي عاش مع النبي ﷺ وعاشوا مع النبي ﷺ.

إن خلافة علي كانت بعد وفاة النبي ﷺ بعشرين سنة، وهذا معناه أن ذلك الامتياز الخاص الذي كان يتمتع به أمير المؤمنين عليه السلام في عهد الرسول ﷺ كالنجم لا يطاول. قد انتهى مفهومه وتضاءل أثره في نفوس المسلمين، الناس عاشوا عشرين سنة يرون علياً مأموماً، يرونه منقاداً، يرونه جندياً بين يدي أمير. هذا الاحساس النفسي خلال عشرين سنة أذهب تلك الآثار التي خلفها عهد النبوة.

رابعاً: كانت توجد هناك الأطماع السياسية والأحزاب السياسية التي تكونت في عهد ابن الخطاب واستفحلت بعده نتيجة الشورى. وكانت حالة الاستسلام في المجتمع الشامي بالنسبة إلى معاوية لا يوجد ما يناظرها بالنسبة إلى الإمام عليه السلام في مجتمع المدينة والعراق.

خامساً: الإمام كان يتبنى قضية هي في صالح الأضعف من أفراد المجتمع، وكان معاوية يتبنى قضية هي في صالح الأقوى من أفراد المجتمع.

تصوروا مجتمعاً إسلامياً وهو يعم بالتقسيمات القبلية بمعنى أن القبيلة كانت تخضع إدارياً وسياسياً لزعامة تلك القبيلة التي تشكل همزة وصل بين القبيلة وبين الحاكم الذي يسهل عليه أن يرشي رؤساء هذه القبائل. وهذا ما كان يفعله غير علي عليه السلام من الحكام وكان عاملاً من عوامل القوى بالنسبة إلى معاوية. معاوية لم يكن شخصاً مكشوفاً، بل كان شخصاً عنوانه الاجتماعي أنه حريص على كرامة الإسلام وأنه الشخص الذي استطاع أن يدخل في قلب الخليفة الخشن (عمر) الذي يعاتب ويعاقب، الذي كان يضرب ابنه بحد الخمر حتى يموت، هذا الخليفة لم يضرب معاوية ولم يعاقبه. معاوية كان نتيجة من قبل الحكام والخلفاء والمنحرفين، وكان يتمتع بسمعة طيبة وبمفهوم طيب. هنا دخل الصراع لأول مرة شعار الأخذ لدم عثمان. وكان يبدو شعاراً له وجهة شرعية.

[كما أننا] يجب أن نقدر موقف هؤلاء الذين ضحوا وبذلوا وقدموا، ثم أصبحوا يشككون لأن من مصلحتهم أن يشككوا وأصبح الإمام يدفعهم فلا يندفعون، يحركهم فلا يتحركون. لأن من مصلحتهم أن يعطوا للمعركة مفهوماً جديداً وهو أن القصة

قصة زعامة علي أو معاوية. وهذا التفسير الذي أوحت مصلحة هؤلاء وهؤلاء هو الذي كان يشكل عقبة دون أن يتحرك هؤلاء من جديد إلى خط الجهاد)[1].

بين العدالة والتلويح بالمنافع والرشوات

وكان الحزم الذي أخذ به الإمام عليه السلام نفسه والرجوع إلى البدايات الصحيحة الأولى في توزيع الأموال على المسلمين، وعدالته الصارمة سبباً لتخلي كل أولئك الذين تخلوا عن نظرة الإسلام المبدئية أو الذين لم يكونوا ينظرون بها أصلًا، عنه عليه السلام. فقد كانت المعركة تتخذ أبعاداً جديدة، دخلت فيها عناصر لم يكن يحسب أنها ستدخل فيها، لو لم يقصد معاوية تصدياً مسلحاً لحكومة الإمام عليه السلام. وكانت تقوم بين عموم المسلمين المستضعفين، الذين يقعون فريسة لمن هم أقوى منهم وأعلى في مراكز السلم الاجتماعي الجديد الذي بدأ يظهر بعد اختفائه أيام الرسول صلى الله عليه وآله وبين هذه الطبقات الجديدة التي حاولت أن تبرز مجدداً مستغلة مراكزها القبلية و (سابقتها) في الدين. لتخرج على حكومة الإمام بمختلف الذرائع والحجج (الشرعية)، مستغلة السوابق التي تم فيها إقصاء أمير المؤمنين عليه السلام وإبعاده عن مركزه الحقيقي. وكأن تلك السوابق أصبحت سنة وعهداً من رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه لا تصرفات شخصية من أناس عاديين تولوا مركز الخلافة بفعل عوامل عديدة. حتى وصل الأمر بمعاوية أن عرض نفسه لأهل الشام بعد انفراده بالحكم لا كخليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وإنما كان كإنسان نافع لهم مضر بأعدائهم، ولا يهم بعد ذلك إن كان خيراً من غيره أو أقل منه. (قال معاوية: يا أيها الناس، ما أنا بخيركم وإن منكم لمن هو خير مني، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية وأنكأكم في عدوكم وأدركم حلباً)[2].

(وكان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد، ويلطف به حتى استوثق به أكثر الناس)[3].

---

(١) أهل البيت ـ السيد محمد باقر الصدر ص ١٠٤-١١١.

(٢) ابن كثير ٨-١٣٥.

(٣) ابن الأثير ٣/ ٣٥٥ وذكر ابن عبد ربه الأندلسي أنه كان (.. يعطي الأقارب ويداني الأباعد حتى استوثق له أكثر الناس) العقد الفريد ٥-١١٠.

قضية الشام. أم قضية معاوية

تخطيط قديم لتربية أهل الشام على أساليب معاوية وتصوراته

لقد أراد معاوية أن يضع مجتمع الشام بمواجهة المجتمع الإسلامي كله، وحاول أن يوحي لمجتمع الشام هذا بأنه هو المجتمع الأمثل والأفضل ما دام يتبنى قضية عادلة هي قضية مقتل عثمان، وأنه يتمتع بامتيازات وقدرات مضافة تجعله هو المجتمع المؤهل لقيادة الأمة الإسلامية، وأنه ـ أي معاوية ـ لم يكن يعمل إلا بما يراه له أهل الشام، وما ذلك إلا لأنه وجد فيه تربة صالحة لتحقيق مؤامراته ضد الإسلام، وأراد استغلاله إلى النهاية لتنفيذ أغراضه ومطامحه وجر بقية أبناء الأمة إلى ما جر إليه هذا المجتمع. وحاول بمكر منقطع النظير أن يوحي لهذا المجتمع بأن الصراع لم يكن بينه هو (معاوية) وبين الإمام، وإنما كان بين مجتمع الشام ومجتمع الحجاز والعراق وغيرهما من أقطار الإسلام.

وكانت رسائله للإمام عليه السلام ومخاطبته لأهل الشام وغيرهم، تدل على أنه يعول عليهم بالدرجة الأول لتنفيذ خططه ومشاريعه. فقد جاء في رسالة بعثها للإمام عليه السلام قوله: (وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام. ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة [لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام])[1].

وقال معاوية لجماعة من الموالين لأمير المؤمنين عليه السلام: (إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذابين عن بيضته التاركين لمحارمه ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله والمحلين ما حرم الله والمحرمين ما أحل الله)[2].

وقد ذهب معاوية إلى أبعد من ذلك، فدفع أناساً ليرووا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «وإن أهل الشام هم الطائفة المنصورة على من خالفها»[3].

---

(١) وقد ترسخ هذا المفهوم عند أهل الشام، حتى اعتقدوا أنهم ألاحق بمركز الخلافة، حتى قال بعضهم لبعض عند وفاة معاوية بن يزيد «إن الملك كان فينا أهل الشام فانتقل منا إلى الحجاز ولا نرضى بذلك) العقد افريد ٥-٧٦-١١٢.

(٢) مروج الذهب ٥٠.

(٣) البداية والنهاية ٨-١٢٩.

الشام ثقة مطلقة بمعاوية

وقد بلغت ثقة أهل الشام بمعاوية حداً بعيداً، جعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه باستجابة تامة دون تمحيص. ومتى ما علمنا أنه عمل على تركيز روح الجهل وخصوصاً في أمور الدين ـ التي كانت سائدة فعلًا لأنهم دخلوا في الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ كما رأينا، وأنهم إنما نظروا بمنظاره ووفق العقلية التي أرادهم أن يفكروا بها، فإننا نستطيع أن نقول إن أهل الشام كانوا نتاج معاوية ومن صنع يديه، وكانوا نسيجاً خاصاً يختلف عن غيره. لم يكن بينهم (دخيل) يكره معاوية أو لا يميل إليه. ونستطيع القول أيضاً إن الشام كانت أموية خالصة تنتمي إلى آل أمية وإلى معاوية انتماءً خاصاً حميماً.

ولم يكن معاوية بحاجة إلى دهاء كبير وسياسة ماكرة إلى حد بعيد لكي يوجه أهل الشام كما يريد، وكان أي شخص في موقفه يستطيع تحقيق ما حققه من نجاح معهم، لأن فراغ هؤلاء وقلة ترابطهم القبلي وضعف اتصالهم بعرب الجزيرة الذين تلقوا الإسلام بوقت مبكر، وقربهم من مواقع الامبراطورية القيصرية ووجود مصالح وعلاقات مشتركة معهم، وعدم دخولهم الإسلام إلا في وقت متأخر جعل هويتهم وانتماءهم غير واضحين.

وكان معاوية، هذا الذي تعززت تجارة ذويه مع أهل الشام قبل الإسلام، والفترة الطويلة التي حكمها كعامل لمن سبقه من الخلفاء مضافة لفترة (الخلافة)، هذه الفترة التي تكاد بمجموعها، تمتد قرابة نصف قرن (الولاية والخلافة)، طبعت أهل الشام بطابعه ووسمتهم بميسمه. ومما عزز مركزه قبل استلامه السلطة المطلقة (كخليفة)، أنه كان فعلًا حاكماً شبه مطلق (كعامل) في زمن الخلفاء السابقين وخصوصاً عثمان، ابن عمه، مما جعل أهل الشام على يقين بجدارته وكفاءته. بل وجدارة ورفعة العائلة الأموية الثرية كلها.

وإذا ما أضفنا الأحاديث المفتراة والقصص الموضوعة والتي ذكرنا قسماً منها بخصوص معاوية، ومبدأه في العطاء وتساهله المفرط في الأموال العامة والرشاوى المبالغ فيها، واستعانته بجيش محترف من المحدثين والقصاصين و (الصحابة) والوعاظ والقادة العسكريين وغيرهم، أدركنا الجهد الذي كرسه معاوية في سبيل جعل الشام مملكته الخالصة الخاصة به دون أقطار الإسلام الأخرى، وكيف أنه نجح بجعل أهلها أهله وذويه وخاصته وخالصته.

لقد كان جهل أهل الشام المفرط بالإسلام ساعد معاوية الأيمن لتنفيذ مآربه واستخدامهم لهذه الغاية وجعلهم ينحازون إليه انحيازاً تاماً.

نماذج من المضحكات المبكيات

وقد سمعنا قصة أبي العباس السفاح مع أشياخ من أهل أرباب النعم والرياسة من سائر أجناد الشام عندما حلفوا له: (أنهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية)[1].

(ثم تدبر تفرقهم في أحوالهم ومذاهبهم، فانظر إلى اجتماع ملئهم، أن رسول الله ﷺ أقام يدعو الخلق إلى الله اثنين وعشرين سنة، وهو ينزل عليه الوحي ويمليه على أصحابه فيكتبونه ويدونونه ويلتقطونه لفظة لفظة، وكان معاوية في هذه المدة بحيث علم الله، ثم كتب له ﷺ قبل وفاته بشهور، فأشاروا بذكره ورفعوا من منزلته بأن جعلوه كاتباً للوحي وعظموه بهذه وأضافوه إليها وسلبوها عن غيره وأسقطوا ذكر سواه)[2] (وتروى عنهم قصص غريبة تثبت جهلهم برسول الله ﷺ نفسه، وقول أحدهم لآخر وقد سمعه يصلي على محمد ﷺ، ما تقول في محمد هذا؟ أربنا هو؟)[3].

وقول أحدهم عن أمير المؤمنين عليه السلام: (من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: ما أراه إلا لصاً من لصوص الفتن)[4].

وقول أحدهم (وهو حاج وقد ذكر له البيت: إذا أتيته من يكلمني منه)[5].

وقول أحدهم عندما سئل عن مذهبه (إنه مرجئي قدري ناصبي رافضي)[6].

وقد أفصح أحد أهل الشام عن استجابتهم المطلقة لمعاوية وآله وتحيزهم التام

(١) مروج الذهب ٤١.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) المصدر السابق ص ٤١.
(٥) نفس المصدر.
(٦) نفس المصدر.

إليهم، عندما قال، معقباً على نقاش بخصوص تعيين يزيد خلفاً له: (ما ندري ما تقول هذه المعدية العراقية، وإنما عندنا سمع وطاعة وضرب وازدلاف)[1].

وقال آخر عند حضور إحدى الجلسات لمناقشة بيعة يزيد، وهو يزيد بن المقنع فقال: (أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية. فإن هلك فهذا. وأشار إلى يزيد. فمن أبى فهذا. وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: إجلس فإنك سيد الخطباء)[2].

(وقد بلغ من أمرهم في طاعته أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا إلى قول عمرو بن العاص أن علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير)[3].

مجتمع غريب

وبغض النظر عن هذه الأخبار والقصص التي تحفل بها كتب التاريخ، فمما لا شك فيه أن معاوية نجح إلى حد بعيد في استقطاب أهل الشام وجعلهم ينظرون إليه كممثل حقيقي بل وحيد للإسلام، وكان حالهم غريباً حقاً بجهلهم الإسلام وتصورهم المشوش عنه، فكانوا بذلك كعضو أو جسم غريب زرع في جسد الأمة الإسلامية، فلا هو ينتمي إلى الإسلام انتماء خالصاً مبنياً على فهم حقيقي له، ولا هو مجتمع جاهلي خالص معروف الاتجاهات والأهداف، وكان عدم مبالاته الغريبة بصميم النشاطات والفعاليات الإسلامية ووقوفه على الحياد أمام كل عبث بمبادئ الإسلام تثير أي امرىء غيور حريص على هذا الدين الذي بدأت تعبث فيه رياح الأطماع والأحزاب والعصبيات والأحقاد.

كان مجتمعاً قد استماله معاوية واشتراه وجعل منه مجرد قطيع لا يعرف أهدافه الحقيقية من الحياة على ضوء الإسلام، ولا يعرف من هذا الدين إلا أداء بعض الطقوس التي تتيح له الادعاء بأنه ينتمي إلى الإسلام.

لقد أفرغه من شعوره بالمسؤولية، وجعل منه مجتمعاً لا يهتم أفراده إلا

---

(١) الكامل في التاريخ ٣-٣٥٥.

(٢) العقد الفريد ٥-١١٢.

(٣) مروج الذهب ٣٩.

بأمورهم الحياتية البسيطة ولا يميزون بين الحق والباطل والحلال والحرام، لأنه لم يرد له أن يتعلم حقاً ويتفقه حقاً في الدين حتى يعرف ما ينبغي له أن يعرفه.

أساليب جاهلية لمواجهة الإسلام ثانية

لقد كان معاوية يقف (كمعارض) صاحب حق وقضية في وجه الإمام، وإذا ما أضيف إليه مجموعة الطامعين في الخلافة والحكم ووجهاء قريش والعمال والمنتفعين السابقين الذين يخشون من تجريدهم امتيازاتهم وأموالهم التي حصلوا عليها دون وجه حق، والمتفقهين والمتعلمين ورواة الأخبار والمفسرين والقصاصين و (الصحابة)، وبعض وجوه قريش التي رأت في الإمام عدواً تقليدياً لها والخوارج وأضرابهم والقوى والأحزاب السياسية. رأينا كم كان ذلك العصر حافلًا بعناصر الفتن والخلاف، تلك الفتن التي تزامنت مع بداية استلام الإمام مسؤولية الخلافة.

وقبل اغتيال الإمام عليه السلام وكانت الشام وما حولها ممهدة لمعاوية، حاول معاوية استمالة كل من لمس لديه استعداداً لمناوأة الإمام وحربه، ثم استغل الثروات التي تركزت في يديه لاستمالة وجوه الناس والأشراف ورؤساء القبائل والقادة العسكريين وغيرهم ومهد بمختلف الوسائل لتركيز الحكم في ذريته والتمهيد لخلافة يزيد في مبدأ الأمر. كما عمل على بعض العصبيات القبلية لجعلها مراكز قوى متنافسة فيما بينها غير أنها تدين بالولاء له شخصياً.

إن توزيع مراكز القوى بين القبائل، بعد انتزاعها من الإسلام كمركز قوة وحيد، عمل على بعث وإحياء النظرات الجاهلية العصبية التي حاول الإسلام إماتتها ومحوها لأن من شأنها أن تضع المسلمين في خضم النزاعات والفتن والحروب. وقد دعا الإمام عليه السلام كما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحذر من الوقوع في هذا الأمر الذي وقع فيه من كان قبلهم، فلم يجنوا منهم غير المصائب والويلات والفرقة.

لقد عالج معاوية أمر الأحوال التي اضطربت في عهد الإمام عليه السلام وكان هو شخصياً أحد مسببيها ومحركيها، معالجات لم يكن أحد يستطيع أن يصفها أنها تنطلق من منطلق إسلامي بحت بأي حال من الأحوال. وقد رأينا الأسلوب والعقلية التي عالج بها أمور دولته بعد وفاة الإمام عليه السلام وقبل ذلك أيضاً.

إننا نستطيع القول إن معظم أولئك الذين وجدوا لأنفسهم عذراً في الخروج على الإمام قد سكتوا أمام جور معاوية واستسلموا له بل وساعدوه على إرساء دعائم

دولته، بفضل ما قدم لهم من أموال ومناصب، وما استعمله من وسائل مميتة مع المعارضين الحقيقيين لإسكاتهم وردع غيرهم عن سلوك طريق المعارضة والخصومة.

لقد كانت مهمة معاوية إبعاد المسلمين عن الإسلام، وإرساء نظام طاغوتي هجين ليس له من الإسلام إلا اسمه، نظام له قواعده وأسسه الأرضية البحتة، وقائم على تجارب أنظمة طاغوتية قديمة أتيح لبعضها استغلال الدين لصالحها كما استغل هو الإسلام.

وقد كانت الحواضر الإسلامية بسبيلها أن تكون مثل الشام في أواخر عهد معاوية وبداية عهد يزيد. فحكم يزيد القصير ليس إلا امتداد لحكم معاوية الطويل. ونعيد هنا ما ذكره المسعودي بشأن الفساد الذي عمها في تلك الفترة (قد غلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي وأظهر الناس الشراب)[1].

ولم يكن الأمر بالهين أن يصل حال مدن كالمدينة ومكة إلى الحال الذي وصلت إليه في عهد يزيد، ولا بد أنها قد استدرجت قبل ذلك إلى هذا الحال. وقد روى لنا المؤرخون أن بوادر ذلك بدأت أن تظهر منذ عهد عثمان وقد استفحلت في عهد معاوية الذي غض النظر عن كل ممارسة من هذا النوع فيها بعد عن الإسلام بل رُويت لنا أقاصيص عن ولعه بما كان يزيد مولعاً به. غير أنه كان يتستر ولا يظهر ما أظهره يزيد فيما بعد. ولا بد أنه كان أمراً محسوباً ومخططاً له بعناية أن يترك الناس الدين ويهملوه ولا يجعلوا له الأولوية من اهتماماتهم ولا يعودون يهتمون إلا بشؤونهم الحياتية المعيشية البسيطة التي ألف أسلافهم أن يمارسوها قبل أن يمن الله عليهم بنعمة الإسلام.

نموذج مزور مقابل نموذج أصيل

كان الإمام عليه السلام يحاول من موقع مسؤوليته كقائد للأمة كلها أن ينقذ الأمة كلها مما يمكن أن يعبث وينحرف بها عن الطريق الصحيح، ولم يكن ينطلق في وصفه أهل الشام من موقف متحيز ضدهم أو من باب الحقد على هؤلاء الذين انقادوا لمعاوية كما

---

(١) مروج الذهب ص ٨٢.

تنقاد الأغنام، فهو يعرف حال الجهل الذي كانوا عليه، كما أنه أبعد ما يكون عن الشطط والتجني على الآخرين دون وجه حق.

وقد أزعجه أن يوجه أحد أتباعه السباب إليهم ورأى أن ذلك مجرد حالة سلبية تعمل على توسيع شقة الخلاف، وإرساء عوامل القطيعة والشقاق.

فهو بكلامه عن أهل الشام وعن الغوغاء وغير المتعلمين، إنما كان يشخص حالات اجتماعية يتحكم بها مدى القرب أو الابتعاد عن الإسلام. وكان بتشخيصه حال مجتمع الشام، يحذر المجتمعات الإسلامية الأخرى لكي لا تحذو حذو النموذج الأموي المتخلف؛ فهو يضع أمامها هذا النموذج مكشوفاً سافراً ويبين أسباب تخلفه ووقوعه فريسة سهلة بين يدي معاوية، ويبين كيف أنه لا يتماثل مع النموذج الإسلامي الذي حاول رسول الله ﷺ إيجاده، بل وأوجده فعلًا متمثلًا بالطلائع الإسلامية الأولى التي تصدَّت للشرك والكفر والطغيان بصلابة وإيمان وقدَّمت التضحيات الهائلة من أجل إعلاء دين الله ونشر كلمته على الأرض.

إن النموذج الأموي الذي وضع قبالة النموذج الإسلامي الأصيل، كان يقصد منه التصدي لكل نموذج مشابه لذلك النموذج الأول، الذي حاولت الدعاية الأموية تصويره بأنه (مثالي) بمعنى غير ممكن التطبيق ولا يمكن أن ينجح مع الحياة ومتغيراتها وتطوراتها وطبيعتها التي تقتضي تمتع الحاكمين بها ـ كما هو الحال في السابق ـ بمزيد من الدهاء والحيلة والمكر والسياسة.

وكانت السياسة الأموية تكرس لإيجاد طبقات متعددة في هذا المجتمع وإيجاد شرائح اجتماعية لها مصالح متعددة ومتناقضة في أغلب الأحيان، فعملت على إحياء النزعة القبلية وسلطة شيوخ القبائل وإبراز مفهوم العصبية القبلية من خلال تركيزها على (العرب) بشكل واضح وعلى السيادة القرشية وحقها في تبوء المراكز الأولى في السيادة، وعلى البيت الأموي بالخصوص كممثل (للسادة العرب) المؤهلين وحدهم لحكم الأمة الإسلامية، مما أوجد بالتالي حالة خلاف وتناقض وشعور بالتباعد بين بعض الشعوب التي دخلت الإسلام وكان لها ثقل كبير في المجتمع الإسلامي المتوسع المنتشر وبين أولئك الذين تبنوا النزعة العربية بشكل صارخ، مما انعكس كحالة سلبية توسعت على مر الزمن. وقد حول أعداء الإسلام النفاذ منها لضربه وتقويضه.

الإمام يراقب الحالة الأموية الشاذة ويعرف بنفسه

كان الإمام يراقب تلك الحالة الشاذة التي بدأت تبرز في الشام والتي أرادت أن تتوسع وتنتشر وتكون هي الحالة القياسية السائدة، وتلك هي ـ كما قلنا ـ النموذج الأموي للإسلام الذي عمل معاوية على نحته وإبرازه على أنه النموذج الأجمل المطلوب لأنه وحده الذي يمكن اقامة دولة معقولة وواقعية على أساسه، دولة لا تمت ـ دون شك ـ إلى الإسلام بأي سبب وأية وسيلة. وفي هذا ما فيه من نسخ كامل للإسلام واستبداله بوليد غريب لم تعرفه كل الجاهليات والحضارات الإنسانية طوال تاريخها. وهذا ما كان رسول الله ﷺ يتخوف منه. فقد قال ﷺ مخبراً أمير المؤمنين عليه السلام بما قد يقوم به بعض المحسوبين على الإسلام من تحريف وتزوير، ينطلي وتخفى أهدافه على جماهير واسعة من الأمة لأنه لا يصدر عن مؤمنين بهذا الدين أو مشركين معروفين بشركهم، وإنما عن أناس تستروا بالدين، وجعلوا من أنفسهم قيمين عليه وناطقين باسمه (فإنه لا سواء إمام الهدى وإمام الردى وولي النبي وعدو النبي. ولقد قال لي رسول الله ﷺ: إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون)[١].

غير أن هذا ما وقع فعلًا إذ ظهرت (دولة إسلامية أموية) جديدة، عدوة للدولة الإسلامية الأصل التي قادها رسول الله ﷺ، وقد تسترت بنفس الشعارات الإسلامية المعلنة. وقد كان تشخيصها كعدو، ومحاربتها على هذا الأساس، أمر يستدعي الكثير من الفهم والإدراك والقوة. والأمران الأولان لم يعوزا الإمام على أي حال، ولم تكن تعوزه البصيرة النافذة التي كانت أقرب ما تكون إلى بصيرة رسول الله ﷺ نفسه. أليس هو ﷺ القائل له: (إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي ولكنك وزير، وإنك لعلى خير)[٢].

وقد رسم هو عليه السلام صورة لنفسه، لا يملك من يتدبر شخصيته الكبيرة إلا أن يرى وضوحها وسطوعها بشكل ملفت للنظر حقاً وفريد لا مثيل له، ويرى أنه عليه السلام لم يكن يبالغ وإنما يعرض أمام المسلمين الشخصية التي أعدها رسول الله ﷺ لقيادة

---

(١) نهج البلاغة ٥٤٥.

(٢) المصدر السابق ٤٠٩-٣٠٧-٢٤٠.

المسلمين من بعده، فكأنه عليه السلام كان يرى لزاماً عليه أن يعرف الأمة على شخصيته التي حاولت قوى عديدة سحبها من دائرة الضوء عندما منع من ممارسة القيادة الفعلية للمسلمين.

(إنما مثلي فيكم مثل السراج في الظلمة يستضيء به من ولجها)[١].

(إن معي لبصيرتي ما لبست ولا لبس علي)[٢].

(وإني لعلى بينة من ربي ومنهاج من نبيي وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً)[٣].

وربما لم يمتلك أحد منا القدرة على رسم شخصيته كما رسمها هو عليه السلام ومن قبله رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يقدر أحد على فهم هذه الشخصية، إلا بمقدار قربه من الإسلام وفهمه له.

«إنني أشكو اليوم حيف رعيتي كأنني المقود وهم القادة».

لقد أعوز الإمام عليه السلام الجند الذين يحملون فكرته ويندفعون بنفس حماسه لتصفية خصوم الإسلام، دون أن يتلكأوا ويجادلوا ويناقشوا ويطرحوا المزيد من التساؤلات حول جدوى الحرب مع معاوية والظاهرة الأموية التي أصبحت ملاذاً للمتكاسلين والمتهاونين والضعفاء وأعداء الإسلام. وبرروا قعودهم عن نصرة الإمام بمختلف التبريرات التي عرضنا قسماً منها والتي يعود أغلبها إلى سأمهم من القتال والمسير المتكرر إلى الشام وغيره، وكانت الأموال الأموية عاملًا على تغيير أفكار العديدين وجعلهم يرون في الدين الأموي، الدين الأصلح الملائم والعملي، وأن أتباع معاوية مسلمون مثلهم وأن لا جدوى من الحرب، وكانت مهزلة التحكيم خاتمة المصائب التي أودت بوحدة المسلمين واجتماعهم. بينما اندفع أصحاب معاوية خلفه دون روية أو تفكير أو سؤال ومن دون إثارة أي خلاف، مقتنعين به قناعة تامة مسلمين إليه أمورهم ورقابهم. وهذا ما جعل الإمام عليه السلام يشكو شكوى مرة من هذا الوضع، فهو لم يستطع أن يجبر الناس بالقوة والحيف وأساليب القمع والرشوة. فممثل الإسلام الحقيقي لم ينتهج غير أساليب الإسلام، ولم تكن هذه وحدها أمام

---

(١) نفس المصدر ٤٠٩-٣٠٧-٢٤٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

الإغراءات الأموية والأساليب الأموية قادرة في المرحلة التي استدرجت فيها الأمة إلى الانحراف على الصمود بوجه تلك الأساليب الماكرة الخبيثة البعيدة عن الإسلام وقيمه. (إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها وأنني اليوم لأشكو حيف رعيتي كأنني المقود وهم القادة أو الموزوع وهم الوزعة)[١].

كانت مهمة الإمام عليه السلام تتمثل بايجاد وإعداد وتربية جيل جديد يؤمن بأهداف الرسالة الإسلامية ويحمل تصوراً إسلامياً صحيحاً لا يغلفه غبار الشك أو غبش الخلاف والجدل العقيم والتردد.

وقد وجدنا أن أقوال الإمام كانت تنحى بهذا الاتجاه بأكثر من مناسبة، وكان تقريع أصحابه وتوبيخهم أحياناً لا يستهدف منه سوى تنبيههم إلى أخطائهم بعد تشخيصها أولًا ثم عبورها وتجاوزها فيما بعد. كان يريد لتلك الطليعة المسلمة الجديدة أن تستسهل ترك ديارها وأهليها وكل عزيز عليها للدفاع عن الإسلام. وكان يريد لتلك الطليعة أن تبرز وتتجدد وتظهر لا في زمنه هو فقط، بل حتى في الأزمان اللاحقة، مهما تطاولت هذه السنين وابتعدت، ليكون مقياس الانتماء إلى الإسلام هو الانشداد إليه والرغبة في التضحية من أجَله، سواء أتيحت تلك الفرصة للتضحية أم لم تتح. ولا يهم متى يكون ذلك.

معارك الإسلام واحدة في كل زمان ومكان

لما أظفره الله بأصحاب الجمل، قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك. فقال عليه السلام: أهوى أخيك معنا؟ فقال: نعم. قال: فقد شهدِنَا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان)[٢].

وقد أراد بذلك أن يبين أن جنده ليسوا هؤلاء الذين يراهم أمامه يقاتلون دفاعاً عن الإسلام فقط، بل أن كل من يسير على النهج الصواب ويتبنى المواقف الإسلامية الصحيحة التي تبناها مهما تباعدت الأيام والسنين هم من جنده أيضاً. أراد إيجاد حالة ارتباط دائمية بين الناس والإسلام، وأن يرجعوا المواقف التي مر بها أسلافهم

(١) نهج البلاغة ص ٧١٩.

(٢) المصدر السابق ص ٩٨.

ويقيموها تقويماً عادلًا مصنفاً ويتبنى تلك التي عملت على عز الإسلام وإعلائه. كما أراد عليه السلام أن يثير التساؤلات حول جدوى التصرفات الأموية ويبين لنا كيف سينتهي المطاف بالمسلمين آخر الأمر في ظل دولة جائرة كهذه إذا ما سادت وحكمت، ولم تكن أقواله تنبؤات عما سيكون عليه حال المجتمع الإسلامي بقدر ما كانت تفسيراً صحيحاً للسنن الإلهية التي استوعبها الإمام استيعاباً شاملًا ووعى كل ما جاء به القرآن في هذا الصدد، فهو ابن القرآن وربيب الوحي..

كشف الأخطاء لا يتم بالسباب وإنما بوصف الأعمال

وهكذا انطلق لتعرية النظام الأموي وكشفه لا بنفس الأسلوب الذي كان يستعمله هذا النظام ويلجأ إليه، وإنما بتشخيص العيوب والأمراض التي حاول هذا النظام نشرها في جسد الأمة الإسلامية، ليتم بهذا التشخيص تخليص الأمة منها فيما بعد، حتى دون وجود الإمام نفسه واختفائه من الساحة، وربما بعد سنوات طويلة من رحيله. وبهذا الشعور وهذا الفهم فإنه عندما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام قال لهم: (إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر. وقلتم مكان سبكم إياهم، اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن البغي والعدوان من لهج به)[1].

فهو هنا يدعو لتشخيص الداء ليتسنى إعطاء الدواء المناسب؛ أراد نشوء حالة من النقد الايجابي يرتفع بمستوى كل شخص في هذه الأمة، ليشعر أنه منها حقاً وأنه مسؤول مسؤولية مباشرة عنها وأنه داع فيها. ورغم ما فعله أهل الشام معه، فإن الإمام عليه السلام كان يعرف أنهم ما كانوا ليفعلوا ما فعلوه لولا جهلهم وتأثرهم بقيادة معاوية المنحرفة، وربما كان قلبه يتفطر أسى وحزناً عليهم، لأنهم ينساقون هذا الانسياق الأعمى وراء معاوية وألاعيبه وأفانينه.

إحذروا معاوية.. لو ظهر في غير زمن الإمام لدمّر الإسلام إلى الأبد.

وهكذا أشار إلى معاوية إشارات صريحة، محذراً الناس منه، وكان بذلك يريد تحذير الناس من كل نموذج آخر مشابه قد يظهر على الساحة فيما بعد أيضاً ويضلل

---

(١) نفس المصدر ص ٤٦٤.

الناس ويلعب بعقولهم ومشاعرهم لما في ذلك من خطر ماحق، لأن معاوية ـ كما قلنا ـ يتستر بالإسلام نفسه الذي تدين به الأمة وتقدسه.

وقد شاء الله أن يبتلي الإمام بمعاوية، ويبتلي معاوية بالإمام ليكون أحدهما حجة على الآخر ـ على حد تعبير الإمام في إحدى رسائله إليه ـ.

ترى لو ظهر معاوية في زمن غير زمن الإمام، وحارب شخصاً غيره، كيف كانت ستكون مجرى الحوادث حينذاك؟ لا شك أن معاوية كان سيحقق نصراً ساحقاً، لا على ساحة المعارك وفي نطاق الحروب والسيوف، وإنما على (العقائدي)؛ إذ أن معاوية، لو كان الذي نازله غير الإمام، ربما استطاع تصوير القضية كلها لصالحه بشكل جذاب مقنع مغري، وتصوير قضية خصمه (لو كان غير الإمام) تصويراً يدعو للاشمئزاز والقرف منه. وقد أراد فعلًا أن يصور قضية خصمه الإمام كذلك، لكنه لم ينجح إلا مع الشام ولم يدم ذلك إلا خلال مراحل الحكم الأموي وحسب.

وقد استطاع الإمام ـ على عكس ما أراد معاوية ـ أن يصور بشاعته وبشاعة تصرفاته وقبحها. ولم يستطع معاوية رغم كل الجهود التي بذلها أن يطمس فضائل عدوه حتى بين أهل الشام أنفسهم أحياناً، ولم يستطع أن يخفي جرائمه هو وخروجه السافر على العديد من أحكام الإسلام وتشريعاته، وأن يلقي عليها ظلّا إلى الأبد، فقد انتبهت الأمة، وربما كانت قد سكتت مغلوبة ـ إلى أضاليله وخدعه، وربما كان ذلك بفعل توجيهات الإمام وعمله على تربية الأمة كلها وإيجاد حالة من الوعي والقدرة على النقد والمراقبة والتوجيه والرصد مما يساعد على ايجاد حالة أخرى من التقويم المستمر لكل انحراف من الحاكم أو من فئات معينة من الأمة، حتى في المراحل اللاحقة التي قد يختفي فيها (الخصوم) الحاليون ويظهر قادة جدد.

وكان أحرى بالمسلمين ـ إلى يومنا هذا ـ أن يغتبطوا فعلًا لظهور معاوية وخروجه في عصر الإمام عليه السلام نفسه، فما كان غير الإمام ـ برصيده الهائل عند الأمة ـ مؤهلًا للتصدي له وإيقافه، ولو أن معاوية ظهر في عهد غير عهده لاستأصل الإسلام نهائياً ولقضى عليه. ولكن ظهوره في زمن الإمام عليه السلام جعله يصطدم بصخرة صلدة ولا ينجح بتنفيذ كل مخططاته ومآربه إلا بشكل محدود، وإلى حين.

وكان (نجاحه) الظاهري بعد اغتيال الإمام، مقدمة لفشل سياسته ومخططاته على المدى البعيد، وكان تمهيداً لانهيار وسقوط النظام برمته بعد ذلك.

لقد كانت الدولة الأموية نموذجاً سيئاً جعل الأمة كلها تتطلع بنظرات السخط وعدم الرضى عليها وإن سكتت مغلوبة على ممارساتها، ليكون هذا النموذج فيما بعد إذا ما ظهر بأي شكل مدعاة لسخط آخر، ومعرضاً للسقوط والانهيار أيضاً.

وقد أثار ظهور هذه الدولة احتمال ظهور دول فرعونية طاغوتية محتملة في أزمنة وأمكنة أخرى تستغل الإسلام وشعاراته وطقوسه. وهذا ما جعل الأمة تراقب بوادر ذلك وتنظر بعين الحذر إلى كل نموذج آخر مشابه لمعاوية فلا يتمكن من تمرير كل خططه وألاعيبه كما مررها ذاك.

لو كان معاوية قد ظهر في عهد غير عهد الإمام، ولم يتصد له شخص كالإمام ويكشفه أمام الأمة كلها، لكان قد روج لأفكاره وقيمه المغايرة تماماً لأفكار وقيم الإسلام، ولعمل بنجاح دون أي عائق ودون وجود خصم مؤهل يمتلك رصيداً هائلاً لدى الأمة لتأسيس نظام طاغوتي جديد، تتضاءل أمامه كل الأنظمة الطاغوتية الأخرى ولأعلن خروجه السافر عن الإسلام ولحاربه علانية بنفس الطريقة التي حاربه فيها مع أبيه قبل أن يجبرا على اعتناقه خوفاً من القتل والاستئصال.

ورغم كل الغيظ الذي جرعه معاوية للإمام عليه السلام، فإننا نحسب أن الإمام كان سعيداً أيضاً لظهور معاوية في عهده، مع كل ما لاح لنا من المرارة الظاهرة في أقواله ورسائله عندما يذكره أو يكتب إليه، لأنه علم أن طاقة الشر الهائلة المعتملة في نفسه والامكانات التي سخرها والاستعدادات والقدرات الاستثنائية التي تمتع بها، لم يكن يستطع ردعها وكشفها إلا هو عليه السلام، فلم يكن أبلغ حجة على معاوية من الإمام.

كيف يستطيع معاوية أن يجد الأعذار أمام الأمة كلها ليحارب علياً ويقف في وجهه؟.

لقد تأول القرآن ووقع في مستنقع العصيان السافر لله وعمل على تزوير دينه وأحكامه واستغل بقية من عصبية كادت تنقرض وأجج نارها مرة أخرى، عالماً أن كل ما كان يفعله إنما لمصلحته الشخصية هو.

هل كان الإمام عليه السلام يملك أن يقف مكتوف الأيدي أمام خارج عن الإسلام كمعاوية؟ وهل كان مستطيعاً أن يجامله ويقره على ولاية الشام أو يتقاسمَ معه الحكم، وعنده ما عنده من اليقين والحق؟.

موقف الإمام عليه السلام من معاوية

إن ما يعلمه الإمام يجعله لا يتردد باتخاذ الموقف الذي وقفه من معاوية، وبدعوته الآخرين لاتخاذ نفس هذا الموقف من معاوية، فإنه يدعو الناس في كل زمان للوقوف بوجه أمثاله من المنحرفين دون تردد، فمنهج الإسلام واحد وطريقه واحد.

وعن ذلك عبر الإمام عليه السلام في رسالة له كتبها إلى معاوية نفسه قائلًا: (وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي، فجعل أحدنا حجة على الآخر فعدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن، فطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني وعصيت أنت وأهل الشام، وألب عالمكم جاهلكم، وقائمكم قاعدكم)[1].

وقد صور الإمام عليه السلام معاوية تصويراً دقيقاً في رسائله وخطبه، وطبيعي أن يعمد إلى ذلك مع خصمه ليكشف حقيقة هذا الخصم، ويلقي الحجة عليه وعلى من ناصره في خلافه وخروجه على القيادة الشرعية الممثلة بالإمام.

غير أننا لا بد أن نلتفت إلى أمر آخر، وهو: أن الإمام عليه السلام قد أدرك ببصيرته الثاقبة وعلمه الكبير أن معاوية سيكون نموذجاً للطواغيت والفراعنة المتلبسين بالإسلام على مر الزمن، وسيكون مثلًا أعلى لهم. وهكذا أراد أن يكشف زيف هذه الشخصية أمام الناس حتى لا ينبهروا بها أو يخدعوا ببريقها إذا ما حدث أن تكررت وظهرت بشكل آخر وباسم آخر، وقام فرعون أو فراعنه آخرون ينهجون نهجه، ولا ينساقون وراءهم، بل يدققون بتلك الأشكال الممسوخة القائمة خلف بريق ظاهري خادع.

فمعاوية نموذج ظهر في عهد الإمام، وكان الإمام عليه السلام بحسه الصافي يدرك أن ظاهرة معاوية ستكرر أمام غياب القيادة الحقيقية عن الساحة. وقد أراد الإمام، إذا ما تكررت أن لا تستقطب الأمة كلها حولها، كما يستقطب ضوء النار بعض الحشرات فتحرقها بالتالي وتعود النتيجة وبالًا على الجميع.

لو لم يكشف الإمام معاوية، لكان معاوية صنماً كبيراً معبوداً من دون الله، ولحاول أن تغطي شخصيته حتى شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه ولحاول محوها وتشويهها.

---

(١) نهج البلاغة ٦٢٧.

وقد رأينا كيف نظر الحجاج إلى شخصية عبد الملك بعد ذلك، وقد أراد الحجاج الناس أن ينظروا إليه، إلى كما ينظر هو إلى خليفته وفرعونه ومعبوده.

ولم يكن أحد يمتلك المؤهلات التي امتلكها الإمام لكي يستطيع التصدي للمؤامرات الكبيرة وكشف شخصيات (المعارضين) وفي مقدمتهم معاوية، وتعريتها أمام الناس على مر الأزمان. وهكذا، فلربما اعتبرنا من حسن الحظ والطالع أن يظهر معاوية في زمن الإمام. فمعاوية طاقة هائلة وعبقرية كبيرة من عبقريات الشر والجموح والتمرد. كانت خلاصة عبقريات الشر وسياسات الفراعنة السابقين.

كيف وصفه: إذا أردت أن تعرفه فاقرأ وصف الإمام له (.. فإنما هو الشيطان)

وما كان معاوية عقبة في طريق الإمام عليه السلام وحسب، وإنما كان عقبة في طريق الإسلام نفسه. إن أمره عجيب حقاً، فكأن هذه العقبة قد وضعت في طريق الإسلام، لتختبر منزلته في النفوس، وكيف ستصمد أمام المكائد والدسائس.

فلنلاحظ معاوية، كما لاحظه الإمام عليه السلام ووصفه هو شخصياً في بعض كتبه وأشار إليه أثناء خطبه أو كلامه:

(فإنما هو الشيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته ويستلب غرته)[١].

(ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة والحيرة المتعبة، مع تضييق الحقائق واطراح الوثائق التي هي لله طلبه وعلى عباده حجة)[٢].

(وقد دعوتنا إلى القرآن، ولستَ من أهله)[٣].

(امرىء ظاهر عنه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفه الحليم بخلطته)[٤].

---

(١) و(٢) نهج البلاغة ٥٨٥-٥٧٧-٥٩٥-٥٨٠-٥٧٢-٥٤٦-٥٤٧-٥٣٣ (ومروج الذهب ١٧) و ٥٢٦.

(٣) نهج البلاغة ٥٩٥ (ومروج الذهب ١٧) و ٥٢٦.

(٤) نفس المصدر ٥٨٠ (ومروج الذهب ١٧) و ٥٢٦.

(وأرديت جيلًا من الناس كثيراً خدعتهم بغيك وألقيتهم في موج بحرك، تغشاهم الظلمات وتتلاطم بهم الشبهات حملتهم على الصعب وعدلت بهم عن القصد)[١].

(ما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس؟ وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم. هيهات لقد حن قدح ليس منها وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها. ألا تركع أيها الإنسان على ظلعك وتعرف قصور ذراعك وتتأخر حيث أخرك القدر، فما عليك غلبة المغلوب ولا لك ظفر الظافر وأنك لذهاب في التيه روّاغ عن القصد)[٢].

(فلست بأمضى على الشك مني على اليقين. ليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا المهاجر كالطليق ولا الصريح كاللصيق ولا المحق كالمبطل ولا المؤمن كالمدغل ولبئس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم)[٣].

(فإنك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه، وبلغ فيك أمله، وجرى منك مجرى الروح والدم. ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمر الأمة، بغير قدم سابق ولا شرف باسق؟)[٤].

معاوية ـ كما عرفناه ـ وكما اعترف هو أيضاً ببعض جوانب انحرافه وخطئه، لم يكن يختلف عن الصورة التي رسمها له الإمام، بل لعل هذه الصورة هي أصدق الصور وأدقها تعبيراً ووضوحاً. وما كان الإمام متجنياً عليه بهذا الوصف، كعدو للإسلام شاخص أمامه، بل ربما كان يصف بعض الأعداء المرتقبين الذين يتمتعون بمهارات متشابهة ويؤثرون في الناس، والذين قد يظهرون في كل زمان ومكان. وعلينا أن نستعد لهم ونواجههم، وهم يلبسون أثواب معاوية ويسترون بما تستر به.

(١) نفس المصدر ٥٧٢ (ومروج الذهب ١٧) و ٥٢٦.
(٢) نفس المصدر ٥٤٦ (ومروج الذهب ١٧) و ٥٢٦.
(٣) نفس المصدر ٥٤٧ (ومروج الذهب ١٧) و ٥٢٦.
(٤) نفس المصدر ٥٣٣ (ومروج الذهب ١٧) و ٥٢٦.

مواصفات معاوية كانت ستبرز في كل فرعون وطاغوت من فراعنة وطواغيت هذه الأمة، الذين يدعون الغيرة على الإسلام والوصاية على المسلمين.

وعندما تصدى الإمام عليه السلام لاستئصال فرعون محتمل كمعاوية ومنعه من الوثوب إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وخلافته، ورسم لنا صورته ووضعها أمامنا، فإنه طلب منا أن نستعد لفراعنة زماننا المحتملين الذين سيظهرون لنا كما ظهر معاوية بالشام، ثم استولى على كل بلاد الدولة الإسلامية، لنمنع ظهوره متى ما رأينا أول بوادر غدره وعبثه وألاعيبه وغدره وسياسته).

«أول من يغير سنتي رجل من بني أمية»

ورحم الله أبا ذر، فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «أول من يغير سنتي رجل من بني أمية»[١].

ومن عسى أن يكون هذا غير معاوية، الذي استغل الانحراف الواقع في عهد سلفه من بني أمية أيضاً، ليقوم بأكبر عملية تزوير وتشويه للإسلام مستهدفاً القضاء عليه ومحوه من الوجود. فقد ابتلي به الإسلام وابتلي به الإمام والناس الذين عاشوا في عهد الإمام.

غير أن مهمة معاوية ما كان لها أن تنجح إلى الأبد ومع الأمة كلها، فالإمام رغم ما لاقاه من مصاعب قد نجح بلفت نظرها إلى ما انزلق إليه من تأثروا بمعاوية، وجعلها تدرك حتى بعد رحيله عليه السلام أنها إذا ما كانت في مرحلة من مراحل حياتها قد تنازلت وضعفت واستسلمت لبعض الطواغيت أمثال معاوية وأضرابه من بني أمية أو بني العباس أو غيرهم، فإنها لم تمت ولم نفقد كل قوتها، وإن جذوة الإسلام وصحوة الإسلام لا تزال تنير طريقها وقد تحفزها للنهوض ومواصلة نفس المسيرة التي سارها صحب رسول الله صلى الله عليه وآله.

وحتى هذا الحديث يتأوله البعض، فيقولون إنه بحق يزيد. ونقول: بأنه حتى لو كان بحق يزيد، فمن الذي أوجد يزيد ومهد له وأقام عرشه وبنيانه؟ وبم كان يفرق يزيد عن معاوية؟ سوى أنه طائش نزق لم يتورع عن إظهار ما حاول معاوية إخفاءه؟ أليست دولة يزيد امتداداً لدولة معاوية؟ أليست وليداً لها ونسخة منها؟.

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ٨-٢٣٤.

معاوية: الإعداد لدين جديد

في مقابل رأي الأمة الحقيقي بمعاوية، والذي عبر عنه الإمام عليه السلام بصراحة ووضوح، والذي لم تختلف عليه في مختلف أقطارها وأمصارها، اللهم إلا في الشام وحواليها، طرح معاوية الأحاديث التي لفقها له محدثوا الدولة وفقهاؤها والصحابة المزورون، وذكروا فيها عن رسول الله صلى الله عليه وآله فضائل لمعاوية ما كانت لتتاح للرسول صلى الله عليه وآله نفسه.

لقد أصبحت وسائل الإعلام بيده في النهاية، كما أصبح كل شيء كذلك بيده، فما الذي يمنعه من تحسين صورته في أعين المسلمين، بل ما الذي يمنعه من محاولة محو الصورة السابقة وإلصاق صور جديدة تطالعهم كل يوم، يرون فيها عاهلهم المبجل الأثير القريب من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن الله تعالى نفسه. وقد عمل على هواه ـ على تهديم الشريعة وتشويه صورتها بتفويض إلهي مطلق ادعاه لنفسه باسم الإسلام، ما كان ليتاح للفراعنة القدماء السذج الذين لم يبلغوا ما بلغه من دهاء ولم يلجأوا إلا إلى الأساليب المباشرة في الظلم والجور.

فقدت الأمة هويتها الإسلامية عندما استسلمت لمعاوية

كان من الطبيعي، بعد أن استسلمت الأمة لهذا النمط من الحكام، أن تفقد هويتها وكيانها كأمة إسلامية، وتظهر بشكل آخر مرقع لا يتمتع بأي قدر من الأصالة أو وحدة الشكل ولا بأية قدرة على الديمومة والبقاء والاستمرار. إذ أن مهمة هذا النمط من الحكام تحويل الأمة عن مسيرتها، ومسخ رسالتها وتغييرها بل ومحوها ليتسنى لهم تحقيق أطماعهم وطموحاتهم الشخصية. وإذ لا يعلن هؤلاء عن أغراضهم صراحة ويخفوا مخططاتهم وراء أعذار وأسباب وهمية، فإنما لكي يساعدهم ذلك على تمرير هذه المخططات على الأمة وتنفيذها بيسر وسهولة. فالإعلان الصريح لا بد أن يحمل في طياته استفزازاً مباشراً للأمة، لن يستطيعوا معه استدراجها إلى ألاعيبهم التي لا يقصدون منها سوى تكريس منافعهم وتحويل أبنائها إلى عبيد مستضعفين لا يرون أمامهم دون الله إلا أسيادهم الحاليين، وإلا تنفيذ رغباتهم ونزواتهم.

لذلك فإن توقعات الرسول الكريم صلى الله عليه وآله كانت حقيقة، عندما رأى ببصيرته الثاقبة الأمة وقد تخلت عن رسالتها بعد ذلك، أمة ضعيفة، مهملة، لا تعرف من الإسلام إلا

اسمه ومن القرآن إلا رسمه، ولا تهتم إلا ببعض المظاهر التي تقنع بها نفسها على أساس أنها أمة إسلامية ولا يعود الدين يعني لديها إلا شعائر وطقوس ألفتها بحكم العادة.

وقد أخبرنا أبو سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غَيّاً. ثم يكون خلف يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر)[١].

وقال ﷺ للإمام عليه السلام: (يا علي إن القوم سيفتنون بأموالهم، ويمنّون بدينهم على ربهم، ويتمنون رحمته ويأمنون سطوته، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية، فيستحلون الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع)[٢].

وجاءت تصورات الإمام عليه السلام عن انهيار الأمة في ظل أنظمة يتحكم فيها طواغيت حاذقون مهرة (دهاة) أمثال معاوية، مطابقة لتصورات الرسول الكريم ﷺ.

لا بد للمقدمات من نتائج

فلا بد أن النتائج لها مقدمات، وهذه المقدمات برزت متمثلة بتلك الشرائح الطفيلية الملتصقة بالإسلام ظلماً وكذباً، ولبست رداءه، وحاولت سلب هذا الرداء في النهاية بعد أن ادعت أنها المالكة الحقيقية له، لذلك فإنه ليس رجماً بالغيب أن يتوصل امرؤ كعلي عليه السلام الذي يمتلك بصيرة واعية وعلماً واسعاً وحساً مرهفاً، هو حس الإسلام ذاته، ويمتلك شعوراً بالمسؤولية لا يتفوق عليه إلا الشعور الذي امتلكه رسول الله ﷺ، إلى قراءة المستقبل وكأنه ينظر إليه ويشاهده عياناً ويشخِّص البدايات التي ستشكل نقاط الشروع لهذا الانحراف الواسع المرتقب، بعد أن مهدت له انحرافات غير ملحوظة في بداية الأمر.

وتصدى لمراكز المسؤولية من ينبغي أن يكونوا أبعد الناس عنها، وهو أمر رأى الإمام عليه السلام أنه خطير جداً ولا يدعو للارتياح، إذ أن معنى ذلك أن يجر هؤلاء الناس إلى ممارساتهم اللامبالية وعبثهم وبعدهم عن الإسلام خصوصاً وأن سوابقهم معروفة لدى الأمة، وإذا ما قبلتهم حكاماً عليها، فإن ذلك ليس له إلا معنى واحد، وهو

(١) ابن كثير -٢٣٣.
(٢) نهج البلاغة -٣٣٧.

تخليها عن رسالتها (ولكنني آسي أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً والفاسقين حزباً، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حياً في الإسلام، وأن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ)[1].

الشام: نقطة الشروع لتعزيز الانحراف

لقد رأى أن الشام ستكون هي نقطة الشروع بالانحراف الواسع، بل أن الشام قد بدأت تكون كذلك، فلا عجب إن راح الإمام يشخص الحالة المرضية التي وقعوا فيها، وجعلتهم بعيدين عن الإسلام، وذلك بفعل العوامل المتعددة التي ذكرنا قسماً منها في هذا الفصل، ومنها رؤية أهل الشام للإسلام بالعين الأموية التي لم ترد للإسلام أن يعرف إلا من خلال مصالحها ووفق (اجتهاداتها) هي، ولبعد الشام النسبي عن حاضرة الإسلام الأولى في عهد رسول الله ﷺ وعدم دخولها في الإسلام إلا في وقت متأخر، مع أن ذلك تم من خلال يزيد بن أبي سفيان الذي استلم معاوية منه قيادة الشام فيما بعد، بعيد وفاته. وعدم متابعة الشام أو عاملها معاوية متابعة حقيقية من قبل الخلفاء الذين سبقوه، مما مكنه من الاستئثار بها واستخلاصها لنفسه خاصة، ساعده على ذلك وقوع بعض الأحداث والفتن التي كان هو الممهد للعديد منها وطرفاً رئيسياً فيها في عهد عثمان وفي عهد الإمام عليه السلام.

قريش والأحزاب

وكان الإمام عليه السلام يرى لزاماً عليه بعد أن شخَّص أسباب الانحراف وبوادره أن يوقفه منذ البداية وقبل استفحاله، وهكذا سعى في عهد عثمان لمنعه من تولية العمال الفاسدين أمثال معاوية، والذين كانوا سبباً لنقمة الأمة على عثمان وثورتها عليه.

وفي بداية مبايعة الإمام عليه السلام بالخلافة، كان أول ما فعله هو إعلانه عزل هؤلاء العمال وفي مقدمتهم معاوية نفسه، وقد رأينا الأسباب العديدة التي دعته إلى ذلك وتكلمنا عنها بإسهاب في غضون هذا الكتاب. وقد أراد الإمام أن يزيل السبب المباشر للانحراف ويمحو تلك النقطة السوداء منذ البداية ويواجه مسيرتها المنحرفة بمسيرة مضادة صحيحة، هي مسيرة الإسلام ممثلًا بقيادته وبالطليعة من حبذه الذين عمل على

---

(١) نفس المصدر.

إعدادهم وتربيتهم منذ البداية ومنذ انتقاله من المدينة حيث الأحزاب وقريش وحقدها عليه وعلى آله، بل وآل هاشم على العموم. وكان الإمام يدرك سبب ذلك تمام الادراك ويعايشه معايشة حقيقية، وهو يرى قريشاً تدب حوله بالشر والكره والقطيعة والتحزب. وقد قال فيما قاله عنهم: (ما لي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين، وإني لصاحبهم بالأمس، كما أنا صاحبهم اليوم، والله ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيزنا)[1].

وقد قال لعقيل أخيه بشأنهم (فدع عنك قريشاً وتركاضهم في الضلال وتجوالهم في الشقاق وجماحهم في التيه، فإنهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله ﷺ، فجزت قريشاً عني الجوازي، فقد قطعوا رحمي وسلبوني سلطان ابنِ أمي)[2].

وقال عنهم: (اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم قد قطعوا رحمي، وأكفأوا إنائي وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري، وقالوا: لا، إن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تمنعه، فاصبر مغموماً أو مت متأسفاً. . .)[3].

لقد كانت قريش أقرب إلى معاوية من علي، وقد اختارت أن تقف إلى جانبه في النهاية في حربه الظالمة ضد الإمام، للأسباب التي ذكرها الإمام عليه السلام والتي عرفناها من خلال تتبعنا لحوادث التاريخ الإسلامي في مطلع الرسالة. وأصبح القرشي بتحيزه إلى معاوية كالشامي الذي يتحدر بأصوله من أولئك الذين رباهم معاوية على حبه والميل إليه وتبني مواقفه.

وقد رأينا أن معاوية أيضاً قد ركز على عداوته لأهل العراق منذ البداية، كأعداء محتملين في المستقبل، وأعداء حاليين فعلاً، بدأت بوادر عداوتهم له فعلًا بمسيرهم خلف الإمام وتحت قيادته. ولعل حملته على الإمام لم ترافقها حملة شرسة أخرى بلغت تلك التي شنها على أهل العراق، وقد استمر موقفه من العراقيين حتى بعد وفاة الإمام عليه السلام ووقوع العراق في قبضته، واستمرت النظرة المعادية للعراقيين حتى بعد وفاة معاوية نفسه وخلال فترة الحكم الأموي برمته.

---

(١) نهج البلاغة ١٣٥.

(٢) نهج البلاغة ٥٧٦.

(٣) نهج البلاغة ٤٨٠.

أما الإمام، فقد كان يريد بتقريعه العراقيين ولومه أيامهم وشجب بعض أنماط سلوكهم وتحريضهم على عدوهم، وهم غالبية جنده، أن يزرع فيهم حالة متقدمة من الوعي والنقد الذاتي لأنفسهم، بعد أن أراهم من هو عدوهم الحقيقي، وكيف خرق الإسلام وتجاوز عليه وخرج عليه خروجاً سافراً.

لقد أراد تربيتهم، وإعداد طلائع جديدة منهم تتولى إكمال المسيرة خلف الأئمة من آله فيما بعد على خطه. وكان معاوية يعرف أنهم العدو المرتقب والمتوقع، ويعرف أنهم ـ على علاتهم ومع وجود عناصر ضعيفة ومتآمرة، ومع وجود عوامل النقص بمجتمعهم الواعي المتسائل المتحفز الحذر المتقلب ذي الانتماءات القبلية الواضحة، سيستقرون في النهاية ويقررون الجهة التي سيتعاونون معها ويحاربون تحت لوائها، ولا شك أنها ستكون جهة علي وآله عليهم السلام في النهاية.

أهل الشام. كيف وصفهم الإمام عليه السلام

بعد أن وصف الإمام عليه السلام معاوية ذاك الوصف الدقيق، ووصف حال أهل الشام، أيضاً، وهم (الخميرة) التي كونها معاوية وحاول زرعها في جسم الأمة الإسلامية لتكون هذه الأمة كلها على غرارها فيما بعد، وكما أوضحنا فإن الإمام لم ينطلق في وصفهم من كره خاص لهم وإنما لتقويم حالهم.

فأهل الشام كما وصفهم الإمام (العمي القلوب الصم الأسماع الكمه الأبصار، الذين يلتمسون الحق بالباطل ويطيعون المخلوق في معصية الخالق، ويحتلبون الدنيا درها بالدين ويشترون عاجلها بآجل الأبرار والمتقين)[1].

(فهات رجلاً من أهل الشام يقبل في الشورى أو تحل له الخلافة)[2].

وكتب إلى معاوية بشأنهم وبشأن من انحرف معهم: (وأرديت جيلاً من الناس كثيراً، خدعتهم بغيك، وألقيتهم في موج بحرك، تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجازوا عن وجهتهم، ونكصوا على أعقابهم، وتولوا على أدبارهم، وعولوا على أحسابهم)[3].

---

(١) نهج البلاغة ٥٧٣.

(٢) العقد الفريد ٥-٧٧.

(٣) نهج البلاغة ٥٧٢-٥٣٣-٥٠٧-١٥٦.

(وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة)[1].

(جفاة طغام، وعبيد أقزام، جمعوا من كل أوب، وتلقطوا من كل شوب، ممن ينبغي أن يُفَقَه ويؤدب ويُعلم ويُدرب ويُولّى عليه ويُؤخذ على يديه، ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا من الذين تبوأوا الدار. ألا وأن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما تكرهون)[2].

وقد بين عليه السلام سبب نجاح معاوية معهم وتمكنه منهم. (طبيب دوّار بطبه، قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عميٍّ، وآذان صم، وألسنةٍ بكم متتبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة، لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة، فهم في ذلك كالأنعام السائمة، والصخور القاسية)[3].

معالم الفتن

«إن أخوف الفتن عليكم فتنة بني أمية»

وعندما يصف الإمام الحال التي ستؤول إليها الأمة بعد أن تتخلى عن مسؤوليتها بفعل القيادة الخارجة عن الإسلام، وبفعل مثابرة معاوية لإيصالها إلى ذلك، فإنه يصف حالة كل مجتمع إسلامي يتخلى عن الإسلام ويترامى في وهدة الكسل والركود والتواكل التي تسيطر نتيجة ارتكاب كل ما ينهى عنه الإسلام وتبني قيم وممارسات غريبة عنه، لتصبح هي القيم والممارسات السائدة والمسيطرة.

وقد كان المجتمع الإسلامي برمته مهدداً بانتشار هذه الحالة التي لم تكن قليلة الانتشار على أي حال، لذلك فإن الإمام عندما شخصها هنا، فإنه لم يكن بموقف المحاسب المقرع، وإنما بموقف المحذر المنبه الذي رأى أمامه خطراً داهماً، فحاول أن يجنب الأمة كلها هذا الخطر.

(واعلموا ـ رحمكم الله ـ إنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطلحون على

---

(١) نهج البلاغة ٥٧٢-٥٣٣-٥٠٧-١٥٦.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.

الأدهان فتاهم عارم وشائبهم آثم، وعالمهم منافق، وقارئهم مماذق. لا يعظم صغيرهم كبيرهم ولا يعول غنيهم فقيرهم)(١).

فهذا الذي يتحدث عنه الإمام حال خطرة من شأنها أن تكون سبباً للقضاء على هذا الدين وإزالته عملياً من على ساحة الحياة وإن كانت بعض مظاهره لا زالت تلوح هنا وهناك. فكيف لو استمرت هذه الحال. وكيف لو استتبت الأمور لمعاوية وأشباهه ونجح في مسعاه دون معارضة ودون أن يجد أحداً يلفت نظر الأمة إلى انحرافه وخطره. وهذا الخطر هو ما كان الإمام عليه السلام يحذر الأمة منه دائماً بكل وضوح وجلاء. (ألا أن أخوف الفتن عليكم فتنة بني أمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة، عمت خطتها، وحضت بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ البلاء من عمي عنها. وأيم الله لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي كالناب الضروس لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم أو غير ضائر بهم. ولا يزال بلاؤهم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلّا كانتصار العبد من ربه والصاحب من مستصحبه. ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية وقطعاً جاهلية ليس فيها منار هدى ولا علم يرى. نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة)(٢).

بصيرة وعلم: تشخيص حال الأمة في ظل الأمويين

لقد شخص الإمام حال الأمة تشخيصاً دقيقاً، ورأى بعين بصيرته الثاقبة الحال التي ستكون عليها في ظل بني أمية، هؤلاء الذين أرادوا أن يتجاوزا على ربهم الحق، ويكونوا أرباب سوء، لا يتركون أحداً يعيش إلا في ظلهم ولا يستنشق إلا الهواء الذي يلفظوه. فمن لم يكن معهم فهو عليهم. وكانت الفتنة التي طلع بها بنو أمية على المسلمين فتنة سوداء شوهاء جاهلية، لا حكم فيها إلا لهوى ومصالح الأقلية الحاكمة التي استأثرت بكل شيء وتسلطت على الرقاب وحكمت حكماً كيفياً لم تراع فيه حداً من حدود الله، ولم تحكم فيه الإسلام من قريب أو بعيد. فنظرتها أرضية متدنية بحتة لا تتطلع إلى السماء أبداً ولا تستلهم قيمها بأية حال من الأحوال.

وكما رأى الإمام عليه السلام النتيجة التي آل إليها حال أهل الشام في ظل معاوية، مع أنه لم يكن (رسمياً) مطلق اليد وليس سوى عامل لمن سبقه من الخلفاء، فإنه رأى

---

(١) و(٢) نهج البلاغة ٣٠٥-٢٣٥.

حال الأمة كلها فيما بعد إذا ما انفردت هذه العائلة بالحكم وسيطرت عليه سيطرة تامة. هذه العائلة (الطموحة) (الجريئة) على الله ورسوله جرأة كبيرة لا يحدها وازع من خوف من نار أو طمع في جنة، وإذا ما أطلقت يد أبنائها بمقدرات الأمة واستأثروا بالخلافة) وامتلكوها نهائياً.

وقد شخص الإمام الحال التي سيصير إليها المجتمع الإسلامي بأكمله، بعد أن رأى بدايات ذلك وهو لا يزال على قيد الحياة. وقد كان الحال فيما بعد ـ فعلًا ـ كما صوره الإمام وشخّصه، فلقد كان علمه (تعلّم من ذي علم، علمه الله نبيّه فعلمنيه ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي)[1] كما عبر عن ذلك بنفسه عليه السلام عندما قال له بعض أصحابه بأنه أعطي علم الغيب، فنفى ذلك، إلا أنه أشار إلى السبب الذي جعله يمتلك ذلك العلم الغزير الذي لم يملكه أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعن ذلك قال عليه السلام أيضاً: (والله ما أسمعهم الرسول شيئاً إلا وها أنا ذا اليوم مسمعكموه وما أسماعكم اليوم بدون أسماعهم بالأمس)[2].

سنن إلهية: ظلم الراعي والرعية يهلك الحرث والنسل

ومن هذا العلم، وبهذه البصيرة والوعي، شخّص عليه السلام طبيعة السنن الإلهية ووعاها.. السنن التي تتحكم بطبيعة المجتمع وتركيبه وفق المسيرة التي يسيرها أبناؤه، قرباً أو بعداً عن الإسلام. ووفق مبدأ العدالة والاستقامة المبنيّين على المنهج الإسلامي الصحيح لا على منهج مزور يدعي الإسلام. والقواعد التي يضعها الإمام لضمان استقامة المجتمع وتوازنه وديمومته وحيويته مبنية على نفس القواعد التي يضعها القرآن الكريم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وإذا ما نظرنا إلى جميعها، نرى وحدة في التصور والوصف. وقد رأينا حال المجتمعات التي خالفت رسلها ووقفت ضد رسالات السماء، وكيف أنها ارتفعت عندما اقتربت من تلك الرسالات وهوت عندما حاربتها وزورتها ووقفت ضدها. وتكاد تشخيصات الإمام عليه السلام تكون من الأمور البديهية التي يقرها كل إنسان، غير أن الذين لا يسلمون بصحتها ويغمضون أعينهم عنها، يناقشون بنفس المنطق الذي ناقش به من أصر على الانحراف عنها وإنكارها؛ بنفس منطق الطواغيت الذي يدعي الواقعية والحرص على وحدة الأمة التي

---

(١) و(٢) نهج البلاغة -٢٩٨-٢٠٩.

يحكمها كل واحد منهم، وتحقيق أكبر قدر من المنافع لها. مع أننا لا نستثني طاغية واحداً عمل على تحقيق ما ادّعاه. ولا نجد من حقق منهم لأمته ما دعا إليه بأقواله. فمن من الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والهراقلة حقق لأمته السعادة والعدل في ظل قانون عادل لم يضعه هو؟.

قال عليه السلام واصفاً دولتي العدل والظلم، وما الذي يبقي الأولى وينهي الثانية: (فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عن الحق بينهم، وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل وجرت على إذلالها السنن، فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء. وإذا غلبت الرعية واليها وأجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور وكثر الأدغال في الدين وتركت محاج السنن، فعمل بالهوى وعطلت الأحكام، وكثرت على النفوس، فلا يستوحش بعظيم حق عطل ولا لعظيم باطل فعل. فهنالك تذل الأبرار وتعزُّ الأشرار وتعظم تبعات الله عند العباد. فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون عليه)[1].

إنه عليه السلام يدعو الوالي ورعيته إلى تجنب مواقف الصراع، ومتى تبرز هذه المواقف؟ عندما لا ينتمي الوالي إلى رعيته، وعندما تشعر هذه أنه ليس منها وأنه يريد امتصاص دمائها. إن حالة من الحرب والمنافسة على مختلف الجبهات تدور بينهما، حرب قد تكون خفية غير معلنة، لكنها قائمة، تبدو بعض مظاهرها من خلال ممارسات عديدة.

وقد أوضح عليه السلام حق الراعي وحق الرعية في مواضع أخرى من كلامه وضع فيها منهاجاً مفصلًا لحكومة عادلة قائمة على أساس الإسلام، تحمل معها عوامل ديمومتها وبقائها ونجاحها.

كيف يرى الإمام عليه السلام الأمة في ظل معاوية

فكيف رأى الإمام عليه السلام المجتمع الإسلامي بعده، في ظل حكومات يتزعمها معاوية وأشباهه من السلالة الأموية المتفرعنة التي اغتصبت كرسي الخلافة ووثبت على مركز السلطة. كيف رأى (الخليفة)، وكيف رأى الأمة في ظل هذا (الخليفة).

(١) نفس المصدر ٤٧٧.

(أما أنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد فاقتلوه، ولن تقتلوه. إلا وأنه سيأمركم بسبي وبالبراءة مني، فأما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرأوا مني، فإني ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة)(١).

وكان (الخليفة الجديد) يسعى حقاً لتشويه صورة الخلافة الحقة، كما نزل بها القرآن الكريم وأوصى بها الرسول ﷺ. فكان واجب الأمة حيال انحرافه أن لا تدعه على منبر الخلافة بل وأن تقتله. غير أنها إذ ضعفت واستسلمت فإنها لن تتمكن من إكمال هذه المهمة، وسيمضي هو إلى النهاية في انحرافه، وربما كان هذا ما عناه أمير المؤمنين عليه السلام، فاقتلوه، ولن تقتلوه. حدد واجب الأمة وعلم أنها لن تكون قادرة على تنفيذ هذا الواجب.

كان سعي معاوية لتشويه صورة الخلافة، يتمثل في جانب منه تشويه صورة الخليفة الحقيقي أمير المؤمنين عليه السلام، وقد جعل هذه مهمة أساسية له، إذ ماذا يمكن أن يقول للأمة إذا ما حاسبته أو تساءلت على الأقل: لماذا إعلان الحرب على علي عليه السلام وهو من هو، والأمة كلها تعرفه وتعرف مناقبه؟ غير أنه إذا ما جند جيشاً من المرتزقة من الذين يمتهنون الحديث والتفسير ويدَّعون صحبة رسول الله ﷺ لطمس تلك المناقب، فإن مهمته تبدو يسيرة بنظره. وكانت مهمة معاوية مزدوجة، تشويه صورة أمير المؤمنين عليه السلام وصورة الإسلام على السواء. وكما حاول أن يبين أنه أصلح للأمة من علي عليه السلام، فإنه حاول أن يبين أن نهجه أصلح من نهج الإسلام وأفضل للأمة، وأنه النهج العملي الذي سوف يصمد إلى الأبد مقابل ذلك النهج الذي لم تشهده الأمة وتعيشه إلا في حياة رسول الله ﷺ وحياة أمير المؤمنين عليه السلام ثم ابتعدت عنه بتأثير التيارات والأحزاب والقوى المتصارعة الطامعة من قريش وغيرها التي برزت على الساحة بُعيد رحيل رسول الله ﷺ.

يعرف علياً ومع ذلك يأمر بسبّه والنيل منه

لم يكن معاوية يجهل من هو علي عليه السلام ولم يكن يجهل منزلته ومقامه من رسول الله ﷺ ومن المسلمين، وكان يعلم أنه إذ يسب علياً من على منابر المسلمين،

(١) نهج البلاغة ١٥٩.

فإنه إنما يسب الله ورسوله، كما أخبرته بذلك أم سلمة زوج الرسول ﷺ في كتاب وجهته إليه بعد استنفاره جيوش السبابين لتقوم بمهمتها رسمياً بظل وتحت حماية الدولة ورعايتها (إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم، وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبَّه، وإني أشهد أن الله أحبه ورسوله)[1].

وإذ علم الإمام عليه السلام أن معاوية سيتصدى بكل أساليب القمع المعروفة لمن يمتنعون عن سبه، فإنه أراد حقن دمائهم وضمان سلامتهم ونجاتهم، عندما دعاهم إلى الاستجابة إلى ذلك متى ما أكرهوا، لكنه دعاهم إلى التمسك بنهجه الذي هو نهج رسول الله ﷺ نفسه ونهج الإسلام وعدم البراءة منه لأنهم بذلك يتخلون عن الإسلام نفسه وفي ذلك ما فيه من خروج متعمد وردة واضحة أراد أن يجنب المسلمين مغبتها. فقد ولد على الفطرة مسلماً فلم يسجد لصنم حجري أو بشري ولم ينحني لغير الله أو يعلن خضوعه لغيره، وقد سبق إلى الإيمان والهجرة، وظل على نفس قوة تمسكه بالإسلام وارتباطه به.

أهل بيت النبي ﷺ: ضمانة لعدم انحراف الأمة

لقد أراد أن يشخص أمام الأمة ـ حتى بعد رحيله، رمزاً للاستقامة ومقاتلًا يحمي الإسلام بسيفه وروحه، ومحبا شغوفاً برسول الله ﷺ، متفانياً في ذات الله. أن نتمسك به ليتجسد لنا مثالًا حياً واقعاً للمسلم الذي يدرك مسؤولياته ويتصرف على أساس هذه المسؤوليات وعلى أساس الفهم الواعي الصحيح للإسلام. كما أرادنا أن نسير على آثار آله في المستقبل من بعده، فمنهجهم هو منهجه نفسه. وإن بدا في الظاهر نوع من الاختلاف الظاهري في بعض طرق الأداء مما سنتكلم عنه في حينه ونوضح وحدة الموقف لجميع الأئمة عليهم السلام وتطابقه مع موقف الرسول ﷺ نفسه وموقف أمير المؤمنين عليه السلام.

وهكذا دعا إلى التمسك بآل بيت النبي ﷺ وأشار بذلك إلى أن المسلمين إذا ما التزموا بنهجهم، فإنهم بذلك يسلكون الطريق الوحيد الصحيح الذي يضمن سلامتهم وعدم انحرافهم أو وقوعهم في مهاوي الضلالة. (انظروا أهل بيت نبيكم، فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا

(١) العقد الفريد ٥-١٠٨.

فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا. لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فما أرى أحداً يشبههم)[١] فهم الضمانة الوحيدة لإيصال الأمة إلى خط الإسلام الصحيح وانتهاجه. فكأنه عليه السلام هنا يعد الأمة لفهم دور الأئمة عليهم السلام فيما بعد، ويشير إلى أن هذا الدور قد يختلف من حيث المظهر تبعاً للظروف والأحداث التي تمر بها الأمة، غير أنه لا يختلف في المضمون أو الجوهر لأنه يستهدف غاية واحدة، وهي الأخذ بيد هذه الأمة وقيادتها في كل ظرف. إنه يدعوها لفهم موقف كل إمام وعدم تفسيره كما يهوى أعداؤهم الذين هم أعداؤها وعليها اتخاذ مواقفها تبعاً لهذا الفهم. وسوف ترى عند ذاك إلى أين ينوي الأعداء جرها، وإلى أين يقودها هؤلاء الأئمة الذين لا يشبههم أحد حتى من الصحابة أنفسهم الذين عرفهم الإمام عليه السلام وعاش معهم.

كيف يرى الإمام عليه السلام المجتمع الإسلامي في ظل حكام الانحراف

ونعود إلى تصور الإمام عليه السلام للمجتمع الإسلامي بعده، وفي ظل نظام منحرف كالنظام الأموي.

(والله لا يزالون، حتى لا يدعوا لله محرّماً إلا استحلوه ولا عقداً إلا أحلوه، وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله ظلمهم ونبا به سوء وعيهم، وحتى يقوم الباكيان يبكيان. باك يبكي لدينه، وباك يبكي لدنياه، وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه، وحتى أعظمكم فيها غناء أحسنكم بالله ظناً)[٢].

(فعند ذلك أخذ الباطل مآخذه، وركب الجهل مراكبه، وعظمت الطاغية، وقلت الداعية، وصال الدهر صيال السبع العقور، وهدر فنيق الباطل بعد كظومه، وتواخى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدين وتحابوا على الكذب وتباغضوا على الصدق. فإذا كان ذلك كان الولد غيظاً والمطر قيظاً وتفيض اللئام فيضاً، وتغيض الكرام غيضاً، وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً وسلاطينه سباعاً وأوساطه أكّالاً وفقراؤه

---

(١) نهج البلاغة ٢٤٠.

(٢) نهج البلاغة ٢٤١-٢٤٢-٢٥٩-٧٦٥-١٤٥-٥٦٥-٧٤٤.

أمواتاً، وغار الصدق، وفاض الكذب واستعملت المودة باللسان وتشاجر الناس بالقلوب وصار الفسوق نسباً والعفاف عجباً، ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً)[1].

(يأتي على الناس زمان عضوض، يعض الموسر فيه على ما في يديه ولم يؤمر بذلك. قال الله سبحانه ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[2] تنهد فيه الأشرار وتستذل الأخيار ويبايع المضطرون، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن بيع المضطرين)[3].

(أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة)[4].

(وإياك أن تغتر بما ترى من اخلاد أهل الدنيا إليها وتكالبهم عليها، فقد نبأك الله عنها ونعت لك نفسها وتكشفت لك عن مساويها، فإنما أهلها كلاب عاوية وسباع ضارية يهر بعضها بعضاً ويأكل عزيزها ذليلها ويقهر كبيرها صغيرها. نَعَمٌ معقَّلة وأخرى مهملة، قد أضلت عقولها وركبت مجهولها، سروح عاهةٍ بواد وعثٍ ليس لها راع يقيمها ولا مقيم يسميها. سلكت بهم الدنيا طريق العمى وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى، فتاهوا في حيرتها وغرقوا في نعمتها واتخذوها ربّا، فلعبت بهم ولعبوا بها ونسوا ما وراءها)[5].

(يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من القرآن إلا رسمه ومن الإسلام إلا اسمه، مساجدهم يومئذٍ عامرة من البنى ، خراب من الهدى، سكانها وعمارها شر أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة وإليهم تأوي الخطيئة، يردون من شذ عنها فيها، ويسوقون من تأخر عنها إليها)[6].

لقد رأى الإمام عليه السلام المقدمات، فرأى النتائج.

رأى طبقة جديدة مترفة تظهر على حساب الأغلبية من الشعب المسلم. في (دولة الإسلام) نفسها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله رأى تمييزاً في العطاء أخذ يتسع حتى أصبح

---

(١) نفس المصدر.
(٢) البقرة ٢٣٧.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.
(٥) نفس المصدر.
(٦) نفس المصدر.

مرهوناً برغبة الخليفة ومزاجه. وذلك ما بدا واضحاً لجميع الأمة في عهد عثمان. ولم يكن لهذه الطبقة من سابقة أو تميز سوى علاقتها الحميمة بالخليفة.

ولو أن هذه الطبقة الثرية المترفة عوملت على أساس سابقتها في الإسلام أو عطائها في سبيله وخدمتها له، لما وضعت إلا في آخر السلم، ولما وجدت من أبناء الأمة من يمنحها ثقته. إلا أنها ظهرت فعلًا رغم قناعة الأمة بالإسلام ومحبتها لرسول الإسلام ﷺ ورغم تسلحها بكم هائل من مبادئه وقيمه. فكيف وقد بعد العهد برسول الله ﷺ وظهرت أجيال جديدة أخذت تتلقاه عن الآباء، وبدأت تظهر بينهم قيم جديدة ومفاهيم جديدة وآراء وأفكار جديدة، أجيال أخذت تؤثر فيها الأحزاب والعصبيات والمطامع والعداوات؟.

ونظرة سريعة على تاريخنا ترينا أن الانحراف قد بدأ بزاوية لا تكاد تلحظ، إلا أنه اتسع فيما بعد وصعب إيقافه، وتورطت الأمة كلها مع مسببيه الذين أخذوا يتكاثرون ويزدادون سلطة وثراء.

الترف مقدمة للظلم والكفر

مجتمع الترف مقدمة لمجتمع الظلم والكفر. واستعدادات الفسق والخروج المتعمد على المجتمع المسلم تكون لدى المترفين أولًا. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك إشارات عديدة بيّن فيها بوضوح أن المترفين يكونون دائماً في مقدمة المتصدين والمعارضين لأي إصلاح في الأمة، وأنهم في مقدمة الذين يسعون في خراب الأرض منطلقين في حرصهم على مصالحهم ورفاههم. كما أنهم في مقدمة الكافرين بالرسالات السماوية وأول المكذبين بها. إنهم بلهاثم وجريهم خلف ترفهم ومصالحهم ينهجون منهج الظلم، وقد يبررون هذا الظلم بأنهم إنما ينهجون منهج الآباء (الذين تلقوا عنهم كل شيء ولا بد أنهم أكثر حكمة وفهماً ومعرفة).

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾[1].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[2].

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾[3].

---

(١) الاسراء ١٦.

(٢) سبأ ٣٤.

(٣) هود ١١٦.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1].

إن إشاعة النموذج المترف وزرعه في المجتمعات الإسلامية وبشكل مكثف في (عاصمة الخلافة) الشام كان يراد منه إشاعة الفوضى الاجتماعية وزرعها. فحياة المترفين القائمة وخروجهم على الإسلام لا ينسجم وادعاء (القيادة) إنما خير من يمثل الإسلام ويقوم على أمور المسلمين بالعدالة والقسطاس ووفق أحكام الإسلام وقوانينه وشرائعه. أنه يولد رد فعل عنيف لدى الأمة تجاه دين الله الذي يدعو إلى المساواة والاعتدال وعدم الاستهانة بالآخرين والتجاوز على حقوقهم. وترى الأمة أنها تتحمل تبعة كبيرة بسكوتها عن الأنظمة الفاسدة التي تديرها وتتلاعب بمقدراتها.

إن خلق هذا النموذج المترف المتكبر المسرف في قلب المجتمع الإسلامي بداية لتقسيم طبقي يقف على الجانب الآخر منه النموذج المستضعف الفقير المغلوب.

إنه تقسيم جديد في ظل الإسلام للقضاء على الإسلام وللعودة إلى الأنظمة الطاغوتية السابقة.

وعلى ضوء الآيات الواردة في القرآن الكريم ـ التي أكدت صحتها الوقائع التاريخية السابقة، نرى ـ كما أورد الشهيد المطهري، في طبقة المترفين والمستكبرين من الملأ لا بد أن تكون هي نفسها في النهاية طبقة الكفار والمشركين والمنافقين والفاسقين والمفسدين. إنها الطبقة الفاسدة التي تستقطب حولها كل من يعزز مركزها وسلطتها وتستعبد الطبقة الواسعة التي تقف قبالتها وتحاول تسخيرها لتحقيق كل أطماعها وأهدافها (إن الكافرين والمشركين والمنافقين والفاسقين هم الملأ والمستكبرون والمسرفون والمترفون والطواغيت، لا غيرهم ولا المتشكل منهم ومن غيرهم)[2] كما (جعل المجتمع ينقسم إلى مستضعِف ومستضعَف هو الذي أوجد الكافر والمؤمن، على حد تعبير الشهيد، مما أوضحه القرآن الكريم بجلاء)، ويدل على أن مواجهة الأنبياء ومخالفيهم ومواجهة الإيمان والكفر، كان انعكاساً لمواجهة الطبقتين الاجتماعيتين ـ المستضعَفين والمستضعِفين)[3].

---

(١) المؤمنون ٣٣.

(٢) المجتمع والتاريخ ص ١٣٠-١٣١.

(٣) نفس المصدر.

ووضع طبقة كهذه في المجتمع الإسلامي كفيل بهدمه والقضاء عليه، وعلى كل المكتسبات التي حققها في ظل الإسلام.

وإذ لن يتاح للبشرية أن تشهد ديناً آخر بعد ظهور آخر الأديان وأكملها، ولن يتاح لدين آخر تصحيح المسيرة المنحرفة، فإن ما فعله الأمويون يشكل نكسة خطيرة وتراجعاً كبيراً عن الإسلام وضربة كبيرة لكل الأديان التي أنزلت على البشرية طيلة عهودها وسلباً لكل المكتسبات التي حصلت عليها واستهانة بكل الشهداء والمضحين الذين وقفوا إلى جانب الأنبياء وسخرية واضحة من هؤلاء الأنبياء وأديانهم ورفضاً سافراً للإسلام برمته واستهانة بالمرسل والرسول ﷺ على السواء. كيف يمكن أن يفسر لنا أحد ما قام به معاوية ومن جاء بعده؟ وهل أن ما قام به كان لمصلحة الإسلام حقاً؟ وهل يمكن الاستهانة بالعقل البشري إلى الحد الذي يمكن القول فيه أن (الخلفاء) الأمويين كانوا الممثلين الحقيقيين لرسول الله ﷺ والمجسدين الحقيقيين للإسلام وقيمه ومثله.

إن العقل البشري ليس بالسذاجة التي يتصورها المروجون لنمط الأموي في الحكم والحياة.. بحيث يقبل التبريرات التي يطرحها هؤلاء، لكن دعهم يقولون إن هذا النمط المغاير للإسلام هو أفضل من النمط الإسلامي، وليس هو النمط المحسن، إذ هل يمكن أن يقنع من آمن برسول الله ﷺ إن الرسالة التي أنزلت عليه كانت ناقصة، وإنها كانت بحاجة إلى أناس أمثال معاوية وأشباهه ليكملوها ويجعلوها عمليّة بعد أن كانت ناقصة؟.

وإن النمط الأموي هو أكثر عملية وفاعلية من النمط المحمدي الذي عاشت الأمة في ظله طيلة حياة الرسول ﷺ.؟.

المترفون: بداية لهلاك الأمة

(والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها. ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها

وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها. فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعم فيها الفسق، فتحللت وترهلت، فحقت عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك، وهي المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين. فوجود المترفين هو ذاته السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق، فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك.

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسنناً لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته. والله لا يأمر بالفسق، لأن الله لا يأمر بالفحشاء. ولكن وجود المترفين في ذاته، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها وسادت في طريق الانحلال، وإن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقاً. وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة)[1].

إن الذين يهونون من شأن مسألة ظهور الطبقة المترفة في المجتمع الإسلامي في وقت مبكر، لا يريدون أن يفهموا حقيقة السنن الطبيعية التي تجعل من هذه الطبقة أساساً للفساد وتحطيم المجتمع برمته. إن وجودهم وسكوت الأمة عنه مسؤولية تتحملها الأمة كلها، وتتحمل تبعاتها ونتائجها. وهو مرهون بموقفها منهم. فإذا ما سكتت دمرت تدميرها، وإذا ما وقفت بوجههم استطاعت أن تحمي نفسها من الانهيار والسقوط.

وهذه المهمة، مهمة إيقاف المترفين عند حدهم واستئصال الترف من المجتمع، كانت شيئاً أساسياً عمل رسول الله ﷺ على القيام به. وقد أدرك طبيعة مهمته المشركون المترفون المتسلطون من قريش فشنوا الحرب عليه، لأن في سيادة دينه القضاء على مصالحهم ونفوذهم، وهو ما لم يقبلوا التنازل عنه.

وقد استسلموا مرغمين أمام قوة الإسلام ونفوذ رسول الله ﷺ لدى الأمة الإسلامية التي أحبته وتفانت في مودته والاخلاص له. غير أنهم ـ وأغلبهم من قريش

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ص ٢٢١٧-٢٢١٨.

ـ تحينوا الفرص للنيل من الإسلام، وقد أرعبهم أن يستمر خط الرسول ﷺ ونمطه في العمل إلى النهاية، وعلموا أن وصيّه وخليفته متى ما استلم القيادة الفعلية، فإنه سيسير فيهم بسيرته، ولعله ـ وهو في مقتبل الشباب بعد وفاة الرسول ﷺ سيفوت الفرصة عليهم إلى الأبد، ويعد جيلًا من الأمة مشبعاً بمبادىء الرسالة الإسلامية، لا يساوم أو يضعف أو يستسلم. أو يتيح أية فرصة لظهور طبقات متنعمة مترفة على حساب الأغلبية من أبناء الإسلام.

وهكذا أزمعت قريش أن تناوىء الإمام منذ البداية، وإذ لم تجرؤ على إعلان كرهها للإمام الذي نال منها وقاتلها بشكل فريد بل وأذلها وأجبرها للانضواء تحت راية الإسلام، فإنها حشدت كل قواها لإبعاده عن مركز السلطة والنفوذ، ورأت أنها تستطيع في ظل غيره من الحكام أو الخلفاء، مهما بلغ مركزهم وحرصهم على الإسلام ـ أن تتلاعب وتجمع شتاتها وتعيد نفوذها وماضيها.

وكانت بالتأكيد أميل إلى عثمان من علي، وأميل إلى طلحة والزبير ما داما من أعدائه. وأميل إلى معاوية الذي أعاد إليها أمجادها وعزها الذي كاد أن يندثر. وكان قتالها مع معاوية ضد الإمام عليه السلام يعني تمسكها بفرصتها الأخيرة للحفاظ على مصالحها وامتيازاتها، وكانت استماتتها بنتيجة منطقية لاعتقادها، إذ لو خسرت الحرب لضاع كل شيء وفقدت نفوذها إلى الأبد.

ولو أن رسول الله ﷺ نفسه كان في موضع أمير المؤمنين عليه السلام لوجدت المبررات لقتاله والخروج عليه. فلا عجب أن نراها بعد ذلك وبعد تمكنها وامتداد طغيانها تتصدى للحسين عليه السلام ولأهل المدينة بذلك الأسلوب الدموي العنيف الذي لجأت إليه وبرره لها فيما بعد مرتزقتها من المتاجرين بالدين لأغراض الدنيا.

مجتمع طاغوتي مترف

وقد شهدنا المجتمع الإسلامي في مطلع العصر الأموي، ثم خلال ذلك العصر كله، مجتمعاً طاغوتياً، عادت الطبقة المترفة إلى نفوذها الأول فيه، وبرزت ثانية متسلحة بأسلحة جديدة ما كانت تتاح لها قبل ظهور الإسلام، وبدأت تنتشر وتتسع وتمد أيديها الاخطبوطية إلى كل مفاصل المجتمع ومرافقه، ولاحت كقوة كبيرة لا يمكن إزالتها بحركة اصلاحية أو رغبة مجردة من الأمة، بل كأمر واقع بدا أنه المسيطر والسائد، كما سيطر وساد على بقية المجتمعات الأخرى التي لم تعرف الإسلام.

لم تكن أية قوة غريبة عن الإسلام أو من خارجه تستطيع أن تحقق الدمار الذي حققه معاوية بهذا الدين. فمعاوية عمل من الداخل، وانطلق في عمله كمسلم حريص على دينه أمام أنظار المخدوعين من أهالي الشام، وكإنسان مصلح غيور أمام أنظار قريش التي هادنته ومالت إليه لأنه يحقق أحلامها القديمة في الثروة والسيادة، ولم يكن بحاجة إلى اقتحام السور من الخارج. وهذا هو الأمر المخيف بالمسألة كلها، والذي لانزال نعاني من تبعاته وآثاره. فعمله كان ولا يزال مثار خلاف بين المسلمين أنفسهم، وقد توزعوا في أمره قسمين، قسم رأى ما رآه معاوية وأتباعه من وعاظ السلاطين والمتاجرين بالقرآن والحديث والذين لا تزال جماهير كبيرة من الأمة تنخدع بهم وبضخامة أسمائهم. وقسم رأى الأمر على حقيقته، فلم ينخدع بالحجج الواهية التي برر بها معاوية سلوكه وخروجه المتعمد على الإمام وثقة الأمة المسلمة إلى طبقتين تتناقض مصالحهما وتحاول الأولى منهما وهي الطبقة المترفة الثرية المتنفذة أن تستعبد الثانية وتستغلها إلى الأبد.

لقد أعاد معاوية المجتمع إلى حالة التناقض والارتباك التي شهدتها المجتمعات الجاهلية، لا التناقض في مجال حياتي واحد وحسب، بل التناقض الشامل القائم على نظرتين مختلفتين إلى الكون والحياة، أعاد التناقضات الاجتماعية بتوسيع شقة الفرق في المستوى المعيشي وحجم الثروات الشخصية، وتقوية التيارات القبلية، واستمالة رؤساء القبائل بالأموال والقطائع، وأوجد التباساً وفهماً خاطئاً للإسلام نفسه بزرع جيش القصاصين والمحدثين والمفسرين والصحابة والوعاظ والشعراء الذين راحوا يروجون للنمط الجديد من الحكم والحياة ويروون أشياء من شأنها أن تثير تساؤلات عديدة حول طبيعة الدين الإسلامي نفسه، وجدوى وجوده كقوة منظمة فاعلة قادرة على قيادة الحياة وإدارة شؤون الناس إدارة عادلة محكمة.

لقد استبعد معاوية الإسلام كقوة حقيقية، وجعل منه مجرد قشرة خالية من اللب وغطاء لثمرة فاسدة، واستبدله بنظام ممسوخ أوجده هو ورسخه خلفاؤه من بعده.

روح ملتوية شرّيرة

إننا لا بد أن نلمح خلف روح الشر الملتوية التي تلبست معاوية روحاً يهودية شريرة أخرى. فبنفس الحماس الذي تصدى فيه آل أمية وأحلافهم للرسالة عند ظهورها وحتى قيامها واستوائها، تصدى اليهود للرسالة أيضاً وشنوا على الرسول ﷺ حرباً ضارية، لا تقل عن تلك التي شنتها قريش وتزعمها أبو سفيان وأضرابه.

ولا بد أن تكون وحدة المصالح بين الطرفين المعاديين للإسلام، عاملًا على جمعهما والتقائهما وأن هذا العامل هو الثراء والتجارة والمهارة فيها، فأبو سفيان وآل أمية التجار، لا بُدّ وأنهم كانوا على تماس كبير باليهود التجار أيضاً. ابحث عن اليهود وستجد أصابعهم في كل شيء وتجد وراء كل حادث وكل مصيبة أحاقت بالإسلام، بل بالبشرية كافة يدهم اللئيمة الخبيثة.

ترى لو تفرغ باحث لهذا الأمر وجمع خيوط التاريخ وحوادثه، هل سيجد الكف الأموية قد التقت مع الكف اليهودية في مصافحة حميمة، تعاهد فيها الطرفان على شن الحرب ضد الإسلام دون هوادة وإبادته؟ لا بد أنه سيلمس ذلك، ويدرك أن فنون الترف والخلاعة التي أخذ بها (خلفاء) بني أمية أنفسهم وحاشيتهم لم تكن وليدة المجتمع العربي المتحفظ المتمسك بالقيم الأسرية ووحدة العائلة وشرفها.

جو منفتح أو منفلت

إن اليهودي الذي يقف وراء زق الخمر والطنبور والرقيق والبغاء، لا بد أنه قد أتيحت له فرصة توسيع تجارته في هذا الجوِ (المنفتح) الذي أوجده الأمويون، ولا بد أن بريق الأصفر الرنان قد جعله يلتفت بحماس إلى أولئك الذين استأثروا به ليحصل على حصته من خلال مساعدتهم لتحقيق مآربهم وشهواتهم، وما نظن أن حماسته كانت بفعل الذهب وحده فقط، وإنما بفعل عامل آخر، وهو انتهاز الفرصة لتحطيم الدين الجديد وإدخال السموم والفايروسات التي أبعدها الإسلام إلى جسم المجتمع الإسلامي ثانية. وربما كانت الصليبية التي تمد جسور التفاهم مع معاوية سراً من خلال مولاه ومستشاره قد فعلت فعلها.

ولو أن يهوداً أو غيرهم من أعداء الإسلام أرادوا تكريم شخص قدم لهم أفضل الخدمات في مجال محاربة هذا الدين كان يبدو خطراً عليهم، لكان هذا الشخص معاوية بلا شك، ولعله يستحق منهم أن يقيموا له تمثالًا في كل مدينة من مدنهم بل في كل حي من أحيائها.

خلفاء أم طواغيت

إن (الخلافة الأموية) تنسخ التصور الإسلامي الصحيح عن الخلافة وتحاول محو التصورات القرآنية الصحيحة التي يعمل القرآن الكريم على تكريسها في ذهن الفرد المسلم ووضعها موضع العمل والتطبيق، فهي تستبعد التصور الإسلامي القائم

على فهم السنن التاريخية فهماً دقيقاً ومستوعباً، وتنظيم العلاقة بين الإنسان والطبيعة وأخيه الإنسان على أساس التكليف الرباني العلوي للإنسان فإن هذه العلاقة ستكون على نمط العلاقات الطاغوتية الفرعونية التي استبعدت من الأساس هذا التكليف ونفت التدخل الرباني أو الوصاية الإلهية في أي شأن من شؤون الحياة، وجعلت أمر تنظيمها وإدارتها في يدها هي، كي تتصرف وتعبث كيف ما شاءت عندما تتخلص من هذا (القيد) أو الوصاية الإلهية وبذلك فإنها تستطيع منح نفسها فرصة تنفيذ رغباتها وسياساتها.

وهكذا كان الأمر مع (الخليفة الأموي) في كل عهود (الخلافة الأموية)، وقد استند (الخليفة الأول) معاوية ـ كما رأينا ـ إلى (مبادرات) من سبقه للخروج عن بعض مناهج الإسلام في العطاء وغيره. غير أنه استغل الخرق ليوسعه، واستغل من جاء بعده ذلك ليدخلوا من الخرق الكبير الذي أوجده، ليتمادوا إلى أبعد حد ممكن، حتى لم يعد بوسع أحد أن يدخل في أذهانهم وتصوراتهم أنهم مقيدون بهذه (الخلافة) التي ابتزوها، وليس معنى صيرورتهم (خلفاء) أنهم كانوا يستطيعون الانقلاب والتحرر من التزامات الإسلام وقواعده. !.

كيف يستطيع أحد أن يفهم يزيداً والوليد وأضرابهما مهمة الخلافة ودور الخليفة في المجتمع الإسلامي؟.

مع الترف منذ البداية

إنهم جاءوا إلى الدنيا ووجدوا أنهم يتمتعون بسلطات مطلقة وامتيازات وأنهم يرفلون بالنعيم والترف وأن الناس تنحني أمامهم وتطيعهم طاعة عمياء. ولا بد أنهم عندما نظروا إلى تاريخ أسرتهم المحسن والمزوق، والذي زينته شهادات رسمية من الله ورسوله ﷺ على لسان بعض الذين حسبوا أنفسهم على الصحابة ورواة الأحاديث المزورة ومحرفي الكلم ومؤوليه. فإنهم ظنوا حقاً أنهم يتمتعون بامتياز إلهي خاص وأنهم المختارون من قبل الله حقاً ليسجد الناس أمامهم ويكونوا لهم عبيداً إلى الأبد.

هل روى لنا أحد أن أحداً من أولئك (الخلفاء الأمويين) تصدى لمسائل الإسلام الكبرى وأبدى اهتمامه فيها، عدا الأمور المظهرية التي يتصدى لها عادة الموظفون المعينون المتخصصون من الفقهاء والمحدثين والقصاصين و (الصحابة) المأجورين وأضرابهم. الذين تطوعوا بشهاداتهم المزورة بحق أولئك (الخلفاء)

وعلمهم وتقواهم. أما ما هي مظاهر ذلك العلم والتقوى فأمر علمه عند الله وعند أولئك (الخلفاء) أنفسهم، وليس على وعاظ السلاطين إلا أداء مهماتهم في المديح والثناء، ما دامت الدولة تدفع لهم بكرم وسخاء..؟.. وعدا الشكل الزخرفي المتمثل بتحسين قصور الخليفة ومظهره ومساجده ومدنه وسائر المظاهر العامة التي تخضع له.؟.

تعطلت مهمة المسجد فتعطل كل شيء

لقد عطلوا المسجد عن أداء مهمته الرئيسية، وصار البناء فخماً يتفوق على تلك المساجد الأولى التي بناها رسول الله ﷺ وصحابته في صدر الإسلام، معتبرين الفخامة مظهراً من مظاهر التفوق، واعتبروا أن هذه هي كل مهمتهم، وأنهم أنجزوا ما عليهم وأدوا واجباتهم. كما أنهم عطلوا القرآن، ولم يعد إلا أداء جميلًا في هذه المساجد، أما ما يكمن خلف كلماته وآياته. أما تطبيق حدوده، فلا شأن لأحد به. وما على الذي يريد أن يقرأه إلا أن يقرأ دون سؤال، وليس عليه أن يبحث عن التفسير الصائب لكلام الله والمستند إلى أقوال رسول الله ﷺ. وعند ذاك سوف يمنح أجوراً من الدولة على مواظبته وحضوره إلى المساجد. وقد روى لنا فعلًا أن (الخلفاء) في العصرين الأموي والعباسي كانوا يمنحون (القراء) المواظبين على الحضور لقراءة الذكر الحكيم، والمتخلين عن كل أمور الحياة لهم رواتب وأعطيات تمنح لهم. وقد ينطلي أمر ذلك على العديدين من أبناء الأمة فيتصورون أن الحرص والغيرة على الدين هي التي دفعتهم إلى ذلك، غير مدركين أن هؤلاء كانوا يسعون إلى حصر الدين في المسجد وعدم السماح له بالظهور خارجه، حيث نفوذهم وملكهم وسلطانهم.

وهكذا صحت توقعات رسول الله ﷺ، عندما رأى بعين البصيرة النافذة المسددة بالعلم الإلهي الأكيد، حينما قال لأبي سعيد الخدري: (يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً. ثم يكون خلف يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة مؤمن ومنافق وفاجر)[1].

ومن يستطيع أن يعمل بوعي الرسول ﷺ وفهمه للقرآن؟. ومن يستطيع أن ينظر إلى الإسلام إلا بالعين التي ينظر بها فرعون وحاشيته وجنوده؟ وهل يستطيع أحد

---

(١) البداية والنهاية ٨-٢٣٣.

أن يخرج عن حدود تلك النظرة المحدودة الجامدة التي لا ترى إلا مصالحها وهواها وسلطانها؟.

كان الذي يفعل ذلك أو يتطلع إليه، سيتعرض لسخط فرعون وغضبه ونقمته وسيف الارهاب المسلط دوماً على الرقاب، وسيحرم من عطايا فرعون وجاه فرعون وعطف فرعون.!.

إن ترسيخ حالة التكرار والرتابة والخمول من شأنه أن يفعل فعله من الأجيال اللاحقة، التي تكون قد تقبلت الأوضاع التي توحي بالاستقرار ـ كما تراها أمامها، متوهمة أنها كانت هكذا منذ البداية. وهكذا تتكرر قصة الأبناء المبهورين المعجبين بالآباء والأجداد ثانية وفي كل مرة يظهر فرعون جديد يمهد لسلطانه ومصالحه.

﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[1].

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[2].

﴿بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[3].

نفس القصة المعادة المكرورة. الآن وقبلًا وكأن أولئك الآباء هم الذين جعلوا ملوكهم وفراعنتهم وخلفاءهم ملوكاً وفراعنة وخلفاء، برغبة صادقة من عند أنفسهم، وأن هؤلاء لم يتسلقوا على أكتافهم ويتسلحوا عليهم برغمهم، وكأن الأمر تم باستفتاء شعبي أو على طريقة إحدى (الديمقراطيات البرلمانية) الحديثة تطالعنا بها القوى المتسلطة الحديثة بأساليب حديثة، وتلبسها هذا اللباس الملون البراق المزوق، الذي يستمد ألوانه وبريقه من ادعاء مزيف بالحرص على مصالح الشعوب.!.

وحتى هذا ربما قنعت به الأمة لو تم ـ لا كأمر أساسي كان يجب أن يتم ـ بل من باب إلقاء الحجة على أولئك الذين استسلموا أمام جمود الواقع ورتابته وتحجره. فما هو دور أولئك الآباء فعلًا حتى نهج الأبناء نهجهم وتبنوا مواقفهم؟ لقد أقهر أولئك الأباء، واضطهُدوا ودُمروا وقُتلوا وسُرقوا، حتى أصبح الأمر كما وجده الأبناء المخدوعون ووجده أبناؤهم من بعدهم كذلك. غير أن مهمة الفراعنة في كل زمان ومكان هي أن يستكوا شعوبهم ليظلوا هم في المقدمة دائماً، المتكلمين الوحيدين

(١) المائدة ١٠٤.
(٢) البقرة ١٧٠.
(٣) الزخرف ٢٢.

ونجوم كل الحفلات والمناسبات وجلسات السمر وحلقات الذكر والملاهي والجوامع. ! أن يكونوا كل شيء ويملكوا كل شيء ويحاسبوا على التهمة والظن، ويدعوا العلم بما في سرائر الناس ويؤاخذهم على ذلك. كل شيء يتضاءل أمامهم ويتصاغر ويخبو ويضمحل.

أين الأمة الإسلامية

وإلا، فأين هي تلك الأمة الإسلامية القوية المفكرة المتفهمة المحاربة البانية؟ أين مواقفها وأين رجالها؟ لقد اختفت واضمحلت أمام معاوية ومن جاء من بعده من (الخلفاء)، ولم يبق منها سوى زعماء امعات ترتب لهم الأدوار وتردد لهم الأقوال التي سيرددونها مسبقاً، وليس عليهم غير أن يهزوا رؤوسهم استحساناً ويحنوها أمام السلطان القوي الثري المتنفذ. وسنرى مصداق ذلك في حفلات الخطابة و (المذاكرة) والسمر التي أعدها معاوية تمهيداً لتنصيب يزيد خليفة من بعده والمسرحيات التي أعدت لهذا الغرض. كل دور كان مرسوماً، وكل تصرف كان مرصوداً. وكانت المعركة حامية الوطيس، لا بين الإسلام وخصومه من الجاهليات التي لا تزال تحيط به وتحاول افتراسه والانقضاض عليه، وإنما بينه وبين من حاولوا الوثوب على الخلافة وسرقة مكتسبات الأمة وتكريس الحكم في العائلة الأموية المحظوظة!.

وهكذا صح ما تخوف منه الرسول ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام من أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها. وكان ذلك مبعث أسى وألم مسبق للإمام عليه السلام وهو يرى أن كل شيء يضيع من هذه الأمة وأن ما حصلت عليه بجهادها وصبرها وتضحياتها قد ذهب في طرفة عين. إن الانحراف البطيء في البداية قد أتى أكله الآن، وأن الانحدار الذي تبع ذلك لا بد أن يأتي بأمثال هؤلاء، ويرى كذلك الشكل الجديد للدولة (الإسلامية) التي يديرها ويتربع على عرشها السفهاء والفجار والفاسقون. (ولكنني أسي أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام، وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ)[1].

---

(١) نهج البلاغة -٦٣٤-٦٣٥.

نظام (إسلامي) بالاسم

لقد تحدد منذ البدء، ومنذ أن استلم معاوية الحكم شكل الدولة (الإسلامية) الجديدة. فقد رأينا من هو الذي تصدر عرشها، ومن كان أعوانه، ورأينا عموم الناس والصالحين منهم كيف كانوا في ظل هذه الدولة الجديدة التي استأثرت بالخيرات لأعوانها، ولعبت بالناس ومقدراتهم.

إن الأداء الخاطىء والمنحرف لعموم المسؤولين في هذه الدولة وأقطاب الحكم فيها قد وضع المجتمع أمام تقسيم جديد مستحدث يكرس الحالة خاصة من شأنها أن تبعد الناس نهائياً عن الإسلام، لا يتطلع فيها أحد إلى أي علم حقيقي من علوم الإسلام يعمل على تبصيرهم بأمور حياتهم ويجعل أفكارهم وعقولهم تعمل بشكل ايجابي فعال وفق نظرة الإسلام وتصوراته وتشريعاته، وإنما لقيادتهم بشكل متعمد ومقصود إلى هاوية الجهل والتأخر وجعلهم كتلة من همج رعاع ليس لهم موقف واضح أو رأي محدد أو تفكير سوى، يمكن التلاعب بمشاعرهم وعواطفهم و (عقولهم)، والتأثير فيهم كما تشاء إرادة الدولة المتسلطة وفرعونها، طالما أنهم ابتعدوا عن نور الإسلام وركنه الوثيق .

فئات المجتمع. حسب تقسيم الإمام عليه السلام

وهكذا قسم الإمام عليه السلام فئات المجتمع إلى ثلاثة، وبين لنا سبب انحدار وتخلف الفئة الثالثة منه. (الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق)[1] .

لقد أراد الأمويون تكريس الحالة الأخيرة وجعلها هي السائدة من خلال سلب الناس حرياتهم في التفكير والنقد والكلام والنظر، ليتبنوا فكرة (الدولة) وأهدافها وتوجهاتها. وكان هذا أشد فعل مدمر يمكن أن يعمل على إفقادها شخصيتها وعوامل وجودها كأمة إسلامية قائمة على أساس الإسلام ومبادئه وقيمه.

إن استثمار أو استغلال (الرعاع) أو العوام الذين لا يملكون موقفاً معيناً ثابتاً، يكون عادة أسهل على مؤسسات السلطة الحاكمة من استثمار مواقف الذين يتبنون

(١) نهج البلاغة ٦٩.

مواقف مبدئية معينة؛ فمع هؤلاء الأخيرين تكون المهمة معقدة ومزدوجة، إذ يتوجب أولًا إفراغهم أو جعلهم يتخلون عن المواقف التي يتبنوها أولًا، ثم (إقناعهم) بعد ذلك لتبني المواقف الجديدة التي هي بطبيعة الحال مواقف الدولة نفسها. وهذا أمر لا ينال بالتمني، مع هؤلاء الذين ما يكونون غالباً متعلمين ومتنورين، ولو بحدود بسيطة تسمح لهم بالتخلص من الانجراف والوقوع بقبضة أعداء الإسلام والمزورين والمنحرفين.

إن توسيع هذا الصنف من الناس الذين ذكرهم الإمام كهمج رعاع، وجعله الأغلبية الساحقة من المجتمع، يعمل على إبعاد الإسلام نهائياً عن ساحة الحياة، لأن ذلك يجردهم من الضمانة الوحيدة التي تؤهلهم لخوض الحياة على أساس سليم، وحل مشكلاتها وتحقيق مصالحهم وحرياتهم. وذلك هو الشيء الوحيد الذي يتيح للحكام تنفيذ سياساتهم وخططهم المدمرة.

وعمل معاوية هذا هو عمل الفرعونية على مر العصور، إذ تحاول أن تجعل من فرعون المثل الأعلى مقابل المثل الأعلى الحقيقي وتحاول بناء العلاقات داخل المجتمع على أساس الظلم والاستغلال.

المستكبرون والمستضعفون مسؤولون جميعاً

إن مشهداً مؤثراً من مشاهد القيامة التي يعرضها القرآن الكريم، يتعرض فيه لأحد الحوادث التي تجري بين الظالمين، ذوي النفوذ والقوة والمكانة وأعوانهم من (المستضعفين) قبيل الجزاء والحساب، يبين لنا كيفية تفكير هذين العنصرين من عناصر المجتمع الفرعوني. كلاهما ظالم لنفسه ولغيره، وكلاهما يتوقع عقوبة شديدة هي جزاء عادل لما اقترفوه

﴿... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

---

(١) سبأ ٣١/ ٣٣.

لا بد أن هؤلاء (المستضعفين) كانوا عوناً للذين استكبروا، ولا بد أنهم كانوا في مقدمة الذين عملوا على تنفيذ مخططاتهم وسياساتهم دون مناقشة، متنازلين عن حرياتهم وإرادتهم دون شعور بالكرامة، منقادين انقياداً أعمى لا يرون أمامهم إلهاً سوى فرعون استبدلوه بخالقهم وبارئهم بعد أن نسوه وكفروا به.

ويشكل جواب الذين استكبروا جواباً دائمياً حاسماً شافياً لكل (مستضعف) قديم وحديث يسير في ركاب الطواغيت على هذه الأرض. وهو جواب صادق حتماً، إذ لا يملك هؤلاء سوى الصدق، وهم يقدمون على ربهم العزيز القدير يوم الجزاء ويحطون رحالهم في ذلك اليوم الأخير الذي تزوغ فيه القلوب والأبصار: لقد جاءكم الهدى، ولقد عرفتموه، ومع ذلك كانت لديكم استعدادات للشر والانحراف وكنتم ميالين إلى خدمتنا وعبادتنا بعد أن عميت أبصاركم وقلوبكم وكانت استعداداتكم للشر والجريمة هي التي دعتكم إلى الوقوف معنا مع أنكم تعرفون حق المعرفة أننا كنا على خطأ.

لم ينكر المستكبرون أنهم كانوا ظالمين ومخطئين في الحياة الدنيا، ولم يقولوا أنهم كانوا على حق، كما كانوا يتبجحون دائماً، بل يعترفون بمسيرتهم المنحرفة، ولا يغضبون ـ كما كانوا يفعلون في تلك الحياة الأولى إذا ما اتهمهم أحد بالظلم والخطأ، ولا يدفعون عن أنفسهم اتهاماً. فما وجّه إليهم صحيح، هم ظالمون، ويعترفون بذلك. وكانوا يريدون الجميع أن يقف في خدمتهم وفي صفهم، فما بال هذا (الجميع المستضعف) لم يرفع عند ذاك في وجههم يداً أو اصبعاً، مستنكراً الظلم، وما باله ـ بدلًا من ذلك ـ يكرس حياته وجهوده لخدمتهم ولا يرى أمامه إلا فرعون وآل فرعون وملأ فرعون؟.

عناصر المجتمع الفرعوني

وينبهنا الشهيد الصدر إلى أن عناصر المجتمع الفرعوني، مجتمع الظلم، بعد أن يستعرض الآية الأولى من هذا الحوار، وبعد استعراض مقولة الإمام عليه السلام التي ذكرناها قبل قليل، فتكون من طوائف متعددة، نرى من الضروري أن نستعرضها هنا باختصار ونحن نتكلم عن عناصر المجتمع الإسلامي في ظل معاوية أول الفراعنة المسلمين، الذين تولوا قيادة الأمة بالقوة، وتوالت على أثره سلاسل طويلة منهم، لا يزالون يطالعوننا إلى اليوم ويدعون حق الحكم تحت ذرائع مشابهة، كلهم نهجوا نفس

المنهج، وطوروا الأساليب وأفادوا من الخبرات المتراكمة على مر الزمن للخروج (بشرعية) متجددة تتيح لهم العلو في الأرض والاستكبار فيها والسيطرة على مقدرات الناس.

١ ـ **الطائفة الأولى**: هم الظالمون المستضعفون الذين ذكرهم القرآن الكريم. سبأ ٣١. الظالمون الثانويون، بحسب تعبير أئمتنا عليهم السلام (أعوان الظلمة)، هؤلاء يشكلون حماية لفرعون والفرعونية، وسنداً في المجتمع لبناء الفرعونية واستمرار وجودها.

٢ ـ **الطائفة الثانية**: الحاشية والمتملقون، أولئك الذين قد لا يمارسون ظلماً بأيديهم بالفعل، ولكنهم دائماً وأبداً على مستوى نزوات وشهوات ورغبات فرعون، يسبقونه بالقول ومهمتهم في أغلب الأحيان تحريضية مثيرة ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾[1] هؤلاء كانوا يعلمون أنهم عندما يضربون على هذا الوتر الحساس في قلب فرعون الذي كان بحاجة إلى هذا الكلام، فتسابقوا إلى هذا الكلام لكي يجعلوا فرعون يعبر عما في نفسه ويتخذ الموقف المنسجم مع مشاعره وعواطفه وفرعونيته.

٣ ـ **الطائفة الثالثة**: أولئك الذين عبر عنهم الإمام عليه السلام «بالهمج الرعاع» لا تدرك أنها مظلومة، ولا تدرك أن في المجتمع ظلماً، تتحرك تحرُّكَ التبعية والطاعة دون تدبّر، ودون وعي أو عقل، تستسلم للأوامر الفرعونية دون أن تناقشها أو تتدبرها حتى بينها وبين نفسها، وهذه الفئة تفقد القدرة على الابداع البشري وكل قابليات النمو ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[2] كلامهم يدل على أنهم لا يشعرون بالظلم. وبقدر ما تكون هذه الفئة مشكلة بالنسبة للمجتمع الصالح الذي يحاول تصفيتهم بتحويلهم إلى فئة متعلمة ولو على سبيل نجاة لكي يشاركوا في مسيرة الابداع، بينما تحاول الفرعونية أن توسع منهم لأن في ذلك ازدياد خطر فناء المجتمع وموته موتاً طبيعياً.

(١) الأعراف ١٢٧.
(٢) الأحزاب ٦٧.

٤ ـ **الطائفة الرابعة**: هم أولئك الذين يستنكرون الظلم في أنفسهم ولم يفقدوا لبهم أمام فرعون والفرعونية لكنهم يهادنون ويسكتون عنه، فيعيشون حالة التوتر والقلق بشكل لا يسمح لهم بالابداع والتجديد والنمو، وكما يسميهم القرآن ظالمي أنفسهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾(١).

٥ ـ **الطائفة الخامسة**: الطائفة التي تتهرب وتبتعد عن مسرح الحياة و (تترهب) لكي لا تتلوث بأوحال المجتمع. هذه الرهبانية التي عبر عنها القرآن الكريم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾(٢) وهي رهبانية يشجبها الإسلام لأنها موقف سلبي تجاه مسؤولية خلافة الإنسان على الأرض. وهناك صيغة مفتعلة للرهبانية، يترهب ويلبس مسوح الرهبان، ولكنه ليس راهباً في أعماق نفسه، وإنما يريد بذلك أن يحذر الناس ويشغلهم عن فرعون وظلم فرعون ويسطو عليهم نفسياً وروحياً ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٣).

٦- **الطائفة السادسة**: المستضعفون، خصهم فرعون بالاستضعاف والاذلال وهدر الكرامة، لأنها كانت هي الطائفة التي يتوسم أن تشكل اطار للتحرك ضده.

وقد علمنا القرآن الكريم ضمن سنه من سنن التاريخ أن موقع أي طائفة في التركيب الفرعوني لمجتمع الظلم يتناسب عكسياً مع موقعه بعد انحسار الظلم، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾(٤) ومن ذلك استخلصنا حقيقة مهمة: وهي: أن المجتمع يتناسب مدى الظلم فيه تناسباً عكسياً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة ويتناسب مدى العدل فيه تناسباً طردياً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة. مجتمع الفرعونية المجزأ المشتت مهدور القابليات والطاقات والامكانات. وأما مجتمع العدل فهو على العكس تماماً مجتمع تتوحد فيه كل القابليات وتتساوى فيه كل الفرص والامكانات)(٥).

---

(١) النساء ٩٧.

(٢) الحديد ٢٧.

(٣) التوبة ٣٤.

(٤) القصص ٥.

(٥) المدرسة القرآنية ص ٢٣٨.

مجتمع شاذ. مجتمع التناقضات

إن مجتمع الظلم الفرعوني من شأنه أن يفرز قيماً وحالات شاذة تتقاطع وتتعارض مع القيم الإسلامية الأصيلة التي تتجه بالإنسان نحو العمل الإيجابي البناء الذي يستثمر طاقات الإنسان وإبداعه وتبعده عن الانحدار والانجراف والهلاك، ومن شأنه أن يفرز أصنافاً من الناس لا يمكن أن تظهر في الحالات الطبيعية وفي المجتمع السوي الذي يريده الإسلام، فهو مجتمع الفساد والانتهازية وقوة الغاب والشر والنفاق والمعصية والحسد والتنافس غير الشريف والخوف والفقر والجور. وقد رأى أمير المؤمنين عليه السلام بوادر ظهور هذا المجتمع ومقدمات هذه الظهور بعد أن رأى العبث الذي كان يجري في عهد عثمان والذي كان يمهد لمصلحة فئة خاصة من الناس ظهرت كطبقة مترفة جديدة ابتعدت عن الإسلام، وربما كانت بعيدة منذ البداية عنه. ورأى أن الحال لا يمكن تغييره بمحاولات إصلاحية بسيطة وأنه يتأزم ويتغير نحو الأسوأ.

وهكذا أعرب عن شعوره هذا، ووصف الحالات الاجتماعية الشاذة التي بدأت تظهر في المجتمع الذي أريد جره إلى الانحراف والسقوط في أحضان فرعون وملئه وزبانيته، محذراً المجتمع من مغبة الوصول إلى ما أراد أعداء الإسلام إيصاله إليه. لأنه سيعود عند ذاك مجرد حطام مجتمع ومجرد أثر غابر وأمة فاسدة سبقتها غيرها من الأمم إلى الفساد.

وقد خطب عليه السلام قائلًا: (أيها الناس، إنّا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن كنود، يعد فيه المحسن مسيئاً، ويزداد الظالم فيه عتواً، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا. والناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانةُ نفسه وكلالة حده، ونضيض وفره. ومنهم المصلت لسيفه والمعلن لشره، والمجلب بخيله ورَرَجلِهِ قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مِقنب يقوده أو منبر يَفرعُهُ. ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ومِمّا لك عند الله عوضاً! ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه وقارب من خطوه وشمّر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية، ومنهم من أبعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة وليس من ذلك في مراح ولا مغدى.

وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد نادٍّ وخائف مقموع، وساكت مكعوم، وداع مخلص، وثكلان موجع، قد أخملتهم التقية وشملتهم الذلة فهم في بحر أجاج، أفواههم ضافرة، وقلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا وقتلوا حتى قلوا)[1].

وتفرز الأصناف الأربعة الأولى كل حاجات فرعون من الرجال الذين يزينون عرشه ويدعمون حكمه، حاشية واتباعاً وقادة عسكريين ووعاظاً للسلاطين ومتاجرين بالدين وأثرياء وسماسرة وغيرهم، وذلك ما هو بحاجة إليه.

أما الصنف الأخير فإن فرعون يحاول إسكاته بكافة الطرق المناسبة، ويستعين عليه ببقية الأصناف الأولى. فهو صنف يقظ منتبه واع، لا ينشد إلا مصلحة الإسلام، أما مصلحته الذاتية فهي آخر شيء يفكر به. وقد استغل فرعون ذلك لجعله يظل فقيراً وحرض عليه تلك الأصناف عندما جعلها تعتقد أن مصالحها ستتضارب مع (مصالحه) مع أن لا مصلحة له إلا انقاذ الجميع، حتى فرعون وملئه وحاشيته. غير أن فرعون والملأ والحاشية في غمرة التمتع بكل لذائذ الأرض ونعيمها لا يرون فيه إلا عدوهم الذي يريد أن يستلب لنفسه كل ما استلبوه بالقوة والمكر والحيلة.

فرعونية متطورة..!

وعلى ضوء التوزيع الموفق الذي أشار إليه السيد الشهيد رضوان الله عليه، والذي يمكن أن نتوصل إلى فهمه فهماً أفضل لو حاولنا أن ننظر نظرة متفحصة في آيات القرآن الكريم وفي أقوال الرسول وآله عليهم السلام. نرى أن النظام الفرعوني الجديد ـ بإيعاز وتوجيه من معاوية نفسه ـ قد حاول أن يحذو حذو الفرعونية القديمة ـ مستفيداً من خبراتها ومن غطاء الشرعية الإسلامي الذي حاول أن يضفه على نفسه وعلى حكمه ـ مستغلًا عوامل الانحراف التي بدأت تظهر قبله ومحاولات جر الأمة إلى ما ابتعدت عنه في السابق ـ وحاول أن يكرس تقسيم المجتمع على نفس الأسس التي قامت عليها الفرعونيات السابقة مع بعض التحسينات والتزيينات التي أجراها لجعل صورته مقبولة وحكمه مستساغاً، وحاول بفعل الخزينة الضخمة التي استأثر بها أن يوسع من دائرة الطبقة الثرية المستفيدة والمنحازة إلى جانبه لتشكل دائرة حماية قوية له. وطبيعي

(١) نهج البلاغة ٧٤-٧٥.

أن تتبنى هذه الطبقة الثرية كل تصورات وأطروحات وتوجهات الدولة الجديدة المتفرعنة التي تدعي في الظاهر عداءها للفرعون التقليدي الأول، بينما توغل في أعمال لم يكن حتى ذلك الفرعون يقوم بها في السابق.

بين الخبرات الجاهزة والاستفادة من طبقة الهمج الرعاع

ويجدر أن نؤكد هنا ما قلناه سابقاً، وهو أن معاوية قد استفاد من خبرات جاهزة قديمة إلى الحدّ الذي أمكنه من (استثمار) الإسلام نفسه و (تطويعه) وعرضه بالشكل الذي يشاء لتعزيز حكمه وسلطانه، وقد استمد معاوية خبرته من حياة حافلة بالتصدي للإسلام نفسه قبل أن (يدخل) فيه قبيل الفتح واطلاعه الواسع على سياسات وأخبار الملوك السابقين كما أوضحنا في مقدمة هذا الفصل وفهمه للعديد من أمور الإسلام، فهو ليس بالجاهل، وربما كان عالماً، أو كما قال عنه الفضيل بن عياض (معاوية من «الصحابة» من العلماء الكبار ولكن ابتلي بحب الدنيا)[1] ولعلها أخف كلمة تقريض قيلت بحق هذا (الصحابي) الجليل الذي أمضى حياته مع رسول الله ، غير أننا لا بد أن نقول أنه ليس بالجاهل وأن بين جنبيه نفساً زاخرة بعبقرية الشر التي استطاعت تحويل مجرى التاريخ الإسلامي إلى أسوأ حال وتهديم ما بناه الإسلام طيلة عقود عديدة من الزمن.

وقد أدرك معاوية أنه سيتمكن في مجتمع الهمج الرعاع من تطبيق سياساته وخططه وعلم أنه سيجد فيهم خير جند ورعية. وكان لا بد من تكريس حالة الجهل المطبق واللاوعي واللامبالاة والتواكل والاعتماد على كفاءة (الخليفة القائد) وقدرته ودهائه لتمرير ما عزم على تمريره دون اعتراض أو مناقشة.

وقد أرسل إشارة خبيثة إلى الإمام عليه السلام بهذا المعنى وأوصى من يقول له: إني أقاتلك بمائة ألف لا يميزون بين الناقة والجمل، ولعله قد وضع قصة الناقة والجمل تلك ليدلل على جهل أهل الشام وانقيادهم له. وكان له من طبقة الحاشية المتملقة المستفيدة المتزلفة عوناً لتنفيذ خطط أبعد مدى من تلك التي طبقها فعلاً في حرب ضد الإمام عليه السلام ومطالبته بدم عثمان. وهي محاولاته أن يمد في طول حكمه من خلال تكريسه في ابنه يزيد وسلالته بعد ذلك. وقد رأينا من عرف رغبته تلك، وأشار

(١) ابن كثير ٨-١٤٢.

عليه أن يقدم على جعل يزيد خليفة له، وزيَّن له هذا الأمر حتى سعى إلى ذلك فترة تزيد عن السبع سنوات كما سنرى في الفصل القادم.

الحاشية المتملقة: مصالح فرعون مصالحهم

وكانت الحاشية المتملقة ترصد تحركات معاوية، وتستشعر رغباته ولهفته للتمهيد لابنه يزيد وتلتقط كل ما من شأنه أن يتيح لها المزيد من الاطلاع على تلك الرغبات، لتقترحها عليه وكأنه لم يفكر بها أصلًا. وكأنها من بنات أفكار غيره، بل هي رغبتهم ورغبة الأمة كلها. إنها تغازل رغباته وترصدها وتسحبها من داخله وتطرحها عليه كأنها رغبتها هي وكأنها إرادتها أو إرادة الأمة المطيعة المحبة. ! وتلك كانت نفس مهمة أعوان فرعون موسى في السابق: تزين لفرعون رغباته ونزواته وأحلامه واندفاعاته.

وقد رأينا على من وقع الظلم، ومن هم أولئك الذين توقع معاوية أن يتصدوا له ولسلالته فيما بعد، فعمل على استئصالهم وكسر شوكتهم وإسكاتهم، قبل أن يبادروا هم فيستأصلوه ويقفوا عقبة في طريقه، وقد تحرك ضدهم قبل أن يتحركوا ضده، مستنداً إلى توقعاته لا إلى ما يراه منهم فعلًا، وهكذا ساد قانون الأخذ على الشبهة والظن، ذلك القانون الأموي الذي لم تشهد له الفرعونيات السابقة مثيلًا والذي تجلى بممارسات عنيفة من قبل النظام الأموي ضد كل من توقع واعتقد عداوتهم له، مع أن ذلك هو ما حذر منه القرآن الكريم بشدة ووضوح.

استهدفوا الإمام عليه السلام وخطّه

ومن الطبيعي أن تكون الفئة التي حاربها معاوية هي الفئة التي التزمت خط الإمام عليه السلام ونهجه وهكذا فإنه بادر إلى العمل ضدها بأعنف الأساليب وأقساها، كما عمد إلى فعل مضاد قصد به تشويه صورة الإمام عليه السلام وحشد خطباءه والمنتسبين إلى دولته من المرتزقة الذين حسبوا أنفسهم على الصحابة والعلماء والمفسرين وناقلي الحديث والقصاصين والشعراء وغيرهم لأعظم حملة سباب وشتيمة شهدها التاريخ ضد آل البيت وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام. وقد قصد من ذلك إضافة لتشويه صورة الإمام عليه السلام الاقلال من قيمة رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه بنظر المسلمين، باعتبار أن من يسبه ينتمي إلى الرسول صلى الله عليه وآله انتماء حقيقياً من حيث النسب أو الدين. وجعل سبه عليه السلام سنة أموية بل إسلامية، يتقرب من يقوم به إلى الدولة ويحسن صورته

أمامها. وبنفس الوقت عمد إلى تضخيم صورته وتزويقها أمام المسلمين مقابل صورة الإمام التي عمد إلى تشويهها ومحوها.

وباللجوء إلى أسلوب السب المباشر والعلني، كان يعني بذلك أن السير على خط الإمام غير شرعي وممنوع وأن الخط (الشرعي) الوحيد المسموح به هو خطه وشريعته، وأوهم بذلك طبقة كبيرة من الناس وخصوصاً من أهل الشام الذين رباهم تربية خاصة وانحدر بهم ليكونوا أكبر طبقة للهمج الرعاع حفل بهم قطر إسلامي في ذلك الوقت.

تصرفوا بالخلافة تصرفهم بإرث شخصي

كما رأينا القادة والولاة الذين حكموا وتصرفوا وكأنهم يتصرفون بملك خاص بهم ورثوه عن أهليهم، واستعرضنا بعض الشخصيات التي شكلت أركان الحكم مثل عمرو بن العاص والمغيرة وزياد ومروان، ورأينا أساليب الخداع والقوة التي لجأوا إليها وأساليب القمع المبتكرة التي ابتدعوها، رغم ادعاء الدولة الأموية بأنها امتداد لدولة الإسلام الأولى أو أنها شكل محسَّن لدولة الخلفاء السابقين وأنها دولة عادلة لا تعمد إلا إلى الحلم واللين والصبر في سياسة الناس وحكمهم، حتى لقد انطلت دعوى معاوية بالحلم والدهاء والصبر والكياسة على جماهير كبيرة من الناس في عهده وفي العهود اللاحقة وإلى يومنا هذا، مع أن سياسة الإرهاب والقوة والقمع هي التي طبعت ذلك العهد بطابعها، كما رأينا عند استعراضنا شخصية معاوية وحملاته الإرهابية على أطراف العراق وقتله النساء والأطفال والأبرياء لمجرد أنه يشم منهم رائحة الولاء لأمير المؤمنين، وحملات قمع المعارضين أمثال حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وغيرهم وغيرهم. مما رويت لنا عنها أقاصيص وأخبار طويلة حفلت بها كتب التاريخ وغيرها.

كا رأينا طرفاً من أخبار أولئك الذين وقفوا موقفاً (سلبياً) من هذه الدولة الظالمة، وأولئك الذين اعتزلوا وترهبنوا خوفاً من سلطتها وبطشها فكانوا مثار رضا وسكوتها عنهم وأولئك الذين أعلنوا الرهبنة مع أنهم كانوا أكثر الناس تعلقاً بالدنيا وقرباً من السلطان وأصبحوا وعاظاً للسلاطين ودعاة للسكوت والصبر على جورهم، إلا أنهم لبسوا عمامة الإسلام بدلًا من طيلسان الكاهن وثياب الراهب وأظهروا التقشف في الظاهر مع أنهم كانوا متلهفين على قرب السلطان ومنظر الأصفر الرنان.

ارتداد عن الإسلام من خلال إبعاده عن الحياة

كان المجتمع يعيش في ظل معاوية حالة ارتداد واسعة عن الإسلام، وكان فرعون يقبع على قمة عرشه سعيداً بمساعيه وبما أوصل الأمة إليه. وقد بدا له أخيراً أن الإسلام لم يظهر وينتشر إلا لتحقيق مصالحه وطموحاته ورغباته هو وأفراد تلك العائلة (السعيدة، المحظوظة) التي ناصبته العداء منذ البداية. وأن الأمر برمته لا يعدو سوى أن يكون مهزلة أو مباراة هزلية لا مكان فيها إلا للاعب الماهر الذي يتمتع بأكبر قدر من الحيلة والدهاء والمكر. من أمثاله وأشباهه.

لم يكن يحس بالإسلام إطلاقاً. ولن يستطيع أحد مهما تحيز إليه أن يدعي مستنداً إلى أدلة منطقية ملموسة أنه كان يعمل بدافع من حرصه على الإسلام، ولم يكن يصلح بالمقاييس الإسلامية حتى أن يكون مجرد مواطن سوي في الدولة الإسلامية.

ذلك كان معاوية، وذلك هو المجتمع الذي أراد إيجاده وتوسيع حلقاته وأطر ممارساته لا في الشام وحدها بل في كل أقطار المسلمين، وقد نجح في ذلك هو وخلفاؤه في ذلك إلى حد بعيد.

عصر الأحداث والمفاجآت

كان عصراً حافلًا بالأحداث والمفاجآت والمتغيرات والبعد المتعمد عن الإسلام، وكانت كل دقيقة فيه مكرسة بشكل مقصود لإبعاد الإسلام عن الحياة إلى الأبد. وكان التصدي لهذه المحاولات الملعونة يقتضي عزماً وشعوراً عالياً بالمسؤولية نابعاً من عزم وتصميم القيادة الحقيقية للإسلام المتمثلة بالرسول ﷺ وآله عليهم السلام وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام الذي أعده إعداداً خاصاً كرس له وقتاً طويلًا استمر طوال حياته ﷺ ليتولى شؤون المسلمين وقيادتهم على نفس النهج والأسلوب الذي اتبعه ﷺ.

ولم تكن حياة أمير المؤمنين عليه السلام الذي وقف بمواجهة الأزمة التي مر بها المسلمون منذ وفاة رسول الله ﷺ والتي تفاقمت إلى أبعد حد بعد خروج معاوية عليه وإعلانه الحرب السافرة، تتميز بتلك الرتابة والتكرار اللذين تميز بهما عهد العديدين ممن تسنموا مسؤولية قيادة الأمة، وظلوا يتمتعون بذلك الحذر الناعم اللذيذ الذي تتيحه مباهج السلطة، بل كانت حياة حافلة بالأحداث والمواقف. وكانت دروسها

معدة لكي يتلقاها، لا ذلك الجيل الذي عايشه وشهد الأحداث معه، وإنما كل الأجيال التي تتطلع إلى الإسلام كحل وحيد لتناقضاتها وخلافاتها ومشاكلها ووجودها كعالم ثالث متأخر يتحكم فيه الطاغوت ويبتز ثرواته وخيراته وجهوده.

أمير المؤمنين عليه السلام : أمل الأمة

وكان عليه السلام مع الصفوة من آل بيته من الأئمة المعصومين يمثلون الأمل الكبير لجماهير المسلمين الواعين على امتداد العصور، وكانت تجربته القريبة، بل المتماسة مع التجربة النبوية العظيمة، هي الوحيدة القادرة على منع الانحراف وإيقافه رغم تقادم العهد وبعد المدة. لأن طبيعة هذه الرسالة العظيمة تكمن في وضوحها وواقعيتها وقربها من النفوس المستقيمة الواعية وكذلك في إمكانية تحقيقها وتطبيقها، كحالة وحيدة كفيلة بالقضاء على التناقضات والسلبيات التي تطرحها الجاهليات المختلفة وأحداث التغيير الذي سعى إليه الإمام عليه السلام طوال حياته، وخصوصاً في فترة حكمه، بطريقة حاسمة وبوضوح كبير، رافضاً انصاف الحلول والمساومات والرشاوى والفساد في مجتمع أراد له أن يكون طليعة الأمة واعية مدركة لأهداف الرسالة الإسلامية العظيمة، وهو مجتمع الكوفة في البداية. وقد لاقى في سبيل ذلك الأمرين، وهو يخوض تجربة بناء الأمة وتربيتها من جديد على نفس النمط الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وآله وحاول أن يستبعد كل الشوائب والانحرافات التي بدأت تلوح في أفق هذه الرسالة ولما تكد تبدأ مهمتها بعد.

علي عليه السلام : استقامته استقامة الإسلام

وقد رأينا استقامته التي هي استقامة الإسلام نفسه، ورأينا وضوحه الخارق وبصيرته النافذة ونظرته السديدة. ولعل وضوحه الخارق واستقامته اللذين لم يسبقهما إلا وضوح واستقامة صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله نفسه، هو ما حير أعداءه ومحبيه في وقت واحد وجعلهم يشتطون في أمره ويذهبون به مذاهب شتى كما عبر هو بنفسه ـ سلام الله عليه ـ عن ذلك.

كان عليه أن يتصدى للمؤامرات التي تعرض لها الإسلام، إما بشكل مباشر وعنيف كما فعل في أيام قيادته الفعلية وحكمه، أو بشكل ينسجم مع الظرف الذي مرت به الأمة كما فعل قبل خلافته بعد أن بدأ الانحراف بزاوية ضيقة غير ملحوظة ثم بدأ يتسارع وينفرج بزاوية واسعة واضحة. وقد خاض حروباً بالسيف واللسان مع كل

الذين تصدوا لعداوته وحربه لكي يفوّت المؤامرة التي حاكها ضده (دهاة) قريش وعتاتها وطواغيتها المفسدون المترفون، وهم نفس أولئك الذين تصدوا للرسول صلى الله عليه وآله نفسه في حروب مكشوفة ومكائد مستورة.

علي عليه السلام : تنوع مواقف وأدوار

كانت مهمة الإمام عليه السلام تتغير وتتنوع وفقاً للأحداث المتغيرة وأشكال الذين وقفوا على سدة الحكم خلفاء وحكاماً وعمالًا. وكان ينطلق لأداء مهمته بالدرجة الأولى من منطلق الحفاظ على الإسلام والحرص عليه وضرورة بقائه ونموه كقوة رئيسية محركة دافعة مغيرة وفق السنن والقوانين الإلهية لا القوانين الفرعونية المتسلطة. وهكذا تنوعت الأدوار التي لعبها في كل وقت وإن كانت كلها تستهدف أمراً واحداً بلا شك وهو ـ كما قلنا ـ الحفاظ على الإسلام.

وكان حضوره واضحاً لمنع الانحراف وتحجيمه وحصره في أضيق زاوية وخصوصاً في عصر عثمان. ولا يحسبن أحد أنه رغم معرفته بأنه أحق من ينبغي أن يتولى القيادة الفعلية للمسلمين خليفة وإماماً، أنه كان يتصرف من منطلق رد فعل سلبي تجاه من جلسوا على كرسي الخلافة، بل أنه كان حريصاً حتى على حياتهم ما داموا قد أصبحوا يمثلون المسلمين. وهو أمر غريب لو حدث من شخص غير الإمام، غير أننا لا نستغرب ذلك متى علمنا من هو أمير المؤمنين، ومتى ما أتحنا لأنفسنا فرصة أكبر للتعرف على شخصيته العظيمة.

أما مع معاوية، فلم يكن له سوى أن يواجهه مواجهة حاسمة بفعل قتالي بعد أن رفض الانصياع لإرادة الأمة ومبايعته، وحشد له الأمة واستنفرها لمقاتلته، وأراد لها بمواجهتها لمعاوية وأمثاله، أن تواجه في المستقبل كل حالة طاغوتية شاذة منحرفة قد تطفو على سطح المجتمع الإسلامي.

وكانت وقفته المبدئية ضد معاوية وأضرابه، وقفة أريد لها أن تشخص أمام الأبصار لا خلال حياته عليه السلام وإنما على امتداد العصور.

وهكذا دعا المسلمين في بداية توليه الحكم إلى قتال الخارجين على إجماع الأمة كطلحة والزبير ثم معاوية بعد ذلك، ولإزالته عن المركز الذي احتله خطأً وظلماً.

وكانت مسؤوليته التاريخية والتفاف جماهير واسعة من الأمة حوله، ونظرتها إليه كرمز كبير من رموز الإسلام. وكان شعوره بهذه المسؤولية المستمد من وعيه

وفهمه الكامل للإسلام ومركزه بين المسلمين لا يدع أمامه أي مجال للتردد في شن الحرب على عدو الإسلام العتيد معاوية.

وقد أدى دوره أداءً كاملًا على كافة الجبهات وفي كل المجالات.

لقد وفد كلاهما على ربه، علي ومعاوية، الإمام والطاغية.

فكيف سيكون حوارهما أمام رب العالمين؟ وماذا سيقول معاوية حينذاك، وكيف سيبرر تصرفاته وخروقاته الفظيعة للإسلام؟. وهل ستظل مغالطاته ومبرراته التي أوجدها له أعوان السوء مفيدة له حينذاك؟.

وهل سيظل يتمتع بذلك (الدهاء) الذي تبجّح به طوال حياته؟ وهل يستطيع مد لسانه لأولئك الذين استخدمهم لتنفيذ مآربه وخططه، وينظر نظرة ساخرة لكل من مهد لهذا الدين ودعا له، بعد أن سطا عليه وحوَّله إلى أداة سخرها لمنافعه وتوطيد عرشه؟ وما عسى ملأ معاوية أن يقولوا لمعاوية، وكيف سيكون حوارهم في ذلك اليوم الرهيب؟ ويبدو لنا أنه كان بمواجهة كل موسى النبي، فرعون طاغ متسلط.

وبمواجهة كل علي الإمام، معاوية طاغ متسلط أيضاً.

والمعركة قائمة دائماً بين الحق والباطل، والحق أوضح من أن يخفى. ودروب الباطل مكشوفة دائماً.

وسلام على أمير المؤمنين عندما يقول: (ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة)[1] ولن يفوت أحد متى ما عرف دعوة علي ومنهجه ومركزه من رسول الله ﷺ والإسلام، أن يعرف من كان معاوية، ويعرف حجم الجريمة التي ارتكبها بحق الإسلام والتي لا يزال يعاني منها المسلمون بل كل أبناء المعمورة إلى اليوم.

إن من العجب أنه لا يزال أحد يجهل ذلك حتى الآن.

(١) نهج البلاغة ٦٩٩.